

آزاتسی

آزاتسی

رواية

مجاهد البوسيفي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ر.م.ك 0-0697-01-614-978

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ديفاف
DIFAF PUBLISHING

editions.difaf@gmail.com

بيروت - لبنان

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

ل.. هدى السراري

لايدن، اكتوبر 1996

بعد يوم طويل في مركز استقبال اللاجئين بمطار أمستردام. اصطحبت موظفة دائرة الهجرة مجموعتنا الصغيرة إلى محطة القطارات الواقعة تحت الأرض؛ قطعت لنا التذاكر اللازمة، وأشرفت على صعودنا للقطار الذاهب إلى مدينة لايدن.

كنا؛ ثلاثة أكراد وعربي من العراق، أربعة أفغان بينهم امرأة، وإفريقي من سيراليون. معظمنا لم يركب قطارا وحتى لم يره مباشرة في حياته، لذا لم نكف عن سؤال من حولنا وتبادل الخبرات الطارئة في مجال القطارات ومحطاتها وبعد أن كدنا نتيه مرات عدة، تمكننا من الوصول بمشقة كبيرة إلى مركز إيواء اللاجئين على طرف المدينة، حيث تم توزيعنا على الغرف.

دخلت مع الأفغاني إلى الغرفة التي خصصت لنا. كان محظوظا - أو مُهما كما ظننت -، إذ ما إن دخلنا الغرفة وبدأنا استطلاع المكان حتى حضر الشاي والحلوى، وجاء المرحبون. امتلأت الغرفة بحديث "الباشتون"، شرعت في ترتيب أغراضي في فردة الدولاب المستطيلة المخصصة لي، وضعت الكتب والأوراق القليلة التي جلبتها معي في الجزء السفلي منها، واضعا بجذر وانتباه - مشتريات السوق الحرة من مطار قرطاج، زجاجة فودكا روسية فحلة، وأخرى ريكارد فرنسي

يتحول لونه إلى الكابتشينو الداكن عند مزجه بالماء. أكملت ترتيب متاعي ودفعت بالحقيبة تحت سرير تصادف أنه لي. أخبرنا المشرف الذي منحنا مفتاحين خاصين بنا وزودنا بأدوات نظافة وفرش أسنان بأن لنا رفيقا ثالثا من الباكستان وهو في المطعم الآن، سلمنا تذاكر صغيرة مطبوعة على عجل للوجبات، وأعلمنا أن أمامنا ثلاثة أرباع الساعة للحاق بموعد العشاء.

بعد أن خرج زواره، جلس الأفغاني على كرسيه مقرقشا حلواه على مهل، غير مكترث وبعيدا عن حالة الترقب والإثارة التي تعتريني، أنيق وبه لمعة في جسمه وملابسه، جلست على الكرسي المقابل وتناولت الشاي الممدود لي في كوب كبير من زجاج أبيض سميك، شاي أفغاني خفيف بدون سكر، عليك أن تقرمش الحلوى إذا أردت تحليته. غمغم مرحبا وسهم يراقب أربنا صغيرا يأكل باطمئنان العشب النامي بنجل في المسافة الصغيرة الفاصلة بين القاطعين خلف النافذة، ساد السكون للحظات ثم عاد ملتفتا من سفرته القصيرة ليكمل تعارفه:

- وير آريو فروم؟.

- ليبيا، آي آم فروم ليبيا.

- ليبيا، تربولي..عرب مسلم..

من تركيبة الجملة عرفت أن إنجليزيتة ليست بعيدة عن المتناول، أشاع هذا الكشف بعض الراحة داخلي فأجبتة متشجعا:

- ياس..عرب مسلم.

فهمت منه أنه سبق له زيارة طرابلس وبمساعدة بسيطة مني تذكر اسم "الفندق الكبير" مقابل الكورنيش حيث أقام، وضع سبابته على صدره مكملا:

- مي..افغانستان، ماي نيم أز داوود.

كررها بالعربي الفصيح: إسمي إميل داوود، أفغانستان.
ثم غاب من جديد، يمسد صلته اللامعة، مارا بما تبقى في نهاية
الرأس من شعر بهدوء وتركيز، كمن يحصي خسائر بعيدة. كانت
"طالبان" قد دخلت كابول منذ أيام، سحبوا آخر رؤساء أفغانستان
الجنرال نجيب الله من قعر مندوبية الأمم المتحدة التي لجأ إليها منذ
سيطرة المجاهدين على العاصمة، وشنقوه في الميدان العام صحبة أخيه
ومنذئذ تدفق الأفغان بوتيرة عالية على مراكز اللجوء، معظمهم في حالة
رثة تعجب معها كيف تمكنوا من الوصول إلى هنا؟!

فحض مذكرا بموعد العشاء، تناول صحنه وكوبه ومعلقته وخرج
بنفس الإيقاع المتريث، وكأنه يهم مع كل لحظة بالرجوع، فضلت
البقاء في الغرفة، أخرجت "السندويتش" التي احتفظت بها من المطار،
جبن وطماطم وخس، سكبت مسرعا بعض الفودكا في كوبتي،
وتناولت رواية "دون كيخوته" التي كنت قد اشتريتها من دمشق،
سرحت بعد أسطر وبدأت أفكر فيما حدث.

طرابلس (مارس) 1988

دفعت الخمسين قرشا إلى السائق، مندفعاً من ميدان السويحلي قاطعاً شارع الرشيد، -مطالعا الباعة الذين همدت ضوضاؤهم مع الشمس التي غربت منذ قليل - نحو ميدان بورقيبة، باتجاه مقر رابطة الكتاب لحضور الاحتفاء بالكتاب الذين خرجوا من السجن منذ أيام. الجو صاف، نسمة ربيعية مخلوطة بطعم البحر تجول المكان حرة طليقة مبتهجة منسجمة مع الجو العام المترع بالفرح والأمل.

أدار السائق الراديو فانطلق صوت محمد وردي منشدا قصيدة محمد الفيتوري التي صار يحفظها الجميع عن ظهر قلب:

أصبح الصبح فلا السجن ولا السجن باق

وإذا الحزن الذى كحل هاتيك المافي

فرحة نابعة من كل قلب يابلادى

بدأ هذا الأسبوع المجنون قبل أيام في مدينة "راس لانوف" حين كان أعضاء مؤتمر الشعب العام منهمكين بمناقشة جدول الأعمال مباشرة على التلفزيون، فجأة تدخل أمين المؤتمر العام ليسكت المتكلم طالبا عودة الأعضاء إلى أماكنهم والتزام الصمت التام، مبلغا إياهم بصوته المتحشرج أن الأخ القائد معهم على الخط ويريد أن يوجه كلمة للمؤتمر. ووسط صمت مطبق عميق جاء بعد لحظات صوت العقيد

الأبوي بنبرته البدوية هادئا في البدء ثم واضحا مرتفعا بالتدريج يطلب من أهالي السجناء السياسيين التوجه إلى سجن "بوسليم" بعد الغد كي يستقبلوا ذويهم المسجونين الذين سيطلق سراحهم في احتفال جماهيري مهيب. رفع المؤتمرون جلستهم إلى أجل غير مسمى وركبوا سياراتهم في مواكب مرتجلة نحو العاصمة المنسية للحاق بالحدث، وتوجه أهالي السجناء ومن ساقه الجو المحموم الذي ساد بعد المداخللة مباشرة إلى الركن الجنوبي من طرابلس مقر السجن السياسي الرهيب على مشارف مشاريع الإسكان الشعبي المكتظة التي أقيم عليها مخيم مرتجل. وفي اليوم الموعود ظهر القائد وهو يقود بلدوز تعربش عليه الحرس من كل جانب متوجها إلى بوابة السجن ليطيح بها وسط اهتافات المحنونة من الجماهير التي أحاطت المكان كالسيل. وما إن انقشع الغبار حتى انكشف المشهد عن العقيد من جديد يعتلي منبرا أقيم على عجل بكامل قيافته العسكرية يخطب في الجماهير والسجناء المبهوتين، مرددا أبيات قصيدة الفيتوري التي نظمها بمناسبة الانتفاضة على الجنرال إبراهيم عبود في السودان، معلنا للسجناء المتكومين بجانب أغراضهم، أنهم طلقاء أحرار وأن الثورة غفرت لهم ماتقدم منهم، وبإمكانهم العودة إلى أعمالهم دون خوف، داعيا إياهم إلى التجمع غدا أمام مبنى الجوازات لاستلام وثائقهم المحجوزة.

ومن جديد ظهر العقيد منتشيا من شباك الدور الثالث في مبنى الجوازات بشارع السيدي علي وسط المدينة، كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة وموحية على قميص حريري أخضر مسدلا كوفية فلسطينية رصاصية رقيقة تنتهي عند حافتها بألوان العلم الفلسطيني، الزغاريذ والهتافات تأتي من تحت، العقيد يمزق قوائم الممنوعين من السفر ليعلو الصخب، الذي زاده دخول المطرب السوداني محمد وردي ليحتضن

العقيد مطولا قبل أن يسلمه المايك ويشرع في تجويد أغنية "أصبح الصبح" مباشرة على الجماهير دون موسيقى، وما إن انطلق صوته الشجي حتى اتجه العقيد إلى أدراج الجوازات المحجوزة ملقيا بها من النافذة على الطلقاء الذين انهمكوا في "البربشة" بحثا عن أوراقهم وسط تدافع الحرية المجنون.

أصبح الصبح

فلا السجن ولا السجن باق

واذا الفجر جناحان يرفان عليك

واذا الحزن الذي كحل هاتيك المآقي

والذي شد وثاقا بوثاق

والذي بعثرنا في كل واد

فرحة نابغة من كل قلب يابلادي

يستمر "الراديو" في الغناء، والبحر يلحس مساء طرابلس والكل في عيد، لقد أحدث خروج المساجين المفاجيء هزة في جسد البلاد الميت منذ سنوات طويلة، قامت البلد من موتها السريري وارتسم على ملامح وجهها المتعب علامات الأمل والعودة للحياة، هذا ما أراه في وجوه رفاق التاكسي الآن، وهو ما يحدث في كل مكان من البلاد؛ حالة من الفرح والخفة تنتاب طرابلس السكرانة بالنشوة لتصدرها مسرح الحدث بعد غيبة طويلة، حيث مكنتها احتضانها لحدث "اللقاء" من استرداد مكانتها بعد تجاهل طويل، استعادت منزلتها التي فقدتها منذ الغارة الأمريكية أواسط الثمانينات عندما استمرت المضادات الأرضية تطلق نيرانها بمعدل مرتين كل ليلة لمدة ثلاثة أيام ودأب التلفزيون وكذلك الإذاعة والصحف والبيانات العسكرية المتتالية على الإعلان عن إسقاط الطائرات الأمريكية، الأمر الذي دفع الأمريكان إلى

نفي ذلك، وحصروا اعتداءهم بغارة واحدة شنوها في الساعة الثانية وانهت في الثانية والرابع من فجر يوم الخامس عشر من ابريل 1986، معتذرين لأهالي الضحايا الذين مزقتهم قنابل طائراتها الوحشية، ومتعللين بسوء الطقس، خاتمين الرد بأن لالعلاقة لهم بأية غارات أخرى يعلن عنها التلفزيون المحلي، وهكذا وقع الناس في الحيرة والغموض حول مصدر هذه الغارات المتكررة وقرروا الخروج إلى البساتين والمزارع والقرى المجاورة بينما انهمك العديد من أعضاء اللجان الثورية الحاكمة في اقتحام مقارهم وشرعوا في تمزيق ملفاتهم تحسبا لتغيير الظروف.

قرر الجميع انتظار انجلاء الموقف، فالتصريح الأمريكي شوش على الناس وجعل من احتمال وجود عدو ثالث لازال مجهولا أمرا واردا، واستمر الحال بهذا الشكل حتى كادت العاصمة تخلو من الناس لولا بعض الكتائب الأمنية المخلصة وماتبقى من ضباط وحدويين أحرارا وأقلية من العائلات الطرابلسية العريقة التي لا تملك ملجأ غير بيوتها المعتادة، حتى الليلة الثالثة عندما خرج العقيد معمر القذافي بعد فاصل مطول من مدافع (م.ط) المضادة للطائرات للمرة الأولى منذ الأحداث في بذلته الماريشالية البيضاء بياقتها المذهبة ليطلب من السكان العودة إلى أماكنهم داعيا الجماهير للخروج إلى الشارع والتعبير عن تحديهم للعدوان والاحتفال بالنصر، وهو ما حدث فورا بعد أن اشعلت الأضواء وتم العثور على ما يكفي من عدد لتدبير مجموعة فرحة خرجت للشارع واستمرت في الهتاف مباشرة أمام شاشة التلفزيون حتى الصباح لينضم لها مجاميع أخرى استلمت منها هذا الواجب الثوري الطارئ والمهم.

غير أن موقف السكان أوقعهم تحت سلطة الالتباس، ففي نهاية الأسبوع ظهر القائد ببذلة الصاعقة المرقطة في مدينة بنغازي على بعد

ألف كيلو متر من العاصمة ليعلن من فوق سيارة (رنج روفر) مموهة أن الذين فروا في يوم المواجهه سقطت مصداقية مسيراتهم ووضعت عهودهم تحت سلطة الشك، وبعد هذه الرسالة الصريحة تحولت طرابلس إلى مدينة منبوذة في أدبيات الثورة يشار إليها بالرهافة والجنب وعدم الوطنية وأخذ بدو المناطق الوسطى والجنوب الذين استوطنوها يتحشرون بها متجولين في شوارعها بأسلحتهم البارزة للعيان، ولم يكف منذئذ كتاب برامج موسم شهر رمضان عن وضع مشاهد ليمة تصور فارين أخذوا أولاد الجيران بالخطأ وفلاحين وصلوا للتو محملين بالإمدادات الغذائية وهم في كامل دهشتهم لخلو المدينة من السكان وعمال مقيمين من شرق آسيا مستمتعين بالنوم وسط الطرقات الخالية من السيارات بعد عمليات الفرار الكبيرة، وبدورهم كان سكان العاصمة الجريحة يردون على هذا بحملات مضادة من النكات "الشنيعه" الموجهة مباشرة إلى الهدف.

توقف التاكسي في زحمة شارع قرقارش الذي حافظ على مباهجه في أصعب الأوقات، الطريق مزدوجة دون حاجز يفصلها والناس تتقاطر بين الجانبين للتبضع وارتياح المقاهي ومحلات المثلجات، الموسيقى تملأ من أماكن مختلفة بينما تتجول نساء الطبقة المرفهة غير عابئات بالتحذيرات التي يطلقها البدو الذين يمتطون سيارات فارهة تطل من نوافذها بنادق الكلاشينكوف وكأنهم خارجون للصيد.

عندما جئت من القرية إلى طرابلس كان البدوي يدخل العاصمة كميلاد جديد له، متكيفا مع قانونها ومحملا سخريتها اللاذعة وتشابه بنائها وملابسها الضيقة التي تحد من حركة الجسم ولكنها أهلها السريعة الشبيهة بلكنة الطليان، المدينة للبدوي: هي الجنة والنار في الوقت نفسه، حب وكره، تعال وتذل، غزل وإعراض وكل المتضادات التي

تكرر في الحياة وتكتشف في هذه العلاقة المتشكلة من طيات متشابكة لاحدود لها بقدر مامر من حضر ومضر وتاريخ وأزمان.

عندما قرر أخي الذي سبقنا وتمكن من الحصول على عمل أن يأتي بنا إلى طرابلس من قريتنا الصغيرة المحذوفة في الصحراء وسكانها الذين يتكونون من قبيلة واحدة صافية مقتصرة على ذاتها ومكتفية بها، أخذنا نجتمع متاعنا القليل في صرر و"سحاحير"، سألت أبي في ليلة مغادرتنا ما إذا كان مناسبا أن آخذ معي بعض الأحجار لأهل المدينة على اعتبار أن وجودها غير محتمل قياسا بالصورة الرخامية الخضراء التي تشكلت عندي عن المكان الذي نقصده، ضحك أبي، ضحك طويلا فاحصا بقدميه الأرض حتى جمع صوته باقي العائلة، وبعد برهة أنهى ضحكته الطويلة الصافية وانسحب ليكمل ترتيباته مكتفيا عن التعليق بضمة قوية حتى سمعت صدى ضحكته المتراجعة إلى صدره العريض، كان قد جاء إلى طرابلس مرة واحدة في أواخر الأربعينات بقصد التموين عام الثلج، الذي تزامن مع عام نكبة فلسطين وانتشار الجوع كالوباء صحبة رجال من القبيلة، باتوا في "قرقارش" التي يعبرها التاكسي بصعوبة الآن عندما كانت كثباننا من الرمال تواجه البحر، مهجورة وخالية من العمران.

تخلص السائق من الزحمة أخيرا وركن السيارة بجانب محطة البنزين التي بالكاد تبرز بين الأوساخ وكان بالإمكان في زمن مضى أن تنتظر فيها تنظيف سيارتك وتغيير زيوتها وأنت تتناول البيرة الباردة، اتجهت يمينا نحو الفيلا البحرية حيث الصالة التي سيقام فيها حفل الاحتفاء الذي كان بالطبع ينظم تحت عنوان فخم: مهرجان الحرية.

لايدن

أمضيت الأسبوع الأول في المركز أتحسس المكان وأتعرف على قاطنيه والقيام بإجراءات طلب اللجوء ومتابعة الفحص الطبي الذي يشمل الكشف على الجهاز التنفسي وتحاليل الدم وخلافه. وحاولت التعود على نمط وأوقات المهام اليومية البسيطة مثل تغيير الشراشف واستلام الصابون والتعود على الجو العام، فعلت كل ذلك بإحساس من التقبل، وبحبور قريب من الفرح نتج عن معرفتي بأنه لن يتوجب علي بعد اليوم أن أرجع من حيث أتيت وهو أشد ماكنت اخشاه في الأيام الأولى، على الأقل لاعودة في المدى المنظور حتى يتم البت في طلبي، وهو مارفع معنوياتي وأنساني شقاء الوصول، عدم الرجوع إلى ليبيا الجماهيرية كان المعلومة الوحيدة القادرة على انتشالي من اضطرابي، راجعت محاولاتي المتكررة للخروج والجهد الذي بذلته من أجل ذلك وإحساس القرف المركز الذي صاحبي في الأشهر والسنوات التي سبقت، ونتيجة لهذه المراجعات كان دائما من المستحيل علي العودة تحت أي ظرف، لقد أتيت من متاهة متقنة وقرار العودة إليها غير قابل للتنفيذ ولو بالذهاب بعيدا في كل شيء، من يريد العودة إلى تلك السنوات التي كنت فيها حائرا! ماذا أفعل بروحي التي تعطلت عن الحياة وماعاد يجديها إلا الخروج في أرض الله الواسعة للبحث عن

براح جديد أصهل فيه أو أنبح أ وأئن مثل جريح مكلوم، أشد أنواع الموت هو موت الروح، وأن تستيقظ صباحا وتسأل نفسك ذلك السؤال الكريه، لماذا استيقظت وما الذي سأفعله في يوم آخر طويل؟ فليس هناك في الخارج وجود أفق ولو ليوم واحد.

مركز اللجوء الذي أقيم فيه الآن على شكل مقفل من البناء الجاهز، على الطرف الجنوبي من المدينة يبعد مسافة عشر دقائق بالحافلة، تحوطه مساحة خضراء تحفها بعض المزارع وتنتهي إلى غابة صغيرة في الطرف الأيمن، على جانب الطريق السريع الموصل إلى مدينة (أوترخت). يقع المطعم على يسار البوابة والقسم الرسمي الخاص بالشرطة والصحة والإدارة يقابله على الطرف الثاني بحيث تفصل بينهما البوابة، بعد مسافة فارغة للمششي والحركة توجد ستة قواطع مستطيلة متجانبة يقطن فيها زهاء ثلاثمائة لاجئ من أربعين جنسية كما فهمت في اليوم التالي لوصولي عندما دعوا المجموعة الجديدة لاجتماع معلوماتي حول المخيم وسكانه وقوانينه.

بصبر وتأن شرحت لنا الوظيفة المكلفة (موي) حقوقنا وواجباتنا (اساسا تقتصر على احترام الآخرين وعدم تمييزهم وتنظيف أماكن نومنا) ثم زودتنا بنسخ مكتوبة بلغاتنا لما قيل وما إن شرحت لنا موي المراحل التي يمر بها طلب اللجوء وعرفت أن عندي ما يكفي من الوقت لتدبر حلول لكل طارئ حتى انتابني شعور الراحة واستعدت قدرا لا بأس به من الطمأنينة وانزرعت في روحي مداميك السكينة وحب الحياة، كنت اعرف أنني أتيت من القاع، وعدم العودة إليه تعني أنني فعلا لازلت رابحا في هذه اللعبة. بهذا الشعور المقبل أتممت الإجراءات وتحصلت على "الكارت الأصفر" الذي يسمح لي بالتنقل داخل حدود هولندا ودخل اسمي السجلات بشكل رسمي.

سريري يقع في الغرفة 427 بالقاطع الخامس بقرب المطعم وأمام البوابة، يحتوي كل قاطع (يسمى هنا بلوك) عشرين غرفة معظمها رباعية، مدخل 427 يواجه الحمام وغير بعيد عن الباب الرئيسي الخاص بالقاطع، غرفة رباعية بسريرين فوق بعض كأسرة معسكرات الجيش، الأفغاني الذي أتى معي من المطار غادر إلى "كامب" آخر كما أخبرني قبل ذهابه وجاء محله لاجئ باكستاني آخر، عرف عن نفسه بأنه المهندس شاكير، هادئ الطباع ويردد بعض جمل عربية حفظها أثناء عمله بالمملكة العربية السعودية، عبد الاحمد (رفيق الغرفة الآخر الذي وجدته أمامي) كان أيضا في السعودية، فهمت ذلك منه أثناء أحاديثنا القصيرة التي نستخدم فيها مزيجا من العربية والإنجليزية وكمية وافرة من إشارات اليد، عبد الاحمد هو أول من خلخل صورة اللجوء المثالية القابعة في خيالي حين افترضت قبل وصولي أنني سأخوض نقاشا مستمرا في السياسة والأدب والمصير متوهما أن اللاجئيين من أهل المعرفة وأصحاب القضايا، عندما سألته ماذا كان يفعل في السعودية أجابني بأنه كان يعمل لسنوات كسائق آلات ثقيلة، جرارات وماشابه، قال ذلك وهو يهمس ويتلفت رغم أننا كنا وحدنا في الغرفة وكان وجهه يعبر لي أنه إنما يخصني بهذه المعلومة التي يكاد يندم على قولها، ومن هذا الجواب العفوي المنفتح والقاسي تعلمت أول درس واقعي في الكامب، صدمني وأثار لي طريقي في الوقت نفسه، ارتبط طلب اللجوء في ذهني بصورة عاطفية، كنت أتخيل نفسي أحيانا وأنا اتبادل وجهات النظر مع إخواني من النخبة الهاربة حول مشاكل الدنيا وخاصة العالم الثالث ونحن نحتسي النبيذ (انا لا أحب النبيذ في الواقع)، وجاء جواب رفيقي سائق الشاحنة ليردني إلى الواقع الحقيقي في المكان الذي سأنام فيه أشهرها منذ الآن.

أصبح لي روتيني الخاص، أستيقظ في الضحى أواجه أصعب أوقات اليوم عند الدخول إلى الحمام المشترك حيث الدوش والمغاسل والمراحيض في نفس الحيز، رائحة خليط من أنواع رديئة من المعاجين والنشادر ومخاط من يصادف وجوده من القاطنين، لافتة معلقة في المغاسل مكتوب عليها: don't shit in the douche

ذلك أن بعض البدو والأفارقة والآسيويين العفويين يختلط عليهم الأمر ويقضون الحاجة في الأماكن غير المناسبة، للتغلب على هذه المشكلة طورت تكتيكا خاصا بي أسميته (فن احتراق المقرف)، أستلقي عادة على السرير مرخيا صوت التلفزيون متسمعا الممر محاولا معرفة إن كان عامل التنظيفات قد مر قبل أن أخرج، أحيانا يجيب تقديري فأجد المكان في حالة سيئة فأهني (واجباتي) بأسرع وقت ممكن وأعبر إلى الغرفة من جديد، وعندما يكون الحظ حسنا أنتهز الفرصة وأستحم غالبا ينتابني إحساس بالاشمئزاز والحنق لعدم استطاعتي التوقف عن التفكير في عدد الذين سبقوني واستمنوا على نفس المسافة التي أقف عليها الآن.

عند عودتي للغرفة أسكب كأس شاي من "الترمس" الذي على الطاولة والعائد إلى المهندس شاكير، أمضي بعض الوقت أمام التلفزيون المعلق ومراقبة الجو العام من النافذة أو تقليب بعض الكتب والمجلات القليلة التي أحضرتها معي، منتظرا أن يحين دور قاطعنا للغداء، إذ إن النظام يقتضي البدء بالبلوك رقم واحد، حوالي الساعة الثانية آخذ صحنين وشوكتي وسكيني من على الطاولة متفقدًا وجود تذكرتي في جيبي وأتجه للمطعم، حيث سندويشات الجبنة والمارتديلا والشاي كوجبة إفطار مثالية لبداية اليوم، بعد الفطور أتوجه لمكتب الاستعلامات لتوقيع التمام اليومي ثم إلى المكتبة لقراءة الجريدة ولقاء

أبوهدى حيث يكون عندنا بعض الإقتراحات لتمضية الوقت، نلعب الدومينو في المقهى الذي يحتل جزءاً صغيراً بجانب المطعم أو نذهب لغرفته التي يتشارك فيها مع أفغانيين وعراقيين لمتابعة الأخبار وأحياناً نذهب في جولات مستطلعة للمدينة وتناول شيء من البيرة أو الشاي متبادلين أخبار المركز وجامعناه من خبرات حول اللجوء. أحاول ما أمكن تقليل ترددي على الغرفة التي تكون عادة مشغولة بمعارف عبد الاحد وشاكير الذين يتجمعون منذ الظهر يشربون الشاي ويتابعون أخبار المعركة الدائرة بين نواز شريف وبنظير بوتو على السبيل ان ان معلقين بلغة الاردو على الأحداث في نقاشات طويلة تستمر إلى مابعد دخول الليل.

أبو هدى

تعرفت على أبو هدى في المكتبة عندما كان كلانا ينتظر دوره لقراءة النسخة الوحيدة الموجودة من جريدة الحياة، كنا نقلب في الرف البسيط الذي يحوي الكتب العربية. خمسيني قوي البنية ومألوف الوجه، من مواليد الزبير جنوب البصرة أصبح عضواً في الحزب الشيوعي العراقي إثر حملة قام بها الحزب لاستقطاب الشقاوات في السجون ومثل حيوان وفي، منح حياته بالكامل منذئذ للمعاني الجديدة التي رباها عليها الحزب، عاش في فورة الشباب مجد الحزب وعزته أيام عبدالكريم قاسم ثم بعد ذلك سنوات الشدة والقحط بعد أن نجح القوميون في الإنقلاب على قاسم وقتله وتجريد الحرس القومي لحملة شرسة قتلت الآلاف من الشيوعيين وطوحت ببوهدى إلى سجن نفرة السلمان الرهيب في وسط الصحراء ليبقى هناك حتى تصالح حزبه مع البعثيين الذين كانوا بدورهم

قد انقلبوا على شريكهم القومي وانفردوا بالحكم. غير أن الجبهة الوطنية التي ضمت الحزب الشيوعي وحزب البعث لم تدم طويلا وعاد التنكيل بالشيوعيين إلى الحال الأول لتتخذ قيادة حزبهم قرارا بتهجير الأعضاء إلى خارج البلاد ثم قرارا آخر بتجميعهم في كردستان لتشكيل سرايا مقاتلة ليقضي بوهدى سنوات أخرى بين الجبال والثلوج والقرى المتناثرة والطبيعة ذات الجمال المتوحش يقود سرية بها كتاب وفنانون - التقيت بعضهم فيما بعد في ليبيا ودمشق وصار لي أصدقاء منهم - في حمى مجنونة وعشية بهدف محاصرة المدينة بالريف، وهو أمر لن يتم أبدا خصوصا في ظل ذلك النهج الأحق لقيادة الحزب.

استمرت حرب الجمهورية المنسية مع إيران تلك، طوال الثمانينات قبل أن تتناثر سرية بوهدى بين المنافي من جديد. بعد أن توقفت اللجنة المركزية عن إبداعاتها المهلكة.

سيتمكن ابوهدى من ممارسة ماتبقى من حياته بحرية جريئة حيث قام بجولة في الإتحاد السوفياتي الحليف الكبير، أوصلته إلى معامل سبييريا للحديد حيث كان لزاما عليه تناول ربع قنينة من الفودكا المحلية وكمية معقولة من الشحوم على الريق كي يتمكن من الذهاب للعمل.

من سبييريا انحدر بوهدى في رحلة طويلة نحو البحر ليتفقد شباب أيدولوجيته ويعيش مع رفيقة قديمة في بودابست حيث استأجر محالا لبيع الخمور شراكة مع صديقين سعوديين، وهي تجارة سرعان ماغضبت عليها السماء لتبور وتنتهي على شكل دعوات للرفاق والمعارف الطارئين الذين يصادف وجودهم، تشرب فيها البضاعة حتى آخر قنينة بالجان، وبالكاد استطاع تدبير أوراق صالحة للفرار من بئر الكحول تلك، ليصل كامب لايدن قبلي بيوم.

البارحة مر علي في الغرفة بعد العشاء، متسلحا بمظلة وجاكت أسود من الجلد الطبيعي يضفي عليه وجاهة مناسبة لماضيه، كنت جالسا على سرير عبدالاحد بقرب الباب، أقلب في رواية (دون كيخوته) التي كنت قد اشتريتها قبل ثلاث سنوات من دمشق.

لم أجدها في معرض "مكتبة الأسد" ولا ميسلون فرجوت صديقا عراقيا أن يتدبرها لي، وبعد مشاورات قصيرة في مقهى الروضة مكان تجمع عراقيي دمشق للعب الدومينو وقراءة الصحف وتبادل الأخبار، ذهبنا إلى مكتبة جانبية عتيقة لا يكاد مدخلها يرى، تحس وأنت تدخلها بأنك في "داموس"، تحدثت جانبا مع البائع الذي غاب قليلا في مغارته وعاد بنسخة مهلهلة استلمتها بتردد قبل أن ألاحظ أنه مامن اسم لكايب أو مترجم على الغلاف بل كلمة (بن محمد)، تمهل البائع في الرد وهو يزني بعينين ناعستين من بين خلطة الظلام والنور الخفيف اللذان يتصارعان في ذلك الكهف المحير، كان على بعض الأسف والضجر وعدم الرغبة في شرح ما لاجدوى من شرحه، لكنه أجابني أخيرا بأن رواية مثل "دون كيخوته" تجاوزت كاتبها (ثربانتيس) منذ زمان طويل، وأن هذا لم يحدث إلا مع بضعة كتب صارت لقلتها وندرة مافيهما تنتقل بين القارات بوقار حقيقي كبير، ألف ليلة والألياذة، هذه كتب لم يعد تغيير اسم الكاتب أو المكتوب أو الإضافة إليه والأخذ منه.. كل ذلك لم يعد يعني شيئا. ثم توقف للحظة هازا النسخة المهلهلة في وجهي قبل أن يوقفها أمام عيني مباشرة مؤنبا إياي بتؤدة لعدم ملاحظة أن اسم الغلاف يبدأ بين وليس بأبو مما يعني أن الكتاب جاء أصلا من المغرب العربي جماعة بن محمد وليس ابو محمد، وأن هذا يجد ذاته دليل على حرية التنقل الكبيرة التي يحظى بها الكتاب الذي يكتبه من جديد من يشاء ويضيف إليه ويأخذ منه ما يحب ويرغب

ويحس، وعبر هذه الكتابات المجهولة والأسفار الجديدة تحولت هذه الكتب إلى ملك انساني مشترك يضم كل الناموس المتفق عليه في الحياة، المولد والحب والممات.

كنت أفكر في كلام البائع وهو يتحدث ضاع مني بعضه ولم أذكره إلا بالتدريج وعلى مراحل متباعدة وأماكن متفرقة، بعد أن أنهى البائع مطالعته نبه علي بكلمتين حاسمتين:

جلد الكتاب

وأشار إلى مغارة جانبية تشبه دكانه فدخلتها وطلبت من صاحب المحل تجليد الكتاب وعدت بعد يومين لأستلمه بغلافه الأسود المتين. عندما عدت إلى طرابلس أعرت الكتاب لأياد عدة، ولم يرجع لي إلا في الأسابيع الأخيرة لمغادرتي فقررت جلبه معي لأكمل قراءته. كان سريري الواقع تحت التلفزيون المعلق محجوزا من قبل ثلاثة باكستانيين، يشتركون مع المجموعة التي امتلأت بها الغرفة في نقاش ساخن حول الأوضاع في الباكستان التي شهدت تصعيدا جديدا، إذ تم اغتيال مرتضى بوتو أخو بناظير، كانوا يتابعون الحدث على اليريك نيوز في قناة السي ان ان، ويتداخلون في نقاشات عالية بالاردو تتردد فيها أسماء بوتو وضياء الحق وأمريكا والهند، أنقذتني طرقات بوهدي، بداية ظننته باكستانيا آخر قد يكون سمع خبرا جديدا يريد إيصاله لغرفة العمليات هذه، وما إن فتحت الباب حتى فاجأني بوهدي بسؤاله:

- تلعب كونكان؟
- شنو الكونكان؟
- انت ماعليك بس تعال نروح لبوآثار وبعدين أعلمك.

كنت متعودا على حكاية ال (بو) عند عرب آسيا عموما من خلال عملي ورحلاتي، إذ لا توجد في ليبيا ويحل محلها بن يعني فلان بن فلان وليس فلان ابو فلان اندسنا تحت المظلة اتقاء المطر الغزير في الخارج، مطر (أكتوبر) المنذر بشتاء طويل، اتجهنا إلى البلك الأول ونحن نغمغم بحمل متقطعة بفعل احتراق الماء لمظلتنا، كان بعض القاطنين يملكون سريعا نحو مقاصدهم، وآخرين اكتفوا بمراقبة المنظر من الباب الرئيسي للقاطع ومن خلف النوافذ، فتح لنا الباب رجل جسيم مرحبا، دخلنا الحيز الضيق المخصص لشخص واحد، سرير مفرد جلس عليه بوهدي بجانب بوآثار وجلس الرجل السبعيني الذي وجدناه في الغرفة مقابلي على طاولة البلاستيك البيضاء، الغرفة الصغيرة ممتلئة برائحة البنسلين المخلوطة بالتبغ، ومن خلال العبارات الترحيبية وجمل التعارف الأولى، تذكرت أنني رأيت هذا الشيخ الوقور بقامته المعبرة المنحنية تحت الثقل ونظارته المدغدشة بالذكريات بأناقة ملبسه ومشيته المتئدة في المرات القليلة التي يُرى فيها، الواقع كان هذا الكائن الهادئ الكبير في السن يأخذ بعض تفكيره في الأوقات القليلة التي أحلو فيها مع نفسي في الغرفة أو في أوقات ما قبل النوم، مفكرا في مواضيع مختلفة تمر مثل شريط سريع تصب في منبع طلب اللجوء، ما الذي دفع بهذا (الكُبارة) الى طلب اللجوء؟ وكيف يتدبر حياته في الغرفة الرباعية مع ثلاثة شبان؟ ثم من هو قبل كل شيء؟ مثل هذه اللقطات كانت تمر أمامي سريعة عندما أراه أو وأنا اتهاوى بين الصحو والنوم في السرير الواقع تحت التلفزيون المعلق. قام بوهدي بمهمة التعريف، أشار الى الرجل قائلاً:

- الأستاذ بوجواد، فنان كبير ومن مؤسسي السينما والمسرح في العراق، صديق عزيز ومناضل قديم.

- هلا عيني، والله هلا بخونا الليبي

ردد المؤسس بصوت هادئ وقور.

- وهذا

واصل بوهدى بعد قليل مشيرا إلى صاحب الغرفة على السرير -
بوآثار، عزيز بصراوي يعجبك، صار له شي شهرين هنا، أخرج رجل
علبتي بيرة نوع هانيكان ومدها باتجاهنا، فرشنا الورق وأخذنا نلعب
الكونكان الذي تبين أنه لعبة (الرومينو) التي نلعبها في ليبيا بتبديل
بسيط في مواقع الأوراق عند الترتيب، شرح لي بوهدى قانون اللعبة
العراقي وتدخل أثناء اللعب لتصحيح الأخطاء التي كنت أرتكبها مرارا
وتكرارا ومع ذلك فقد أربكت اللعب في كل مرة تقريبا لأنني كنت
أرتب كل أوراقتي بالطريقة الليبية التي تعودت عليها في المرات المتباعدة
التي كان يصادف أن اللعب فيها الريمينو.

بوآثار

- خرطي.. سائلة اللجوء كلها خرطي بحرطي.

قال بوآثار ردا على استفساري حول فكرته عن اللجوء باعتباره
أقدم من في الجلسة ومتحصلا على اللجوء السياسي بعد ثلاثة أسابيع
من وصوله، ويفترض أن يغادر المركز بمجرد أن يتحصل على بيت.
كان يبدو في عمر بوهدى تقريبا، انحدر من الجنوب نحو بغداد برتبة
رئيس عرفاء وتقارير رؤسائه التي تمتدح إخلاصه وكفاءته. في بغداد
تأهل بفضل بنيته الجسدية وحضور بديته لأخذ دورات متقدمة تخرج
منها ملازما في الإنضباط العسكري، وكلف فيما بعد بقيادة وحدة
صغيرة مكلفة بالقبض على الجنود الفارين من الجيش والمواطنين الذين

لم يلتحقوا بخدمة العلم بعد، ازدهر عمله أثناء الحرب مع إيران لمدة ثماني سنوات، لقد كان العمل يزداد تلقائيا، فكلما أمعنت الحرب في الوقت والدم ازداد عدد الفارين.

بعد الحرب استدعي بو آثار الذي أصبح برتبة رائد لمبنى مخبرات الجيش ليكلف من جديد بالمساهمة مع ضباط آخرين وعدة رفاق متجهمين بحماية المقر الرئيسي للحزب وبقي في هذه المهمة حتى اتخذ الأمين العام للحزب الرفيق المهيب صدام حسين إثر رؤية مضللة قرار غزو الكويت لتفتح أبواب جهنم على العراق ويخرج بو آثار من ضمن مئات الآلاف الذين فروا بما تبقى من حياتهم إلى خارج تلك الجمهورية المرعبة.

يتمتع بو آثار بشعبية كبيرة في "الكامب" بفضل موهبة تأليف قصص اللجوء التي برع فيها مستخدما خبرته السابقة في الحياة، وهي خدمة تطوعية تمكنت منه حتى أنه كان أحيانا كثيرة يقوم بها ونحن نلعب الكونكان.

- كيف خرطي... يعني تقصد دوة فارغة، كذب.

جربت صوتي ما إن تمكنت من استعادته وأنا أستمع لبو آثار يكمل تدمير الصورة التي هشمها عبد الأحد في وقت سابق، صاحب جملي صوت رعد قوي اخترق الغرفة تحت وابل من مطر كان يقذف النافذة مما أصابني برعدة خفيفة تشبه رعدة المعرفة والتيقن من خيبة الأمل.

- الله ينور عليك.. قال بو آثار وهو يتجه بكامل جسده الضخم ناحيتي، اقترب مني حتى تيقنت أنه مصدر البنسلين الذي يطوف في الغرفة، حذق في بعينه الصغيرتين الحادثتين بتركيز حتى أني أشفقت على من كان يقبض عليهم متخيلا ابتسامته الذئبية المرافقة لهذه النظرة التي

تخترق كالإبر، ظل ممسكا بيدي طوال الوقت، في هيئة من سبق له وأن عاش هذا الموقف وخبر ما يكون عليه من في حالتي، حتى كدت أتبلل من رذاذه وهو يضيف: يعني كذب، اش كثر ماتكذب واش كثر مايكون كذبك عدل ومسقم اش كثر انت ماتحصل على اللجوء، ثم ارتد حتى تساوى مع كتف بو هدى على السرير ملتفتا نحو الجالسين:

- هلا والله هلا.. هلا ببوجواد وبوهدى. قبل أن ينقض علي من

جديد:

- انت شنو قدمت؟ عراقي؟.

- قدمت كليبي طبعاً، حتى أتي سلمت جواز سفري في المطار.

بدا وكأنني قد خيبت أمله بإجابتي، تقدم بوهدى بهيئة من نفذ صبره حتى زاحم بوجواد ثم قام بالتفاته مفاجئة لبوآثار: لك هذولا اللييين مايفهمون، هذولا جماعة القذافي شنو هو يقول يرددون وراه، جماعة الله غالب. ماتعرفهم؟

- يخرب عرضك، بس لو قدمت عراقي بس.. كنت اسويلك قصة تأخذ بيها لجوء في شهر.

بهذه الطريقة العراقية الحميمة التي تخالها سبا وشتما في بعض الأحيان، فهمت أنني ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا مبتدئ من شعب لا علاقة له تذكر بالسفر والتغرب وطلبات اللجوء السياسي، وضعت نفسي في موقف حرج يقلل من فرص حصولي على اللجوء، إذ كان يكفي أن أمزق جواز سفري في الطائرة وأقدم نفسي على أساس أنني عراقي كما يفعل الكثيرون، حيث يتمتع العراقيون إلى جانب الأفغان والقادمين من جنوب السودان، بحظوظ شبه مضمونة. غير أنني لم أنفعل من معرفتي بصعوبة اللجوء فقط، لكن أزعجني أيضاً تأكدي من تلاشي الصورة الرومانسية التي كونتها عن اللجوء الى الأبد، وعلي - بداية من

الآن - أن أنشغل بترتيب قصتي (كما قال ابو آثار)، لروايتها لموظف وزارة العدل الذي لابد وسيأتي للإستماع إليها كما درجت العادة هنا،،

صحوت من النوم وفي رأسي ضرورة البدء في إعداد مرافعتي أو قصتي كما يقول بوآثار، لكل لاجئ قصة يحتفظ بها أو ببعض تفاصيلها الخاصة فقط لنفسه ولموظف وزارة العدل المختص، الأمر يشبه ما يحدث في السجن في هذا الجانب، عليك ألا تتبرع بإعطاء معلومات عن نفسك أكثر مما هو ضروري، أغلب من هم داخل هذا المكان يجولون الآن بأسماء وهويات مختلفة بالكامل، هؤلاء بالذات عليهم ان يبدأو تأليف قصصهم من الصفر، وإذا ما احتاجوا للعون هناك دائما بعض الخبراء الذين بمقدورهم تقديم مساعدات ثمينة تحتوي على جرعات من خيال بارع وجريء، وعلى رأس هؤلاء بالطبع بو آثار الذي لم تسجل عليه خسارة واحدة لكل القصص التي قام بتأليفها للذين لاذوا به، أتساءل أحيانا مالم قصة التي قدمها جاري عبدالاحد لوزارة العدل طلبا للجوء!!!، وما هو النقاش السياسي الذي سيدور بين ذاك الإفريقي الذي أراه الآن من النافذة وهو يمشي متخابلا في حذائه فوق إسفلت الممر والمحقق الذي سيأتي لأخذ إفادته وتسجيل طلبه رسميا في ملفات وزارته؟ هل سأتبع طريقة بو آثار في التعامل مع الموضوع أم سأروي حكايتي كما أعرفها؟ قررت تأجيل هذه المسألة إلى مابعد، أقفلت النافذة واتجهت إلى الخارج.

بوجواد

بعد الليلة الاولى التي سهرت فيها بغرفة بوآثار، وعند رجوعنا معا، عرفت أن بوجواد- الأستاذ كامل شوقي ابراهيم- هو أب

الكاتب جواد كامل التي بدأ يصبح معروفا، إثر روايته الثانية (افضل مدينة) التي تسجل حياة مجموعة مثقفة من أنصار الحزب الشيوعي وهم في تيه كردستان، كنت قد قرأت الرواية وأعجبت كثيرا بها لأنها مثلت نفسا جديدا لتجربة مختلفة في الرواية العربية والعراقية، رواية كانت واحدة من البدايات لتأريخ تلك المرحلة والنش في ماضيها، كان بو جواد يقطن على بعد غرفة من يميني، على سرير أرضي ملاصق للحائط يسار الباب مباشرة، بقربه منضدة صغيره رتب عليها أشياءه الخاصة، علبة التبغ الاسود، وورق لف وغمد النظارة، يقيم مع ثلاثة شباب، شيركو من كردستان، وحسين من النجف، وكاظم الذي سبق أن رأيته في مكتب اللجوء بالمطار وأخبرني أنه من بغداد.

بدأت أمر عليه أحيانا حيث أجده في الغرفة غارقا في التأمل والتدخين أو متصفحا بعض الأوراق حيث نتحدث قليلا ثم نمضي إلى المطعم ليتناول غداءه وفطوري ونحن نتبادل الكلام على إيقاع وتيرته البطيئة الصادرة على مهل رجل خلع نفسه من جذور حياته ويبدو غير مهتم بزرعها في المكان الجديد، كان يتوقف من وقت لآخر بينما كنا ندب بتمهل ليقول جملة من نوع: لك هذولا الهولنديين...وين وحنا وين؟.. ثم يواصل خطواته دون مبالاة كبيرة.

لم يكن بيدي أي تطلع لما سيأتي، ملتفتا طوال الوقت للذكريات الطازجة التي خلفه، يتحدث عن بعضها - تلك التي تبدو أكثر إلحاحا عليه - حول طاولة الطعام، على مهل وبتدرج وبعض الحذر يناسب اهتمام المستمع واستيعابه، كنا غالبا مانحكي عن بغداد مستخدما بعض معلوماتي التي جمعتها من رفقي للعراقيين، شارع بونواس وشارع المتنبى للكتب، وتجربة المسرح العراقي وحياة بعض الكتاب والفنانين الذين جالهم، كان يفعل ذلك بعد بعض الإلحاح وبشكل متقطع كل

مرة، إذ أن انشغاله بكون الحديث مقتصرا علينا فقط يحد من تدفق الكلام.

كان معروفا تقريبا لكل العراقيين الذين بالمركز، يتلقى التحايا كل بضعة خطوات ويحظى باحترام الجميع لكنه - كما خمنت - لا يبدو سعيدا كما ينبغي، فهم لا يعرفونه إلا من خلال مسلسلاته التلفزيونية وخاصة الكوميديّة منها، وهو نوع الشغل الذي يقوم به من أجل الحياة وتكاليّفها وليس من أجل الفن ومتعته وما يريد قوله حيث يفعل ذلك في المسرح والتجارب السينمائية القليلة التي يشارك فيها، وهذا جانب لا يعرفه محيوه الذين يكاد يسمع في رنات أصواتهم تقليدا خفيا لأصوات شخصيات مثلها في التلفزيون، خاصة صوته في دوره بمسلسل (الحلاق) الذي يبدو أن كل العراقيين الذين بالمركز قد شاهدوه، والذي يقلده كاظم عندما كنا في الغرفة الخالية من بوجواد مع شيركو أكثر من مرة، وصرت على معرفة معقولة بأحداثه التي تروي يوميات حلاق غريب الأطوار يتبادل الأحاديث مع زبائنه.

تطفو رائحة عطن خفيفة في ممر القاطع والغرف، مزيج من العرق والأنفاس ورائحة المنافع، الرائحة نفسها تقريبا في كل قاطع، المكان يشبه القسم الداخلي لولا العائلات، يوجد في قاطعنا عائلة إفريقية بطفلين، وفي أول غرفة يسار يقيم إيراني أرمني مع زوجته الشابة وطفل يمشي بتعثر، وفي الركن القصي على اليمين تقيم عائلة أفغانية في غرفتين متجاورتين خصصت واحدة منها لبنات العائلة الثلاث، بينما يقيم الأب مع زوجته وابنه في الغرفة الملاصقة، عائلة مختلفة عن النمط الأفغاني السائد في المركز، الأب يرتدي غالبا بذلة بألوان هادئة، والأم ترتدي خمارا خفيفا على نصف رأسها وتسير غير مرتبكة نحو حاجتها، والبنات يقضين مشاويرهن مرتديات سراويل جينز ومعاطف أنيقة،

الأب يتحدث عربية بطيئة لكنها صحيحة، أقام في السعودية لسنوات طويلة، وأخبرني بوهدي أنه كان يشارك في تنسيق الدعم للمجاهدين، الواقع لاشيء يوحي بذلك، صعب تصور أن يعمل هذا الرجل المتعلم لصالح معمل تخلف كما حدث في أفغانستان، وأصعب منه تصور خروجه وعائلته من ذلك المعمل على هذا القدر من التنور والانفتاح. وجود هذه العائلات يمنح لمسة إنسانية تبدد من الذكورة الطاغية في المكان، كان خفير السكن الداخلي للجامعة علي النعاس يردد دائما: امرأة تبكي ولا راجل يغني.

عندما رجعت بعد الغداء لإرجاع الصحن والكوب والملقعة، وجدت وفدا جديدا يرتب السرير الشاغر فوق فراش شاكير، حييته وقدمت نفسي له مشيرا إلى سريري وأنا في طريقي إلى الطاولة المحاذية لوضع أدوات الأكل، تقريبا في عمري (بداية الثلاثين)، يرتدي شورتا خفيف الخضرة وتي شيرت باهت اللون وقبقابا هولنديا يشبه قبقاب الصادق النيهوم، ويحمل اسما فخيمًا: شيخ زكريا، لم أبذل جهدا يذكر لاستنتاج أنه من جمهورية بوتو وضياء الحق التي تعقد ندواتها كل يوم في الغرفة... حيت الشاب شيخ مجددا وخرجت.

الجو في الخارج يكاد يكون صحوا، في ركن قصي في سقف السماء تواصل الشمس تقدمها لتبديد ما في طريقها من غيوم قصديرية متورمة بالشحم، شحني الطقس الملائم بنفحة من حياة، جلست أتمس على أحد الكراسي العريضة التي بجانب ممر الإسفلت في الوسط، أراقب الرائح والغادي، البعض باتجاه المطعم آخرون يتجهون نحو الاستعلامات للتوقيع اليومي وتفقد قائمة البريد المعلقة على الباب والبعض تناثر على الكراسي القليلة ذات الثلاثة مطارح ككراسي الفصول الابتدائية منتهزا فرصة ظهور الشمس الصريح المفتقد. الإيقاع

البطيء المعتاد ذاته مامن أحد على عجلة من أمره، أرد بعض التحايا من المارين بي، أتعرف على البعض بالوجوه وآخرين قلة بأسمائهم التي قالوا إنها لهم، ألمح من بعيد جون النيجيري الضخم سيد لعبة كرة الطاولة في المقهى، يمشي بتؤدة متثاقلا نحو القاطع الثاني حيث يقيم، مجموعة متوقفة أمام لوحة كبيرة معلقة خارج حائط مكتب الشرطة، بها الأسماء التي عليها مراجعة النقطة لسبب ما، الهواء خارج القواطع نقي تكاد تمسك به لحضوره، أمضيت الأيام الفائتة وأنا أتشتم الفراغ، للهواء أيضا طعم خاص كالماء، لا تستطيع تفسيره ولا إثباته ولكنه موجود، عندما تسير في شوارع طرابلس التي تحولت الى أزقة متربة أو أينما كنت في القاهرة حيث بإمكان المنبهات والسحب السود الصغيرة وملايين السحائر التي تشتعل في نفس الوقت، تعرف أن للهواء رائحة وطعم يشبهان رائحة الحرية والإحساس بنظافة الأشياء، إنه الإحساس نفسه الذي يقابلك وأنت تجلس هنا أو تتمشي خارج قواطع المركز بعيدا عن تلك الرائحة المختلطة للقاطنين الآتية من كل القارات.

- مرحبا مستر سالم.

التفت للصوت فوجدته شاكير رفيق الغرفة صاحب الابتسامه المسالمة، في حوالي الأربعين، مهندس كهرباء، قضى سنوات في السعودية، كأغلب أصدقائه الذين يقضون الوقت يتناقشون حول التطورات المتلاحقة في باكستان، كلهم كما فهمت كانوا في السعودية أو باقي دول الخليج الأخرى، رددت تحيته وقمت بحركة صغيرة موهما إياه بأني أفسح له أكثر في المجلس ففهم أن المكان ضيق وبقي واقفا، سألته حول ماتوصلوا اليه بخصوص المتهم بقتل مرتضى بوتو، أجاب بأن الأمر غامض والأحداث سريعة التداعي مما يجعل متابعتها أمرا صعبا، لكنهم يشكون جديا في زوج بناظير آصف زارداري، فهو رجل

جشع ولا حدود لنهمه تجاه السلطة والمال، قال ذلك بتأثر كبير فعواطفه محطمة بين حبه لآل بوتو من جهة، وبين هذا الانحدار السريع المخيم على حكم بناظير الذي طالما انتظره معتقدا بأنه حل مثالي لمشاكل البلد التي غرقت في الدكتاتورية والتخلف بعد الانقلاب على والدها ذو الفقار بوتو، حيائي برفق بعد أن ألقى ماعنده، انسحب بخطوات متمهلة نحو صديق مقبل علينا، تبادل معه بضعة كلمات مترافقة بإشارات من يديه ثم انسحبا معا باتجاه البوابة، أجد صعوبة في متابعة إنجليزية شاكير، تبدو متدفقة وسليمة ومشوبة بنغمة آسيوية، كنت من الطلبة المغرمين بالإنجليزية، درجاتي جيدة، يمدحني المعلم من وقت لآخر واستمر الأمر هكذا حتى المرحلة الثانوية، كان ذلك في رمضان، زار القائد كلية الفنون الجميلة ووجه تحت نفح إيماني غامض بإيقاف تعليم اللغات الأجنبية لأنها لغات استعمار تساهم في تغريب الجماهير وتمثل مقدمة لكتائب الغزو الثقافي الغربي المتربص بالعرب، قائلا أيضا: بضرورة (تكسير) الآلات الموسيقية الغربية وفقا للحجة ذاتها حيث أن الشعوب لا تنسجم إلا مع فنونها وتراثها، وتولى ابن عمه أمين التعليم ذو الوجه الأحمر الملتحي، فيلسوف الثورة وابنه الأيديولوجي، تنفيذ القرار فوراً فتم إيقاف المنهج اللغوي في الحال وتجميع آلات الفرق المدرسية وفناني الأعراس الشعبية وماتوفر في قسم الموسيقى بالتلفزيون، ووضعت أكوام رمزية منها في الساحة الخضراء - ميدان الشهداء سابقا - وأشعلت فيها النيران على وقع الهتافات الثورية الحماسية، ثم استمرت الحملة بانتشار وحدات من ميليشيا اللجان الثورية والمباحث العامة ورجال المرور في الميادين والشوارع الرئيسة للمدينة، يقومون بدوريات عشوائية مفاجئة ومتعاقبة، يفتشون فيها السيارات ويصادرون الأشرطة الأجنبية معززين أصحابها على سلوكهم المديني المشبوه والمخنث.

بذلك انقطعت سبل تعلم الإنجليزية، وباءت محاولتي للاستمرار بالتعثر والفشل في بيئة معادية تماما لهذا الفعل المعرفي، وبالكاد تدبرت أمري قبل خروجي بدورة ذاتية مختصرة لتذكر مايمكن أن يفيد في ماهمت به حيث استعرت من يحي صديق مراهقتي بعض كاسيتات قديمة من البي بي سي خلفها له والده قبل أن يتوفى. لحسن الحظ الإنجليزية ليست لغة المركز اليومية، هي لغة الجانب الرسمي المتعلق بالشرطة والخدمات، أما بين القاطنين فتسود لغة أخرى خليط منها ومايصادف من الهولندية وكلمات ملتقطة من القواطع ممزوجة ببعض مفردات من اللغة الأم وكمية وافرة من الإشارات اليدوية، إنها (سيرانتو) اخترعت خصيصا لهذا المكان يسلمها لاجيء لآخر تلبية لضرورة التعايش وتبادل الخبرات. أتابع المشهد بتشجيع من الطقس الدافئ الذي دفع بالجميع إلى الخارج للتمتع وتوديع الشمس التي ستغيب لشهور قادمة.

طرابلس 1993

توالى التغييرات بعد هبة (أصبح الصباح)، سُمح للطلقاء بالعودة إلى أعمالهم من جديد، ومُنح الذين اختفت مؤسساتهم بفعل الزحف الثوري الإشتراكي وظائف بديلة، وتم للمرة الأولى تحديد الخدمة العسكرية بثلاث سنوات بعدما كانت مفتوحة على الظروف التي لم تكف عن الحدوث، وفُصلت تخريجات نظرية مناسبة سمحت بعودة شيء شبيه بالتجارة والمسابقة المحلية لكرة القدم شرط أن لا تذكر أسماء اللاعبين في أي وسيلة إعلامية مخافة وباء النجومية، كما أعيدت الكراسي للمقاهي بعد حظرها قبل عشرين عاما أثناء الثورة الثقافية خوفا من تعطل المواطنين عن الإنتاج إذا ما خضعوا للاغراء وجلسوا لشرب طلباتهم بدل القيام بذلك على الماشي، وأعطى لمصنع المشروبات إذن مشروطا بإنتاج نسخة منقحة من بيرة (أويا) المنقرضة على أن تكون خالية من الكحول، ثم ألغيت التأشيرة المحلية المفروضة على من يستطيع السفر، لتتطلق فورا قوافل طويلة من السيارات عابرة الحدود نحو البلدان المجاورة لتعود محملة أطنانا من العلكة والفواكه وسراويل الجينز وأنواع لا تصدق من الشوكولاتة، وكل تلك الأشياء اللذيذة التي وضعتها الثورة في باب الكماليات البرجوازية ومنعت استيرادها منذ أن تسلم الشعب السلطة في احتفال رسمي بهيج أعقب نجاح الثورة الثقافية.

لقد كانت نوبة جنون تامة وحقيقية، حين امتلأت الأسواق
والساحات العامة والبيوت بتلك الاختراعات الملونة التي تبهر من كل
ركن، فواكه طازجة لم يرها الجيل الأخير حتى في كتاب العلوم،
 وأنواع من الحلويات تبعث على سريان الريق، ألبسة وسجاد وكل ما
يمكن وضعه في البيت من أغراض.

خلال هذه اللوثة أقيمت مآدب باذخة اقتصرت على تقديم أطنان
من الموز والتفاح والعنب وأنواع أخرى مجففة تم اكتشافها صدفة عند
الجيران، وتحول الشارع إلى عرض متنقل لأزياء الشباب المزهوين كما
يفعل الطليان، واستمر هذا الربيع قرابة العام، لم يكف فيه التلفزيون عن
بث صور السجناء السابقين وترديد أغنية محمد وردى التي صارت
بمثابة نشيد وطني جديد بالغ بعضهم وغناه حتى في الأعراس قبل أن
تبدأ الحياة في العودة إلى روتينها المعتاد.

بعد أن انفض المولد وانصرف الناس إلى التعامل مع مكاسبهم
الصغيرة اليومية التي تحصلوا عليها في هذه المدة، والبحث عن طرق
لتنميتها وحمايتها من الضرر، وانخسرت الحياة في مطالبتها المعيشية التي
بدأت صعوباتها تطل من جديد، تراجعت أفكار التغيير مسافة إلى
الخلف وحلت مكانها أولويات جديدة للحكم، أخرج اليسار
والإسلاميون المعتدلون وبدأت الثورة تستعد لمعركة أخرى كبيرة مع
عدو لم يظهر بعد، كان (اصبح الصبح) خطوة أملتتها الضرورة للإيجاء
بنوع من بروتوريكا محلية ترفع شعار التصحيح لامتنصاص الضغط
الخارجي وتحييده بالتوقف على الأنشطة الخارجية والتفرغ لترتيب
البيت الأمني الداخلي وتعديل أموره بما يتطلب الحال، لم يكن هناك
اعتذار عما حدث، ولا تعويضا معنويا وماديا للمتضررين من الفترة
السابقة ولم يصدر قرار يقنن خروجهم من السجن بحيث بدأ الأمر

وكان المساجين بالكاد نجوا من محاكمتهم بتهمة دفع الثورة لسجنهم وإجبارها للتدخل وإنهاء تصرفاتهم الحمقاء مما وضعها في موقف تشويه فيه سمعتها بيدها وتتحول إلى جلاذ.

لاتغيرات ملموسة في الطريقة الثورية لإدارة الأمور. ولم تمض أشهر على خفوت هذا المهرجان حتى بدأت بركات (أصبح الصبح) المخفية في الحلول، لقد خسر النظام كل معاركه في الخارج من تصديره لمعدات الفكر الجماهيري التي لم يقبل عليها زبون واحد إلى اختلافه مع حركات تحريره التي مولها لسنوات وقرر الاتجاه للداخل لتحمله مسؤولية كل هذا الفشل، فلولا المقاومة السلبية التي ييديها الناس لكانت الأمور قد سارت كما خطط لها،... بدأت البركات في الحلول.

عندما استيقظت من النوم في الظهيرة كما يكون الأمر حين تكون عندي مناوبة في الوكالة وجدت رسالة مقتضبة من وهاب، كانت مختصرة: عندي خير أريد ان أزعجك به، لاتنس موعد الغداء.

فحصت الجملتين مجددا أعددت قهوة وجلست أفكر في هذا الخبر المزعج، أعرف وهاب من سنوات عندما التقينا في أحد النشاطات التي كنت أعطيها لقسم الأخبار، يعتبر اليوم من الشعراء المتميزين في البلد، درس الكيمياء في إيرلندا وعين بعد عودته معيدا في الجامعة بكلية العلوم، كنا نكتب مقالات في صحيفة (الجماهيرية) الثورية - لاتوجد صحف مستقلة منذ تأميم الصحافة أول السبعينات- ثم اشتركنا مع مجموعة أصدقاء في اصدار ملحق ثقافي تابع للصحيفة حقق نجاحا ملفتا وصار يبيع حوالي عشرة آلاف نسخة وهو رقم يتجاوز أي مطبوعة أخرى في البلد.

عندما لاحظ الصعوبات التي أواجهها في إيجاد سكن عرض علي الإقامة معه في شقته الصغيرة بالسكن الجامعي التي استلمها من أخيه الذي كان أستاذا يدرس العمارة في كلية الهندسة قبل أن يقرر العودة إلى الولايات المتحدة وهو أمر أحاط وهاب بالشبهات الأمنية التي أضيفت إلى مقالاته متلقيا عدم الارتياح في الصحيفة والملحق فيما بعد، كنا مجموعة من شباب الجيل الثاني لآباء من أصول بدوية وقروية، عشنا وترينا على حواف طرابلس ودرسنا في مدارسها ما جعلنا في موقع المتصالح معها على عكس الآباء الذين استمروا في شتمها وحنينهم لمربعهم الأولى التي ألهمتهم عنها هذه المدينة القاسية، يجمعنا حب الكتابة والقراءة والنقاشات الطويلة التي نفتعل فيها خلافات ثقافية بيننا ونقر في نهاياتها أننا متفقون، اشتغلنا على هامش المطبوعات الرسمية لحركة اللجان الثورية التي فقدت بعض سلطاتها لصالح الكتائب الأمنية الخاصة التي توسع في تكوينها بعد الغارة الأمريكية، لقد أدرك مؤسسها نفسه القدرات المحدودة للحركة التي كونها من شباب قرويين أشرف شخصا على أدلتهم وتسليحهم، وقاد بهم ثوراته الصغيرة المتوالدة كما عند ماو قائد الصين الذي برع في الزحف على الطلبة والتجار ونخبة المجتمع.

لكن القذافي في الوقت نفسه كان مازال في حاجة لخدمات حركة اللجان الثورية لسمعتها الترهيبية العالية بين المواطنين، إذ أن حضور شخص ثوري واحد يتكلم تلك اللهجة المطاطة الخاصة - التي طورها العقيد القائد عن لهجته الأصلية- بنبرة الصوت تلك، وبعض المصطلحات الثورية، يستطيع تغيير مجرى تجمع بكامله لصالح الثورة حتى ولو كان جنازة ميت.

بعد خسارة الحركة لبعض هيبتها إثر تراحم اعضائها أمام المثابات الثورية لتمزيق ملفات عضويتهم ليلة الغارة، الأمر الذي أدخلها في

قاموس النكتة اليومية المتنقلة بين الناس، ساد جو من الغموض والقلق في أوساط الأعضاء الثوريين، وسرعان ما لفت الملحق الثقافي الذي تصدره النظر، في البداية رحب مكتب اللجان الثورية به واعتبره من إنجازاته الثقافية، بخاصة لأنه يوفر له مساحة لخلق جو متكلف الجراً من خلال المقالات التي كانت تكتب.

ولكن فيما بعد بدأت الشكوك تحيط بالملحق، أخذ أعضاء الحركة المكلفين بالعمل الإعلامي والتوجيهي التعبوي يراقبون خفية وبتوجس تلك المجموعة الفوضوية وهي منكبة في الغرفة الجنوبية على تصحيح وإخراج تلك المواد المليئة بالجميل التي بدت لهم غامضة ومصحوبة برسومات غير واضحة المعالم، لم نكن نصغي لتلك التلميحات التي تتهمنا بالشيوعية والفوضوية والانحلال الخلقي، فقد كنا نتقن عملنا ونعرف بأنهم بحاجة ماسة لنا، ولكن عندما زادت الشكوك وبدأت تصاحبها بعض التهديدات الضمنية بدأت ووهاب التردد على رابطة الكتاب وهي آخر تكوين مدني في ليبيا بكاملها، نجلس في البلكونة منفتحين على منظر البحر الجميل في الطابق الثاني من الفيلا المتهالكة بحي قرقارش الفخم، نشرب الشاي والقهوة ونتحدث في الاهتمامات، المجموعة الصغيرة من الكتاب كبار السن التي كان قد تم ترويضها منذ زمن وتعودت على أحاديث صرف العملة والمهام الخارجية وماشابه ضاقت بنا في البداية ثم تعودت على وجودنا ووهبوا لنا البلكونة المقابلة للبحر، بحديدها الصديء ومكيفها البارز وكراسيها البلاستيك البيضاء الشائعة في كل مكان من المدينة، انفتح لنا أفق آخر وبدأت لنا بعض المشاريع قابلة للتحقق...

نظرت للساعة الموضوععة فوق التلفزيون التي كانت تشير إلى قرب الواحدة ظهرها وشرعت في تغيير ملابسني ثم خرجت من الباب الخلفي

المطل على الهضبة الشرقية حيث بدأت الحياة ضاحجة ومستمرة في ذلك الحي الشعبي الذي يسمى بالصين لكثافته السكانية وفقره، وقفت بجانب الطريق الرث حتى توقفت سيارة أجرة بجانب فكرت أنا أفكر في الخير المزعج، فكرت أن أمر على وهاب في الكلية وتراجعت لأن ذلك بدا لي إلحاحا غير مبرر، عدت البارحة قرابة الفجر من المناوبة في قسم الأخبار وكان هو نائما في الغرفة ذات السريرين، حرصت على عدم إحداث جلبة أثناء مروري نحو السرير الثاني وسط الظلمة ولكنه كعادته همهم معلقا وعاد للنوم، كان وهاب حذرا مثل ذئب ولكنه يجيد إخفاء ذلك تحت مظهر من السخريّة والمرح، يبدو وكأنه يدرك جيدا لمعنى مايفعل، وكان ذلك الشعور يصيبني أحيانا بالخوف. نظرت لساعة التاكسي ونحن نقترّب من وسط المدينة فوجدت أنه مازال أمامي نصف ساعة على موعد الغداء الذي اتفقنا أن يكون بمطعم الشجرة بشارع جمال عبدالناصر، وهو مكان صغير وغير مرتب يحتوي على بضعة طاولات بعضها دائري كبير ولكنه نظيف، يقصده موظفو التلفزيون والإذاعة وبعض الصحفيين والمشتغلين بالإعلام، قررت أن أتوقف في شارع محمد المقرّيف للتمشي في الشارع باتجاه المكان، أخذت الطرف الذي يفترشه الظل وانطلقت بتمهل سارحا في المعمار الإيطالي الجميل حيث حرص الفاشست في لمسة نادرة أن يمزجوا المهارة الرومانية بالروح الشرقية في المعمار، مررت على مكتبة تصفحت فيها بعض الكتب ثم استدّرت مع شارع عمر المختار وعندما وصلت للمطعم لمحت سيارة وهاب التويوتا الزرقاء فدخلت باحثا عن الطاولة التي يجلس عليها في المكان المزدحم بزبائنه.

وجدته في الركن على طاولة مشتركة مع عمار الناهي ونفرين آخرين من التلفزيون واضح أن ضرورة ضيق المكان هي التي اقتضت

جلوسهما، كان قد احتفظ لي بكرسي بينه وعمار وجلسنا منشرحين نتحدث عما نريد أن نطلبه من الأطباء الطرابلسية اللذيذة، التي ابتكرها يهود المدينة الذين هاجروا تباعا منذ قيام (اسرائيل) والتي حملهم القسم الأكبر من الشعب مسئولية قيامها، اتجهنا إلى مكان الطلبات الذي يفصله حاجز خشبي يعلوه لوح زجاجي عن مكان الزبائن وطلب وهاب صحن حرايمي وعمار فاصوليا بالكرشة ورجعت أنا بصحن كوارع بالفاصوليا كفيلة بأن تبعث في حاراتها نشاطا يطرد بعض الترهل الذي أحس به، كانت تلك عادتنا، يطلب كلا منا صحنا مختلفا لنشكل في النهاية مائدة صغيرة متنوعة تتبادل اكل صحنوها حسب الرغبة، وما إن بدأنا في ذلك حتى بدأ رفاق الطاولة من التلفزيون الحديث عن قائمة طويلة أصدرها رئيس الوزراء تشمل أسماء مئات من الذين تم الاستغناء عنهم وتحويلهم لهيئة الأمن الداخلي للعمل بها، وعندما سمعت ذلك نظرت إلى وهاب وعرفت فورا من الطريقة التي دس بها رأسه في الصحن بأن اسمي من ضمن الأسماء وأن هذا هو الخبر المزعج الذي تركه لي في الورقة، وبعد خروجنا ذهبنا لبيت عمار حيث استقبلتنا زوجته بالشاي والمواساة وعندما جلسنا أخرج عمار القائمة التي تحصل عليها من صديق بالوزارة، كانت عبارة عن عشر أوراق وكان اسمي يحمل رقم 280 وموقعة من رئيس الوزراء مع إشارة أن المذكرة أساسا محولة من وزارة الإعلام.

قضيت الأيام التالية في التفكير ومحاولة السيطرة على غضبي لأنني آخر من عرف وليقيني أن هذه الحادثة هي مفصل بين ما قبل وبعد، وأن الأمور كانت سيئة ولكنها منذ الآن ستكون في غاية السوء، لم يخبرني مديري في العمل كما حدث في مرة سابقة عندما كنت أعمل في النشرة اليومية الخاصة التي تصدرها الوكالة وقرر مديري السابق

تحويللي للجيش وبالكاد تدبرت الأمر بالانتقال لقسم الأخبار والنجاة من القدر البائس الذي رسم لي، الجميع يتعرض لمثل هذه المطبات المفاجئة، ولهذا تلزمك مهارات لا بأس بها كي تستطيع أن تعبر إلى اليوم التالي في ظل الغياب التام للنظام. يبدو لي أن هذا المطب جدي ويصعب الفكك منه، دخلت في نقاش مع وهاب وعمار الناهي حول الخطوة القادمة التي بدا أنها غير موجودة بالأساس وخالط نقاشنا مناطق حادة صاحبها لوم وقسوة ومساندة وتعهدات ثم سرعان مانسينا الأمر برمته عندما بدأنا الشرب.

وفي اليوم الذي تقرر فيه اجتماع الحولين للهيئة يرأسه عضو مجلس قيادة الثورة حامد الأشهب اتجهت بعد تردد وفضول إلى قاعة الشعب التي كانت قبل مصادرتها مشروعا نموذجيا يضم صالات ترفيه وسينما ومسرح تم تأميمها جميعا وأصبحت لسنوات مقر مؤتمرات الشعب العام الرسمي ومات صاحبها الحقيقي بجلطة مفاجئة في المخ ناجيا بذلك من محاكمته كما حدث لأصحاب الأعمال الذين جاءوا بهم للتلفزيون في مسلسل طويل تابعه الناس في كل بيت، كان التاجر أو المقاول يجلس مقابل الكاميرا ويدلي بإجابات يطرحها شخص غير موجود في الصورة وإن كانت الناس كلها تعرف أنه العقيد سنوسي التهامي، عرفه الناس لأنه كلف بالتحقيق التلفزيوني مع كل المتهمين طوال سنوات حتى أصبح العقيد سنوسي في شهرة المذيعين ولو بالصوت فقط، ومن خلال تلك الإجابات كانت سيرة المتهم تتكون وتحتوي داخلها اعترافات بأعمال شائنة استغل فيها أهله وبلده، ورغم أنه مامن أحد كان يصدق ذلك، إلا أن البث كان يتواصل كل يوم، وبعد أن انتهى سجن التجار والمقاولين كل حسب ثروته انقطعت أخبارهم.

تقع القاعة في بداية طريق قرقارش بجانب حي مستحدث من الفلل، لوها أبيض ومحاطة بحديقة كبيرة بدت متعارضة مع إحساس التصحر الذي خيم على مستقبلها، توجهت لرجال الأمن في الاستعلامات حيث الطابور، أعطيت اسمي عندما حان دوري أخذ الرجل القابع خلف الفاصل قائمة تبينت أنها نفس القائمة التي تحصل عليها وهاب ومر على الأسماء سريعا حتى وصل إلى حرف السين وعند الرقم 280 ردد الاسم حتى أسمعه جيدا: سالم ناجي سالم، وعندما أكدت له ذلك ميرزا بطاقة الوكالة الصحفية أشار علي بالاتجاه إلى الباب حيث كان طابور آخر يتراحم على الدخول.

مررت النظر في الصالة وتبادلت التحايا مع المعارف والأصدقاء من هذا الجمع الكبير الذي بدأ متوحدا في المصيبة ومتطلعا لما يمكن أن يسمعه من الرجل النافذ الذي كان على وشك الوصول، كان العقيد حامد الأشهب مشهورا بأنه يتاجر في كل شيء بما في ذلك السجائر وحفاظات الاطفال، فهو يحوز بفضل منصبه كممثل لمجلس الثورة في الأمن على حصة وافرة من سوق البنزين الذي احتكره ووزعه على ضباطه وناسه المخلصين، يظهر التدين والتواضع حيث يميزه عن باقي أعضاء المجلس عدم صبغ شعره ما أضفى على سنواته القرية من الستين وقارا مخادعا يزينه دائما بملابس يغلب عليها اللون الأبيض موحيا بذلك ببعض التقوى والسلام، إلا أن هذه الصورة اكتشفت مع الأيام وصار مضربا للمثل في النهم والتقية والبخل الشديد، عندما دخل مع مرافقيه من الباب الخلفي ساد الصمت والسكون، كان يرتدي بدلة الكاكي ويحمل عصا صغيرة تجرّها من شجرة رتم، توجه لوسط الطاولة العريضة وجلس حوله مساعده ووزير الإعلام الذي كان خريج السوربون ومنشئ خلية سارتر في الجامعة قبل أن يتحول في الزمن الجديد لداعية ومنظر لحكم الجماهير.

مسح العقيد الصالة بعينه الثعلبيتين بهدوء وتأن ماصا ريقه على شفة المايك ومحركا لغزته البارزة ككرة صغيرة من القات، أتى صوته كحشرة تأتي من قاع بئر شارحا نظرية الأمن الجديدة التي ستبناها الجماهير، حيث سيتم نشر الأمن الثقافي لمقاومة الغزو الفكري القادم من الغرب، ثم انعطف بعد دقائق ليفسر الهدف الذي تحول فيه المئات من الإعلاميين فجأة إلى هيئته وقد تم ذلك بعد دراسة عميقة ضاربا مثلا بطريقة بناء المخابرات الأمريكية التي تعتمد بدورها على الآلاف من العاملين في هذه الشريحة وكيف أن هؤلاء يلعبون دورا أساسيا في مخططات هذه المؤسسة الإمبريالية وخلص إلى أن دولة الجماهير عليها أحيانا أن تستخدم نفس أساليب أعدائها كي تنتصر عليهم، وعند وصول العقيد حامد لهذا الحد انفصلت عن صوته ومررت بعيني على الصالة الهامدة أفرس في الوجوه المتعبة التي بدا أنها تنتظر مثلي انتهاء جلسة التعذيب هذه للخروج لاستنشاق الهواء من جديد، ولحت أيضا العديد من الزملاء - المعروف عنهم انتماءهم للأمن والمخابرات من قبل وقد وردت أسمائهم مجددا في القوائم للتعمية والتضليل - وقد بدوا منهمكين في أدوارهم بالاستماع المركز للكلمة ثم الشروع في طرح الاسئلة المقررة سلفا والتي غطت على استفسارات القلة التي بادرت مستوحاة عن آلية العمل وحركة الرواتب وسجل الخدمة السابقة وغيرها من التفاصيل التي تقع على هامش ماحدث.

قضيت شهرين في دوامة الهيئة والمؤسسة الوهمية التي شرحها العقيد وتبين أنها مجرد كلام، كنت أحضر آخر الشهر، أقف في الطابور خارج أحد المقرات الأمنية بشارع الجمهورية واقبض راتبي وأنا في غاية الحجل، كان العدد يتناقص في كل مرة حيث تحصل الكثيرون من المحالين على ملفاتهم من جديد وعادوا إلى أعمالهم التي توقفت بفضل

القرار فاحتاجوا لهم من جديد وظللت أبحث عن مخرج ووساطة توصلني إلى ملفي أنا الآخر رغم أنه كان واضحاً أنني لم أترك فراغاً ولا يحتاجني أحد، حتى توصلت بزميل معروف بخدماته الأمنية. تردد في البداية ثم ضرب لي موعداً وذهبنا سوياً إلى إحدى الإدارات التابعة للأمن حيث التقينا موظفاً يقبع في وسط ملفات متهاكة تحيطه من كل مكان، استقبلنا بحفاوة ميت وأشار إلى زاوية في الركن حيث وقفنا منتظرين حتى حضر بعد دقائق موحشة بالملف وهو يهز رأسه بهدوء:

— هذا ملفك، قال بحفاوة ثم استأنف، ولكن اعذرني ما أفعله الآن منافي للتعليمات.

— اعرف، أنا مدين لك بهذه الخدمة، قلت ذلك متطلعاً إلى رفيقي الذي استحسن الجملة دون أن يغير من سحنه.

— شوف، قال الموظف الذي يحمل اسم إبراهيم، سأقول لك شيئاً لانك جئت مع الافندي عاشور، انظر الى التأشيرة هنا.

— نظرت إلى المكان الذي حدده فوجدت قهيمشة بقلم أزرق تنص على عدم منح الملف لحامله تحت أي ظرف فسألت الملازم عاشور عن ما يعني ذلك فأخبرني أن هذا يعني أن أحداً ما أوصى عليك بشكل شخصي.

— من يكون، ربما نعثر على أحد يعرفه.

— لا تحاول، قال الموظف الخبير، صاحب التوصية لن يتراجع عنها، انتظر لحظة، ثم غاب دقائق أخرى طويلة قبل أن يرجع.

— شوف، قال وهو يمنحني ملفاً آخر.

كان الملف المتهاك يخص زميلاً آخر رفض إبراهيم أن يذكر اسمه ولكنه أظهر لي تأشيرة يختلف لون حبرها وخطها عن الأولى وهو أمر سرعان ما وضح عندما استأنف إبراهيم مستطرداً:

- حتى هذا هناك من وصى عليه زيك، انس الموضوع، قال عاشور ووافقه الموظف بكرة من رأسه، لن يخرج ملفك من هنا مهما فعلت وعليك ان تتدبر البدء من جديد بعد ان قُعداً الأمور، وهذا ماسيكون على مجموعة اخرى عليها نفس قممشتك ان تفعله.
 - من هم، قلت متسرعا بلهفة من يبحث على رفاق للتأسي.
 - ابتسم ابراهيم من هذه الخفة وقال لاتتعجل ستعرف ذلك ولابد، خذ وقتك.
- وهكذا قررت منذ ذلك اليوم أن أتوقف عن كل شيء له علاقة بالملف والعمل في الاعلام واخترت أن أرمي بنفسي في المجهول متوقفا عن الذهاب آخر الشهر لقبض الراتب، وبدورهم لم يسعوا إلى البحث عني مكثفين بما تحقق.

1

حالة من الحبور تسيطر اليوم على المركز، استيقظت في الضحى على صوت مهدي وهو فتى في حوالي العاشرة من عربستان، أطللت من النافذة فرأيتة يقود دراجته وهو يلوي برأسه في الهواء مرددا: ياالله شو حلوة هالمطر.

التقيت بمهدي ووالدته واخته الصغيرة في المطعم قبل أيام، ساعدتهم في حمل الصحون وتعديل مكان الطاولة حيث كانوا يرغبون في صفها بجانب معارف لهم من إيران، نشأت بيننا مودة، نبتادل التحية كلما جمعنا المكان، الأم خمسينية على شيء من النباهة متعودة على غياب الرجل في حياتها، أعجبتني طريقة تعاملها مع مهدي وأخته، واضح أن العلاقة بينهم لايربطها الخوف ولكن المصير المشترك..

يسير القاطنون بخطوات مرحة تحت رذاذ المطر، إنه يوم الاثنين، يوم صرف المعونة الأسبوعية، أربعون (خلدن) يجهز البعض دراجاتهم بانتظار توقف المطر بعد قبض المعونة ليذهبوا للتبضع في مركز المدينة.

.. كل ماجلبته من ليبيا كان خمسمائة دولار، صرفت منها مائتين في تونس خلال انتظار موعد الطائرة ثلاثة أيام، حيث تمتعت بإجازة مكثفة ابتعدت فيها على مقهى باريس وباقي الأوكار التي يتردد عليها المثقفون والشعراء، متجولا في باب سويقة والاحياء الخلفية..

في مطار أمستردام لم يصدق الشرطي أن هذا كل ما أملكه ظل يقلب جواز سفره وينظر إلى ثم يفرك الورقات الثلاث ذات فئة المئة، ثم قرر منع دخولي بحجة عدم توفر مايكفي من النقود فاضطرت لطلب اللجوء في المطار عكس مارغبت فيه، كنت أنوي دخول أمستردام بحثا على شيء من الألفة واعتياد المدينة قبل تسليم نفسي لسلطات الهجرة. كنت مرعوبا من تمسكي بقراري، ساعيا في لا وعيي الى تأجيله ما استطعت بعد أن صرت على المسرح...

لقد كان يوما طويلا، استيقظت صباحا لأجد بوهدى واقفا بجانب السرير، أخبرني بوجود اسمي على لوحة الإعلانات للمتوجب عليهم مراجعة مكتب الشرطة، غيرت ملابسي على عجل وقطعت فاصل الاسفلت متوجها للمكتب، استلمت إشعارا رسميا يحدد موعد جلسة وزارة العدل لشرح سبب طلبي للجوء، ذلك أنه يجب أن يكون في اليوم قبل الأخير من هذا الشهر، (أكتوبر)، أخبرت بوهدى الذي كان ينتظر عند الباب، ثم ذهبنا إلى مركز المدينة في جولة استكشافية، هذه مرة أولى أخرج فيها من المركز بقصد التجول في مدينة لايدن دون هدف محدد، بدت صغيرة ونظيفة، توجد بها ميادين مخوفة بالخضرة، وحديقة كبيرة تمر بها مياه النهر من تحت الجسور،

أمضينا الوقت في الحديث عن معارفنا المشتركة والمجر التي يكاد بوهدي لا يغفل عن ذكرها صارخا بين الحين والآخر:

يخرب عرضك يا بودابست. طوال الوقت كنت افكر في الانترفيو - كما يسمى هنا -

لاحظ بوهدي ذلك في نقاط مختلفة من يومنا، كان أيضا مع فكرة أنه كان علي تقديم نفسي كعراقي، فأنا افهم اللهجة جيدا، وسمعت حكايات عراقية كثيرة بحيث أستطيع انتحال واحدة منها أو تركيب مجموعة منها في واحدة:

- انت تفكر انه أول ماتقوللهم انك صحفي من ليبيا راح يقولون لك: اهلا وسهلا. يا عمي الناس تعرف العراق، افغانستان، السودان... ليبيا.. وشنو ليبيا هذه؟

صدق بوهدي، طوال العشرة أيام الماضية، استغرب كل من قلت له أني لبيي، يعقب الإستغراب عادة حالة من عدم الفهم يتحول أحيانا لاحتقار خفي كوني لا أريد أن أعيش في بلد يحكمه زعيم فذ مثل العقيد معمر القذافي الذي يحظى بشعبية كبيرة في المركز! ولكن عدم وجود لبيين غيري في المركز، أحاطني بهالة أثارت فضول البعض حولي وجعلت من حضوري أكثر قبولا عندهم وتغاضوا عن كفريي بالنعمة التي كنت فيها كما يظنون. لم يخل تصرفي من الانتهازية منذ أن اكتشفت قانون الندرة هذا، انتهازية راقية كما بررت لنفسي.

القضية الليبية غير معروفة هنا كما في لندن وأمريكا، حظوظ العراقي مضمونة تقريبا ثم الأفغاني والسوداني خاصة الجنوبي، باقي الأربعين جنسية المتواجدة في المركز يملكون فرصا أقل لنيل صك الدخول إلى جنة اللجوء.

دخلنا مقهى صغيرا يشغله نفر من الزبائن كبار السن، طلبنا قهوة وجلسنا في انتظار توقف المطر، أيقظ البلب الإحساس بالغثيان المترسب من ليلة البارحة حيث تدبر لنا بوآثار ماء مثلجا وكيسا من الفول السوداني لنتمكن أخيرا من مزج الريكارد وشربه كما يجب أن يشرب، ونحن نلعب الكونكان.. بوهدي أيضا ثائب من حين لآخر، وهو يراقب المطر وراء الواجهة الزجاجية باستسلام ونظرة مطولة متداعية مع أماكن أخرى، الناس في الخارج تتحرك بخطوات سريعة محاولة اتقاء المطر، الشارع منظم ونظيف، الدراجات تمر مسرعة متباعدة، زبائن المقهى يرددون همهمات متقطعة في أحاديثهم الهامسة رافعين رؤوسهم من وقت لآخر باتجاه المطر، لابد أنهم يتبادلون الأحاديث حول بدء موسم الشتاء الطويل، لايدون على القدر نفسه من الاحتفاء بالمطر الذي يديه المارة، توقفنا بدورنا عن الحديث واكتفينا بتعليق مقتضب من حين لآخر، واسغرقنا إنهاكاتنا الصغيرة وما أثاره سقوط المطر في هذا المكان وهذا التوقيت في نفس كل منا.

بعد عبورنا لبوابة مركز طالبي اللجوء خطر لي أن أتوقف عند مدخل غرفة الهواتف، الواقعة بين الاستعلامات ومكتب الشرطة، غرفة صغيرة مستطيلة بها رف طويل تعلوه ثلاثة أجهزة معلقة على الجدار، لم أكن أنتظر أن يكلمني أحد، ومامن أحد يعرف لي رقما بالأساس، ولكن أفعل ذلك متظاهرا بأي انتظر مكالمتي دون أن ينتبه المتكلمون لحيلتي الجديدة لأنهم يتغيرون، فما أن ينهي أحدهم مكالمته حتى يمضي في حال سبيله ويأتي غيره ولايلاحظ وجودي المقصود. دفعني إلى هذه الحيلة الحاجة للبقاء في جو التخابر مع المعارف، وماتبثه حالة الاتصال بخارج مكانك من أحاسيس ومشاعر حميمة دافئة.

أحاول ألا أسترق السمع للأحاديث التي تدور بلغات متنوعة، مكتفيا بتصوراتي الخاصة ومراقبة وجوه الموجودين وهم ينتظرون المناداة على أسمائهم للشروع في الحديث، لحت آدم السوداني بجانب الباب بلحيته الخفيفة، وقامته الربعة، وفمه المبتسم على الدوام، كان يضحك تقريبا لكل ما يسمعه، صاف ونقي ومفتوح رغم تدينه الواضح. نموذج نادر لصورة المتدين المنسجم مع نفسه، لحت من بجانبه أولا، بنت خلاسية بلون البن، ترتدي سروال جينز باهتا مشقوقا مباشرة فوق الركبة وجاكيeta مفتوحا على بلوزة رصاصية اللون، يعلو رأسها الصغير الجميل تاج من الصفائر الاصطناعية الطويلة وترتسم على وجهها نظرة مستطلعة تحاول الإمام بكل شيء، نظرة حذر مكتسبة من تجربة طويلة في حماية هذا الجمال المتوحش، اتجهت مباشرة اليه وأنا متأكد بأنه سيضحك على أي شيء سأقوله، وبكامل حماقة الطفل الذي استيقظ فجأة داخلي مصرا على تحقيق رغبته ونيل ما يريد، وجدت نفسي منهما في المنولوج الذي خطر لي في اللحظة والتو:

- يا أخي مش حرام عليك المكر وانت رجل محبوب على الخير. وسرعان ما بدأ آدم في الضحك ما شجعتني على الاستمرار في حماقتي: طيب يا أخي أنت عرفتني على كل الذكور في رعيته السودانية بالمركز، كل المقاسات والاتجاهات، حاجة متعبة، بس ماقتلي انو عندكم بنات بهذا الجمال، لم يتوقف وازدادت ضحكته بياضا حتى استند على الحائط، فواصلت بدوري إلى الأمام: يا أخي كيف؟ هذا مو عدل، أنت رجل تخاف الله، كيف تحرم إخوانك اللاجئين من هذه النعمة، نعمة التمتع بجمال السودان العظيم، أنا أحب السودان، بالمناسبة أنا قدمت كسوداني هنا، قولا ليهم أنا حلبي مضطهد بسبب لوني الأبيض، أحتاج لمن يعلمني اللهجة، مش حرام

عليك... بالكاد قطع آدم ضحكك ليعرفني على جارتها: الأنسة (عالية) من أثيوبيا بس مولودة في اليمن، ثم جاراني في العبث، حنا بالسودان ماعندنا جمال كدا، على رأيك.

في تلك اللحظة التي انتابني فيها إحساس الحزي، تعطفت فتاة البن وحركت يديها الأبوسيتين إشارة الى أنها لاحظت أخيرا وجودي في المكان وأبدت رغبتها في التعليق، التفتت الي وقالت:

- انت مش عراقي، انت من وين؟

2

مضت الأشهر بطيئة والأيام متكررة، عاد الكساد والهدوء غير المنتج يعم طرابلس والبلاد كلها بعد أن توقفت الأحلام وعادت الأشياء إلى طبيعتها الأولى، أصبحت شبيها بعمال التراحيل أكسب الرزق القليل من العمل المؤقت في بعض الصحف والمجلات الطارئة التي يوفرها لي أصدقاء ومعارف، أعمل كسمكري يقوم بأعمال التصليح والتصحيح وشد المواد وكتابة العناوين، عملت في الأشهر الخمسة الماضية كمتعاون في مجلة صوت الوطن الكبير، كنت أحضر ثلاث مرات أسبوعيا للدور الثاني بمقر الإذاعة في شارع السيدي حيث أجد المخرج ومسؤول التحرير، أجلس خلف الطاولة منهمكا في إعادة تحرير المواد وصياغة رسائل القراء المفبركة في معظمها، أفعل هذا وأنا أبتادل القفشات والتعليقات مع المخرج العراقي، وهو فنان تشكيلي، لم يكن معروفا معروفا حتى جاء لطرابلس بإتظار الخطوة القادمة، غريب أمر العراقيين، السفر عندهم مسألة ليست شاقة أو هكذا يبدو على الأقل، يعجبني فيهم إتقانهم للسفر وتبديل الأوطان.

تطورت بيني وبين مخرج المجلة سرمد الساعدي علاقة صداقة كانت تلبي احتياجاتنا كلينا أثناء وجودنا في مقر المجلة. كان سرمد بحاجة شديدة لإطلاق نفسه براحة أكثر ووجد في نوعا من التوافق، إذ كنت بحاجة إلى زميل منفتح، يستطيع السخرية مما يعمل حتى نتغلب على ثقل العمل. يريني بين الحين والحين إخراجاه لصفحة أو تخطيط لنص، فسرمد كان يخرج المجلة ويرسمها ويصمم الغلاف، ورغم أنه كان يعرف بحكم تجربته الحزبية الطويلة كعضو في الحزب الشيوعي العراقي تفاهة وزيف المؤسسة التي يعمل بها إلا أنه كان حريصا على إتقان عمله بقدر الإمكان، فكان يجود في الإخراج، ويرسم تخطيطات للنصوص التي تعجبنا ويحاول قدر جهده أن يخفف من بشاعة الفكرة التي يطلبها رئيس المؤسسة أحيانا كثيرة للغلاف الذي كان يخصص له وقتا كافيا برغم كل الضيق الذي فيه...

عادة أمكث بضع ساعات في المجلة ثم أمضي هائما على وجهي في إنتظار الليل. المبالغ التي أتحصل عليها بالكاد تكفي للتنقل والأكل الرخيص في المطاعم التي تعرفت على أغلبها عن طريق راضي الشايش الخبير بأزقة المدينة الخلفية. كان الشايش نسيج وحده، هاجر متجولا في السبعينات للدانمارك وبريطانيا ثم استقر فترة في أسكتلندا حيث تزوج وأنجب قبل أن يعود بأسرته الصغيرة إلى طرابلس هائما بين المقاهي القليلة المتبقية بينما تنتظره زوجته في ركن من المدينة أو بالبيت وعندما ملت الانتظار أخذت ابنها وعادت لبلدها ليوغل هو في حياة الصعلكة والتجوال، كنا نلتقي أحيانا صدفة عندما يكون كلانا يتجول في المدينة فيخبرني عن آخر اكتشافاته المطاعم حيث نذهب سويا لتناول وجبة بدینارات قليلة ونعرج على حديقة الغزالة نستظل بشجرة لنحدث عن الصادق

النيهوم وماركيز وميلان كونديرا وأحيانا كان يبدأ في منولوجه الطويل المعتاد مهددا بعد كل مقطع بأنه سيعود للهجرة ويحرم هذه المدينة الحقيمة من حضوره، كان يحوز طاقة عالية مقارنة بسنواته الخمسين، يكتب القصة القصيرة المكثفة وله مجموعة بالانجليزية أصدرها أثناء إقامته باسكتلندا وبضعة قصص أخرى بالعربية متناثرة بين المطبوعات قبل توقفه عن الكتابة وتحوله إلى اختراع جديد أسماه النص الشفوي.

عانى الشايش من تجربة أليمة خلقت في نفسه دغلا من الحذر والشك والتردد، فهو في داخله شخص موهوب ويحوز على معرفة كبيرة لكن الأمر انتهى به إلى إظهار جانب آخر من شخصيته يتميز بقدر غير قليل من الارتجال المخلوط بتشوش الفكرة، ما جعل تواصله مع جماعات كبيرة أمرا غير قابل للتحقق، إذ أن معرفته على الحقيقة كانت تأخذ مدة طويلة، وهو امتحان لم ينجح فيه إلا قلة من الأصدقاء، وحتى هؤلاء كانوا في بعض الأحيان يتحاشونه فيذهب إلى بيت أمه الخالي بقرية تبعد عن العاصمة مئة كيلو متر..

قبض على الشايش مع مجموعة الكتاب الذين حوكموا في منتصف السبعينات بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، لم يكن المقصود سجنه أو إعدامه ولكن تدميره من الداخل وزرع الخوف في أعماقه إلى الأبد، كان عليه أن يحضر جلسات المحاكمة داخل القفص مع الآخرين بعد جلبهم من السجن، وفي كل مرة كان الخوف يزعزع كيانه ويصرخ في وجهه بأنه لن يخرج إلى الشارع من جديد، مضت أسابيع كثيرة على هذه الحال، تم الحكم على زملائه بالإعدام الذي خفف فيما بعد للمؤبد وأطلق سراحه هو ولكن بعد أن عشن فيه الرعب وعدم التوازن وتلاشت قدرة الحكم على الأشياء داخله.

نزلت من سيارة الأجرة بعد محطة البنزين واتجهت يمينا لمقر
الرابطة لتسليم البروفة الأخيرة من مجلة الفصول التي كلفني "سوف"
بتصحيحها، كان هذا العدد الأخير من المجلة التي قررت الرابطة بعد
مشاورات ماراثونية تحويلها إلى شهرية شاملة لكسب ولو خطوة
وحيدة جاءت حذرة ومتأخرة بعض الشيء نحو مساحة صغيرة للكتاب
عبر منبر يوفر لهم إبداء الرأي في القضايا المعيشة التي لاتستطيع الفصول
معالجتها بحكم طبيعتها الأدبية وصدورها الفصلي، وجدت سوف
الوداني في الانتظار حسب الموعد جالسا وسط مجموعة بسيطة من
المترددin على المكان، وما إن سلمت العدد وتبادلت بعض الجمل حتى
سحبني لمكتبه الصغير الذي يدير منه المجلة، اطلع بسرعة على الورق ثم
سحبني من جديد للمطبخ حيث اعتدنا التحدث وهو يعد الشاي
الأخضر الخاص به بعد أن منعه الدكتور من تناول القهوة وأعد أنا
قهوتي العربية (في الواقع هي قهوة تركية).

لايتحلى سوف عن ربطة العنق إلا في مرات نادرة، ويحضر دائما
بأناقة جيله الستيني ولونه البني ووجه المخدد بآثار الزمن، ترك كتابة
القصة القصيرة التي يعتبر من روادها منذ عقد ونصف واعتكف بعيدا
عن العمل العام منذ أن أفقرت الساحة وتخصص في الكتابة للأطفال،
وعندما ظهر بعض الحراك على السطح في فترة "أصبح الصبح" عاد
بهدوء يتلمس طريقا للإستئناف، هو من أكثر أبناء جيله احتراما لأنه
ظل بعيدا ولم يضيف شرعية ثقافية على ما يحدث ورفض الاستفادة
المادية وبقي في منزله الذي لم يتجدد منذ سكنه وهو ما أكسبه مودة
خاصة في جيلنا وعلاقة حميمة معي ومع عمار الناهي ووهاب، أخذنا
شاينا وقهوتنا، وفي هذه اللحظة أخبرني سوف بأنني ساكون في لجنة
التحرير الجديدة ثم سار أمامي دون انتظار تعليقي بطريقة مسرحية

مرحة، وعدنا إلى البلكونة حيث جلسنا مع الآخرين الذين كانوا منهمكين في الحديث عن الخطوة الجديدة لمجلة الفصول الشهرية والتي كان من المقرر أن توضع خطة إصدارها النهائية بعد يومين عندما تصل مجموعة بنغازي لمناقشة التفاصيل الأخيرة.

بعد فترة من صمته، مال علي سوف وهمس في أذني بصوت متحشرج من التأثير:

- أترى، حتى مواضيع الحديث تغيرت هنا، أصبحت أكثر جدوى.

كان يشير بذلك إلى اختفاء الأحاديث الخاصة بتصريف العملة وأسعار المواد الغذائية التي كانت شائعة في المكان، وبعد يومين جاءت جماعة بنغازي كما نسميهم، كانوا خمسة كتاب، بينهم سجينان سابقان، خليل الفيتور بعصاه التي يستند عليها بعد قطع قدمه عندما أصيب بالغرغرينا في السحن ويوسف طيب بقامته الطويلة النحيفة وأعصابه المتوترة على الدوام، جاء أيضا عريبي سليم الذي يكتب النقد ونوري دائم وسليمان جمعه، كان سوف قد أعد صالة اجتماع مبتكرة في الطابق الثاني بكراسي بلاستيكية، وفرش الطاولة الكبيرة بشرشف أحمر أخرجه من دولاب مهمل، ووضع فوقها أوراقا وابريق شاي وكنكة قهوة، واستمر الحديث حتى العاشرة ليلا قبل أن نتحول جميعا إلى الفندق الذي في مواجهة المقر حيث نزل الضيوف لنستأنف النقاش حول لترات من البوخة إلى الفجر عندما توصل الحاضرون للنتيجة النهائية، المجلة ستطبع على نفقة وزارة الإعلام بناء على مخاطبة سابقة، وسيكون العمل بما بجانبا مع منح مجموعة التسيير في طرابلس مائة دينار لكل فرد للمواصلات، وستكون لجنة التحرير من ستة أفراد مناصفة بين المدينتين.

صحوت ظهرا على صداد جراء سهر ليلة البارحة التي بالكاد تذكرت منها أطيافا مشوشة وأنا اتابع من تحت الغطاء سقف الغرفة المختلف عن البيت الجامعي، لحت عصا خليل على مقربة مني وتبعتها حتى رأسها لأراه نائما بجسده الضخم على السرير الوحيد، قمت بتكاسل متمايلا لمغافلة الصداد وغسلت بسرعة مقاوما رغبة في التقيؤ، كتبت ورقة سريعة لفيتور ثم خرجت نحو الطريق العام.

““

عندما وصلت بيت يحيى عنقود في سيدي خليفة كان رأسي مازال يحاول تجميع مدار في ليلة البارحة، المائة دينار على تفاهتها كانت أول راتب ثابت لي منذ دخولي عالم البطالة والعمل في مجلة يصدرها الكتاب ليس بالأمر التافه، فمن حضر البارحة عبر بذلك عن دعمي مهنيا ومعنويا وتوفير حد أدنى مالي يؤمن لي الاستمرار، ما أشعري بالامتنان والجدوى وأبعد عني قدرا لا بأس به من شعور الغثيان الذي صاحبني في الطريق.

بعد الغداء أخذ يحيى في لف سيجارة وناولني إياها بأطراف مرتخية، كنت قد سمعت أنه دخل في مجال الهيروين ولكني لم أفاتحه في الأمر منتظرا الفرصة المناسبة، أخذت السيجارة الممدودة نحوي وجميت منها بعمق لأدخل في مرحلة من الصفاء وأنا أراقب تلاشي الغثيان بعينين مغمضتين، أخبرته سريعا بما دار البارحة فعلق بغمغمة لم أتبين منها مايفيد، ناولته السيجارة واتكأت على الوسادة مستعرضا مايدور في رأسي من صور محاولا ترتيبها ما أمكن.

تعرفت على يحيى في الثانوية الدينية التي التحقت بها بعد أن تأخرت في اللحاق بالتعليم العادي، كان ابنا لمرب معروف في طرابلس

مات مبكرا في حادث مؤلم وخلف مكتبة دسمة تحتوي كل أمهات الكتب بالإضافة لمؤلفات متنوعة لطفه حسين والعقاد وتراجم دار الآداب ومجلدات الرسالة وأعدادا كثيرة من مجلة العربي وكتبا أخرى كثيرة ومختلفة في اتجاهاتها. يرصد عدد منها بدايات الحداثة ومعارك الستينات الأدبية. بعد تعارفنا بقليل نقلنا الكثير منها إلى الملحق الصغير الذي كان دكانا لمساعدة العائلة في المصاريف قبل أن تلغى التجارة، كنا نبقي هناك أياما طويلا ونحن نقرأ في الكتب الكبيرة متبادلين مانجده وأحيانا نغرق في جلسات طويلة بصحبة البوخة والشعر، تبادل فيها الأبيات كل حسب كتابه وعندما التحق يحيى عن طريق معارفه بالعمل في وكالة الأنباء دبر لي سريعا مكانا للعمل معه لنصبح منذئذ رفيقين دائمين إلى جانب زكريا جمجم الفريد في كل شيء. كان جمجم بلون الشوكولا ويحمل اسما جانبيا فاتنا هو طير الجنة لأنه كان يصبغ شعره في مراهقته بسائل تنظيف الجروح فيتحول إلى اللون الأحمر، كان أكثر شخص عرفته لايبالي بالتعليقات وأقوال الناس، يمضي قدما لهدفه مهما كان تافها أو كبيرا، دائم السخرية وتحتاج لقاموس من المودة حتى تفهم مايريده بالضبط. كان كلامه يبدو كأنه قص من ورقة وألقي بإهمال.

يرسم ويكتب الشعر الحديث ويربي كلبا ذئبي الشكل يتجول به مساء في طرف المدينة قبل أن يلتحق بالعمل، وعلى طاولته في وسط صالة الإخراج كان يلصق ورقات عدة خلف مكتبه يحصي بها عمليات المقاومة الفلسطينية التي تعلن في نشرة التاسعة والنصف، يقسمها بحسب نسبتها في بيانات الجبهات والأحزاب المختلفة ثم يقوم بجردة حساب لها في آخر كل عام معلنا بلغة تهكم زائفة البشرى وباعثة للقسرية: إن الصهاينة اليهود على وشك الانقراض جراء تلك العمليات المتواصلة التي يقوم بها الفدائيون، ثم يضيف الرقم الجديد

لقائمة خاصة يحتفظ بها في الدرج إلى جانب أرقام الأعوام السابقة مواصلا دون أن يتوقف عن الكلام.

هو أول شخص أراه يرتدي عدسات لاصقة بدل النظارة وهو ما لم تكن شرطة المرور ودوريات الأمن تتفهمه عندما يطالبونه بتفسير عدم وضعه لنظارة طبية كما تنص رخصة قيادته، عندئذ يقلع جمجم عدسته في عملية غريبة تماما بالنسبة للتوقيت والمكان، وفي كل مرة يزود السائل بشروح وافية كيف أن العلم تقدم وأنه ركب هذه العدسات في رحلة علاج قام بها على نفقته الخاصة لإسبانيا منذ سنوات بعد أن يئس من العلاج على حساب العمل أو الدولة.

في ليال عديدة خلال الأسبوع كنا نخرج في سيارته الداتسون الصغيرة هائمين في الشوارع الخالية حيث يسمعا أشعاره، نتوقف بين الحين والآخر عند دكاكين السفازة والمقاهي النادرة التي تفتح في الفجر.

كانت له طرقه الخاصة للاحتجاج على ما يحدث، مرة ذهبنا في السيارة بحثا عن زيت فرامل من طرابلس حتى رأس جدير التي وصلناها صباحا قمنا بشراء حاجتنا من مهرّب كان على وشك الانطلاق عابرا نحو الحدود التونسية.. لم تفهم دوريات الأمن الرابضة في البوابات الفاصلة بين المدن والمتحولة في طرابلس مرات عديدة هذا السلوك، كنا نحل أحيانا ضيوفا مشبهين حتى الصباح متعرضين لمختلف الشتائم والإهانات قبل أن يألّفوا هذه الطلة المتكررة ونصبح معارف لهم، كان جمجم هو قائدنا في تلك الجولات في عالم طرابلس الليلي، مقاومته لما يحدث كانت على شكل اقتحام ليلي للمدينة وماجاورها اختراقا لكل شبكات الأمن والعودة سالما للسريّر، كان يقاوم خوف كل لبيّي بطريقة غريبة ولا تعرف إن كانت شجاعة أم حماقة خالصة، بالنسبة

له - كما أخبرنا مرات - أن التحدي الحقيقي ليس ما يواجهه الذين تاهوا في الصحراء وضعف أملهم في العثور على طريق للنجاة بل في من يخرج ليلاً مخترقاً الشوارع وحتى المدن ثم يعود لبيته في طرابلس حياً وغير مطلوب، وقد كان ذلك هو منبع الخوف بالنسبة لكل الناس، الخوف من الأمن، لقد كان جمجم يدرك أن هناك تلاعباً ما بالألفاظ في هذه الصياغة، الواقع يقول أن الناس تشكو من قلة الأمن وليس الأمن ذاته كما يبدو لهم في الشارع، وللمساهمة في تحقيق الأمن كان جمجم يرى بضرورة الثبات في الشارع وعدم الخوف، من حسن حظنا أننا كنا الوحيدة في تلك المجموعة بصالة الإخراج اللذين فككنا شيفرة جمجم ورافقناه في تلك الليالي التي اكتشفنا فيها الكثير واكتسبنا بعض الخبرات المستمدة مباشرة من الشارع، وبالنسبة لي وليحيى كانت رفقته خلطة مثيرة تواجه فيها مواقف حياة مختلفة كثيراً عن النهار، لم يكن في ليل طرابلس مقاهي ولا حانات ولا حتى سيارات في الطريق. ليل طرابلس مختلف. فارغ ويشير الخوف. هناك ليل ولكنه لا يشبه ليل كل المدن. ليل موجود وتكاد تلمسه باليد للزوجته، ليل من نوع آخر لا تتوفر فيه السلامة...

.. كثيراً ما ندخل أنا ويحيى الملحق محاطين بتلك الكتب المهيبة متخططين الأشعار المعلقة في الغرفة من كثرة التردد...

في المعهد الديني كنا نقرأ: ألفية ابن مالك، وتاريخ الحديث، وعلم الفرائض، وقواعد البلاغة، والتفسير ساجين في العصور القديمة دون مبالاة بما يحدث حولنا، وفي يوم "العسكرية" حيث تأخذنا حافلة إلى معسكر للقوات البرية، كنا غالباً نختفي داخل دبابة روسية نوع تي 52، ندخن في قمرتها الصغيرة المصنوعة ونستذكر مآثره في تلك الكتب المجلدة حتى يحين موعد الانصراف، كان يحيى على العكس مني، محباً

للحياة والمغامرة ومحتفلا دائما بالتجربة مهما كانت النتيجة، قامة نحيفة وطويلة ورثها عن عائلة طرابلسية عريقة امتازت بالتور والبساطة في فهم الدين والانفتاح على الناس. تعلمنا التدخين والشرب ومن ثم الحشيش وخضنا تجاربنا العاطفية الأولى سوية في مغامرات استكشاف لذيدة لأننا دمجنا كل ذلك مع القراءة والسفر في المجلدات، كان أيضا مدمنا على سماع الغناء والموسيقى كما يقول، يحفظ الكثير من المألوف الطرابلسي وأغاني أم كلثوم التي كانت لاتتوقف في الملحق الصغير، وكذلك الموسيقى الغربية حيث برع في حفظ أسماء مطربيها ومطرباتها وأنواعها وآلاتها، وعندما رسب في نهاية العام الدراسي بسبب مادة العسكرية قرر التوقف وبالكاد أقنعت به بالمواصلة التي لم تطل إلا أسابيع قليلة في العام التالي ليتوقف من جديد بينما بقيت محاولا الاستمرار حتى ذلك اليوم الذي أخرجني فيه العريف بلعيد من الصف، وبعد مجموعة من الإهانات العسكرية أمرني بتكرار حركة استرح استعد مائة مرة وذهب بسريره لإكمال الدرس، بقيت وحدي في الساحة أستريح وأستعد بقوة آملا أن تنفتح الأرض لأغوص فيها من الغيظ والمهانة وعندما لم يحدث ذلك انتهزت أول فرصة وقفزت من السور واتجهت لبيت يجي لألتحق به مثنيا على قراره بالتوقف.

واصلنا فيما بعد الدراسة عبر المنازل ونجحنا ودخلنا الجامعة حيث اختار اللغة العربية وتحصلت على واسطة بالصدفة زكتني، ودخلت قسم العلوم السياسية الذي كان شبه محتكر لأعضاء اللجان الثورية وضباط الأمن وأولاد المسؤولين.

طبيعة يحيى القلقة وفراغ الحياة وجفاف المناهج وعقد المدرسين تحالفت ضده من جديد ليتترك في السنة الثالثة، بعد أن ترك العمل في الوكالة ليتخذ أكثر قراراته شجاعة وهورا عندما قرر أن يبيع الحشيش،

كان يبدأ دوامه في المساء حيث يقف في الركن عند الزاوية المفتوحة على شارعين واضعا القطع الصغيرة ذات العشرة والعشرين دينارا في جيب، ويمارس مهنته الجديدة بسهولة وهدوء مستفز بالنسبة لي، لم أدنه ولم ألح في النصيحة عليه لأنه لم تكن لي الأسباب الكافية وحافظت على هذا السر بإخلاص، ليس عندي موقف أخلاقي من التعاطي ولكن أحزنني تحوله إلى تاجر مبتديء؛ لأن ذلك لا يليق به وبتاريخ عائلته العريق، كنت أمر عليه في أوقات متقاربة، ندخل الملحق حيث يحضر غاز اليريموس الصغير وسكينا حادة يضعها على اليريموس حتى تحمر ثم يغرسها في قلب الحشيش فتغوص فيه نحو الطرف الآخر، ويستمر في التقطيع إلى أجزاء صغيرة مناسبة بمهارة وشغف، أحيانا يحضر أصدقاء وزملاء من الشارع يمتنون نفس الحرفة، وفي نهاية جلسة التقطيع نتناول الفتايف المتناثرة ونجمعها في قالب واحد صغير ونعيد تفتيتها بالولاعة وتدخينها قبل أن يخرج إلى ركنه المعتاد. أحيانا كنت أقف معه بدافع الفضول والتشجيع ورغبة في إيصال شعور من التضامن والتفهم له، وأحيانا أخرى يسيطر علي الخوف والارتباك فاندفع بموعد طاريء أو أبقى في الملحق بداعي التعب، أو الرغبة في القراءة حيث أسرح في ملكوت الكيف متابعا سيل الصور التي تجري أمامي لاقطا بعضها لأنجر خلفها في عوالم خاصة وعميقة وبعيدة التصور خارج عالم السيجارة الغريب.

في الأشهر الأخيرة بدأت أشعر بتغيرات من نوع آخر تجري داخل يحيى، كان لي أيضا تغيراتي واهياري الخاصة، وبشكل ما وتحت ظروف سريعة التغير وبطيئة الملاحظة بدأت لقاءاتنا تقل، ولكن مع كل مرة كنت ألاحظ أن هناك شيئا ما يجري في داخله ويحرص على إخفائه عني، حتى جاءني كريم الذي كثيرا ما كان يحضر جلسات تقطيع

الحشيش ويسكن على بعد من منزل يحيى بشارعين وحكى لي أن يحيى قد بدأ في تعاطي الهيروين، وسمى لي أسماء من الشلة الجديدة التي تلتقي من أجل ذلك، وتعرفت على بعض الأسماء التي كنت أبادل معها تحايا وأحاديث متقطعة أثناء وجودي في شارع سيدي خليفة.

““

بعد حوالى عقد من السنوات كنت في مدينة سرت أتابع جلسات مؤتمر الشعب العام لصالح مجلة لبنانية أعمل مراسلا لها بالقطعة، كنت أقضي النهار في قاعة المؤتمر وجزءا من الليل مع أصدقاء ومعارف قبل أن أسير على قدمي نحو فندقني الذي عند طرف المدينة الصغيرة شبه العشوائية. أمر من المنطقة الفخمة حيث الإنشاءات الحكومية إلى مساحات خالية تجول فيها الكلاب نحو الفندق للنوم، استمر المؤتمر زهاء أسبوعين وسط لغط كثير، كانت الأزمة مع الولايات المتحدة في عزها. سرى في المؤتمر أن وزير الخارجية سافر على عجل إلى واشنطن في زيارة غير معلنة ما اقتضى تمديد الجلسات في انتظار نتيجة الزيارة قبل اتخاذ أي قرارات. كنت أجلس في القاعة أراقب وجوه المسؤولين الذين لم يكونوا قادرين على فتح فمهم بكلمة واحدة أمام الصحفيين، وأتملى الخليط المتداخل من الحاضرين المنهمكين في اللعبة الكبيرة التي تقتضي تمرير الوقت متظاهرين بأنهم يمارسون مسؤولياتهم بجد وضمير، خليط من اللكنات يقوم بارتجال جماعي للجلسات.

وفي أحد صباحات ذلك المؤتمر الطويلة اتجهت كعادتي لمطعم الفندق لتناول الإفطار وقراءة جريدة الوكالة التي كنت يوما أحد محرريها، وفي ركن الصفحة الخامسة الأسفل كان يوجد نعي مكتوب ببنط كبير: تتقدم وكالة الجماهيرية للأنباء وجريدة الفجر الجديد بأحر

تعازيها لاسرة الزميل الفقيد زكريا جمجم الذي وافته المنية مساء أمس إثر حادث سير أليم.

رमित الجريدة على الكرسي المحاذي واستأذنت راجعا للغرفة بينما كان شريط متسارع من الصور يمر أمامي بطلها جمجم الذي قرأت نعيه للتو، حاولت دون توفيق الاتصال بيحيى ومعرفة مالذي حدث بالضبط، لم يكن موجودا وتلقيت إجابات مبهمة من عائلته فهتمت منها أنه غير موجود وأن أناسا مروا عليه وخرج معهم ولم يعد.

في ذلك المساء المشؤوم كان جمجم الذي قرر أن يقضي عطلته الأسبوعية في البيت مع كلبه قد مر في الطريق على صديق أعطاه ثلاث حبات زرقاء، حاول أن لا يأخذها في البداية ولكن الصديق المدمر أصر مؤكدا أنها قادرة على تغيير مسائه ونقله إلى برزخ من الهدوء والصفاء بعيدا عن الواقع المترب الذي نعيش فيه، كانت سيارته معطلة منذ أسابيع وتأخر إصلاحها لعدم وجود قطع غيار، تناول الحبات وأخذ سيارة أجرة نحو بيته على طريق المطار، نزل بجانب الجسر الذي سيأخذه للطرف المقابل، وفي لحظة حاسمة سها، تجاهل الجسر وعبر الطريق ولكنه توقف في منتصفه متأكدا أنه قد وصل للناحية الأخرى، كان يسير في الهواء بسبب مفعول تلك الحبوب الملعونة، لابد أن أشياء لافتة تستحق الوقوف قد ظهرت له في تلك اللحظة فوقف ليتأملها ظانا أنه في أمان. أشياء لن يكون في مقدورنا أن نعرفها لأنه لم يتسن له أن يقولها لأحد. في منتصف الطريق الثاني سمع دوي منبه لشاحنة مسرعة، نظر إلى مصدر الصوت ولكنه لم يستطع تجميع الواقعة في خياله المنفلت في تلك اللحظات على إيقاع الإلهام الأخير، ابتسم بهدوء وهو يلتفت نحو الشاحنة قبل أن يطير في الهواء ملاحقا روحه الساخرة وهي تصعد

للسماء طيرا من طيور الجنة. مات وهو يتسم غير مصدق لما يحدث
كما كان دوما.

““

لم يعد لي في هذه المدينة شيء ثابت أعرف أنني سأقوم به بعد
ساعة أو يوم أو شهر، وسط هذا الهلام الذي أتحرّك فيه عدا شيء واحد
هو مواعيدي الوحيد الثابت يوم الأربعاء الساعة الواحدة ظهرا مع
رحاب، إنها الكائن الوحيد الذي يخصني وأخصه بالكامل، أستعد لهذا
اليوم منذ اللحظات التي تعقب انقضاؤه، أسير من أي مكان أكون فيه
مبكرا نحو هيئة التوثيق بشارع النصر حيث تكون رحاب قد أنهت
عملها، واستعدت مثلي لساعة نقضها معا في كوننا الخاص حيث
حولنا مكتبها الصغير المحلى بالصور والملصقات الصغيرة، والبطاقات
الملونة إلى عش ننهل فيه من بعضنا كما نريد ونرغب في واحة ظليلة لها
واقعها الخاص المنفصل عن ما يحيط به.

الدخول لهيئة التوثيق أمر صعب تدبرته رحاب بمواهبها الخاصة،
حيث أجد كل أربعاء تصريحا خاصا باسمي يمكنني من الصعود إلى هذه
الجنة الصغيرة، ثم تعود مكتب الإستعلامات على وجودي فصرت
أصعد مباشرة بعد أن القي التحية على الشخص الموجود، الذي لا بد
أنه صار يعتقد أنني أتعاون مع الهيئة مادام موعد حضوري مضبوطا
باليوم والساعة والدقيقة، صعوبة تخيل تواجد مثل هذه الواحة هو ما
أبعد عنا الكثير من العيون الفضولية، التي ما كانت تتصور أنه يمكن أن
تقام صلة بيننا بهذا الشكل وفي هذا المكان.

تعرفت على رحاب صدفة في عرض مسرحي رفقة أصدقاء، لم
أتوقع بداية أن تتطور الأمور بيننا إلى هذا الحد، نشأت علاقتنا من
النجذاب كيمياء جسدين لبعض وتطورت دون الوقوع في مخاطر

أوهام الحب، ومتطلباته العملية المؤدية لهاوية الاستقرار الشكلي، عبرنا تلك الهوة إلى نوع من الصداقة الممزوجة بالرغبة والتفهم والسخرية من الأوضاع السائدة في العلاقات. كانت بقامتها المكتنزة وخصرها الضامر وشعرها المسترسل على شكل دوائر صغيرة مجمدة وبشرة سمراء على عيين سوداوين لاتظهر فقط جمالها البري، لكنها تظهر أيضا جاذبية صريحة وحضورا حميما. قضينا أيام علاقتنا الأولى على الهاتف ثم اقترحت هذا المكان الذي طالما كان منغلقا على فهمي كي نلتقي فيه كل أربعاء. كانت تتحرك بهدوء وعلى مهل في كل شيء، وتبدو غير مبالية ولا تنتظر شيئا، ولا ترغب في مزيد، وعندما ذهبنا معا للأمام اكتشفت كم كان ذلك الهدوء مخادعا الذي يمكنها دائما من نيل ماتريد وترغب بالطريقة التي تختار.

في تلك الساعة قبل أن تنهي دوامها وتذهب للبيت كنا نفعل تقريبا كل شيء، الحب والحديث والصمت والوقوف خلف الشباك لمراقبة الكائنات وهي تسعى غالبا لغير هدف محدد. مرة سألتها وهي خلف جهازها تراقب شيئا ما عن طبيعة عملها بالضبط.

- وماذا ستفيدك معرفة ذلك؟
- لا اعرف،.. فضول على الاغلب.
- طيب، نحن نستقبل كل ماله علاقة بعدد السكان.
- حسنا، وكم عددهم.
- لا احد منا يعرف، فنحن نقسم ذلك في جداول واجزاء وتسميات مختلفة.
- يعني.

- كل مكتب مختص بجزء من مجموع العمل، بحيث لا يعرف احد الرقم النهائي.
 - اقسام مثل ماذا؟.
 - شرائح، مهن، اعمار، قبائل، مناطق، انواع... وهكذا.
 - ثم.
 - لاشيء، لا تشغل بالك فلا احد يعرف بالضبط النتيجة النهائية لكل هذا، نحن نجهز الاجزاء ونحيلها ولا يدري احد إلى اين تذهب.
- لا أحد يدري، هذه هي المشكلة. إجابة رحاب بدت لي منسجمة مع الوضع العام واحترمت حرصها، وكففت منذئذ عن الفضول والأسئلة مفضلا عدم التشويش على وقت الهناء الذي نقضيه معا.
- خرجت للشارع عند انتهاء دوام رحاب، وسرت نحو وسط المدينة متجها إلى مطعم صغير في شارع جمال عبد الناصر محاذرا أن يراني أحد من مرتادي مطعم الشجرة القريب، مخافة أن اضطر للمحاملات في وقت أنزع فيه للوحدة. كنت قد تعرفت على المكان في إحدى جولاتي مع الشايش. زبائن المكان اكثرهم من العمال المصريين وبعض الطارئین مثلي. طلبت صحن الفول والمخلل وسلطة ودفعت الدينار والربع وبدأت الأكل دون أن أتوقف عن التفكير في يحيى، الذي بدا لي تغيره الآن في هذه اللحظة التي أمضغ فيها الخبز والقول واضحا. حدث الأمر بتدرج خلال انشغالي في المدة الأخيرة فلم ألاحظه ولم أتبينه كما أفعل الآن. توهجه بدأ يخف مؤخرا وكثر سرحانه وقلت نكته التي يجمعها من مرافقه لأصناف مختلفة من البشر ويعيدها لي في الليالي الطويلة التي تنفرج فيها على الأفلام المصرية المليئة بالصراخ والتي كان يعلق عليها ساخرا: من سيصدق من المارة قرب النافذة أننا لا تنفرج على شريط جنس. كان خبر تعاطي يحيى للهيروين

بالنسبة لي إعلان منه بأنه قد تخلّى عن الاستمرار في الحياة كما عرفناها، وفضل التعامل معها بطريقة أخرى لها منطق خاص. ليس للأمر علاقة بقوة المخدر أو نشوته بالنسبة له، وإنما قفزة في العدم بعد أن مل الحياة المكررة والمقفولة بجرص.

قبل شهرين أو ثلاثة وبينما كنا نجلس على ركابة الشارع حضر محمد طشان وهو من جيران يحيى ندخن معه في مرات متباعدة، طلب منا طشان الذهاب للبيت فوراً، وهناك أخرج من تحت ثيابه كيسين بلون أبيض على شيء من الصفرة الخفيفة قائلًا إن أحد أصدقائه أعطاهما له، وحيث أنه لا يتناول هذه الأشياء فقد فكر في أننا يمكن أن نتصرف بهما، قضينا وقتاً ونحن نقلب الكيسين محاولين معرفة كنههما، كانا يبدوان مثل الملح المجروش أو البودرة المبللة، ثم قررنا فتح أحدهما وعمل سيجارتين منه، وبعد تردد دخناهما ثم خبأنا الكيسين. بعد ذلك مر وهاب لأخذي لأداء واجب عزاء في أم أحد الأصدقاء.

بقيت ليلة كاملة ساهما ولم أستطع أن أحط على الأرض منذ أن بدأ مفعول اللفافة وحتى غادرنا العزاء، كنت مليئة بالنشوة والثقة والهدوء وسيطرت علي موهبة مفاجئة بحيث كنت أعرف ما سيقال قبل أن يتفوه به قائله حتى كدت أجن، وفي مساء اليوم التالي مررت على يحيى الذي كان قد قضى ليلة مشاهة لاستئناف الحديث في أمر الكيسين فوجدته قد عرف أنهما كوكابين، وعندما سألته عنهما أجاب ساخراً بأنه أعطاهما لشخص يتاجر بهذه الأشياء مضيفاً بحركة مسرحية أنه حشاش فقط ولن يتجاوز ذلك الحد.

ماذا حدث له الآن؟ هل قرر أن يتجاوز ذلك الحد، ولماذا؟ بدا لي التساؤل ساذجاً، فكل ما يحدث يدفع نحو التجريب والهروب والبحث عن مخرج مهما كان خادعاً، اللحظة الواقعية أكبر وأقسى من أن

تعاش، لا أمل ولا أفق ولا جديد، نعيش كلنا في يوم مكرر وكئيب بحيث تشعر أن جسمك ماعاد يطبق روحك وروحك ماعادت تطبق سجنها الضيق.

خرجت بعد وجبتي محتميا بالظل الذي توفره أقواس الشارع، من حسنات الإيطاليين القليلة أنهم حافظوا على المعمار الإسلامي في طرابلس بالشوارع التي بنوها، بحيث بدت رحبة بيضاء وذات أقواس جميلة متصلة مثل عقد على جيد، كانت الرجل قد خفت بفعل القيلولة وبدت المتاجر القليلة المفتوحة على وشك النعاس. رغم انفتاح (اصبح الصبح) والسماح بعودة التجارة الصغيرة، ظلت الدولة مهيمنة على التوريد وتحويل العملة فبدت المتاجر تدور في حلقة مخادعة، أغلب رفوفها خالية رغم الحيل العديدة التي يستنبطها أصحابها لإعطاء إحساس أن الأمور في طريق التحسن، ولمحاولة الجحارة انتشرت حمى متداخلة بين السكان لممارسة التجارة والحقا بركب الغنى. فتح الكثيرون دكاكين مرتجلة في خلفيات البيوت، وتحولت الغرف المطلية على الشوارع الجانبية في المدينة إلى متاجر مبتكرة تبيع سلعا متنوعة من السكاكر إلى الملابس الصينية المهربة، ورغم عدم وجود مردود فعلي لأغلب هذه المشاريع المسخوطة ظل السكان مصرين عليها في انتظار لحظة قدرية تحولهم لأغنياء، دون الالتفات لمنظر المدينة الذي كان يزحف حثيثا نحو العشوائية والفوضى واختلاط الأماكن ببعضها.

كثيرا ما سألت نفسي - ولتها أحيانا- عماذا كان سيحدث لو أننا تريتنا قليلا، وبعنا الكيسين ونقلنا حالنا أنا ويحيى إلى وضع جديد. يحيى أيضا يردد بين الحين والآخر نفس الحال متحسرا وتائها بين دواخله. كنا ننازع مقاتلين رغباتنا وواقعنا وإن سقط يحيى قبلي فلا يعني ذلك أنني أفضل منه بآية حال.

أجلس في البيت الجامعي أتابع التلفزيون. وهاب لم يعد بعد. أشاهد المتنبي وهو يدور حول سميرة توفيق راقصا مثل زوربا بدوي مرددا: غني ياسميرة على الفاتح غني. وتغني سميرة على الثورة وقائدها وجماهيرها الهادرة وهي تغمز باستمرار، ولكن لماذا تغمز؟ فرحا بالمردود الذي ستناله أم أنها منتشية بهذا الشاعر الفحل الذي يدور حولها كمن يطوف بجسد شهوي لم تنل منه السنوات إلا قليلا؟ وهو يعوم في بياض ملابسه متناولا بذيل عمامته مرجعا إياه إلى مكانه في الخلف. أدخل المطبخ الذي بالكاد يتسع - في أيام الصحو - لشخص واحد، أفتح الثلاجة باحثا عما يصلح ليكون مزة عند قدوم وهاب بكيس البوخة التي صارت تعباً في أكياس نايلون، بعد أن فقدت الزجاجات البلاستيكية من السوق. كيس صغير بربع لتر وآخر أكبر بنصف، وإذا أردت لترا فما فوق فيمكنك الحصول على مشروبك عندها معبأ في زجاجة مياه تسع لترا ونصف. أخرجت حبة طماطم وإصبعي خيار ووجدت أيضا بعض الهريسة العربية والجن. صففت الأشياء فوق الطاولة في الصالة حيث أنام وجلست أنتظر وهاب الذي أخرج الكيس من كيس تسوق أكبر وجلب كأس شاي صغيرة بينما أفرغت المحتوى في زجاجة نحتفظ بها لهذا الغرض وبدأنا في الشرب على حسب العادة الليبية العريقة، كأس صغيرة واحدة تدور بيننا.

لا يمكن فهم الليبيين إلا عن طريق شيئين، المكرونة المبكبة وطريقة شربهم للكحول. المبكبة هي أكثر من أكلة، وتكاد أن تكون النشيد الوطني غير الرسمي في ليبيا، وهي أيضا دلالة بينة على أن هذا الشعب الغريب قد استطاع أن يأخذ من الاستعمار الطلياني بعض عاداته ويطورها في إشارة على قبوله بالآخر واندماجه معه مهما كان الثمن الذي دفعه في ذلك، ومن بين كل أنواع المكرونة الإيطالية فإن

خلطة المبكبة فريدة من نوعها وتعتبر إضافة جديدة للمطبخ الإيطالي نفسه، وتم إدراجها في كثير من مطابخ الدول التي درس وعمل فيها الليبيون، ونالت استحسانا وثبتت على القائمة كأكلة أحبها الزبائن رغم اسمها الصعب، ورغم صعوبة هذا الاسم فإن تحضيرها بسيط وسريع، وكل الوجبات الفريدة فقد تميز الرجال وخاصة العزاب والسكIRON وسائقو الشاحنات والحواة منهم بطبخها وإجادتها أكثر من النساء.

مهما كان عدد المنتظمين في الجلسة فإن الشرب يتم بكأس واحدة، يجلس الندماء في دائرة ويداوم الساقى الذي يكون أكثرهم مهارة في تحديد الكمية، وأقلهم قابلية للثمالة على مناوله الجالسين بالدور، وتعقب كل دورة استراحة قصيرة حسب المزاج والكمية وحالة السكره. لا يعرف بالضبط السبب وراء الشرب بكأس واحدة، لكن ربما يرجع ذلك لندرة المشروب والحرص على تقاسمه بعدالة في التوزيع، ومهما كان الأمر فقد كان للكأس الصغيرة الوحيدة دور في إثبات وضع جديد لجلسة الشرب، تلك الكأس عادة تستخدم في شرب الشاي على الطريقة الليبية، هي التي تربط الحاضرين بخيط واحد خفي في حالة متوحدة من المشاركة والاندماج في جو واحد، ومهما ارتبكت الجلسة وحق بها الشغب فإن هذا النظام كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها والجلسة إلى مزاجها الأول، فالمشروب أثمن من تضييعه سدى.

أمر عيني باتجاه الصورة الوحيدة المعلقة على الجدار، صورة إبراهيم شقيق وهاب وساكن الشقة السابق، أستاذ فن العمارة الذي عاد من أميركا محملا بالمثالية والرغبة في المساهمة بتطوير التعليم والرقي بالذوق العام. يبدو في الصورة بنهاية الثلاثينات بشارب خفيف وشعر غزير مفروق من المنتصف وعينين ثاقبتين دقيقتين في القبض على

التفاصيل وسط وجه ساكن. في هذه الغرفة كان إبراهيم يغالب قلقه المزمّن من الحالة المتردية التي وجد نفسه فيها. كانت الفوضى الثورية سائدة في كل المناحي، والطلبة يمرون من مسيرة إلى أخرى ومن مهرجان إلى آخر، وما إن يحضروا للفصل حتى يحدث حادث في نيكاراغوا أو زيمبابوي أو لبنان فيخرجوا مجددا للتنديد والتضامن، وكان إبراهيم ينتظر عودتهم إلى مدرج المحاضرات ماضغا طوال الوقت ببطء ندمه على العودة، مغالبا شعورا كاسحا بأن عليه اتخاذ قرار جديد بالمغادرة. عند عودته كان اسم وهاب قد بدأ يلمع كشاعر وكاتب مقالة بنفس مختلف، وبالكاد استطاع تدبير هذه الشقة لأخيه العائد بعد وساطات عديدة في الجامعة. لم تتوسع الجامعة في مرافقها بشكل يتناسب مع عدد طلابها وكادرها وصار الأمر يحتاج للوساطة حتى تنجز الأشياء. كل شيء بدا لإبراهيم غير ملائم ومتداخل ويستحيل التعامل معه مادامت الفوضى هي المنهج السائد. كان قد سافر بعد الثانوية للدراسة ثم استمر في تدبير أموره حتى حصوله على الدكتوراه، وعندما عاد اكتشف أن ليبيا تغيرت في كل شيء.

في حالات اليأس الكرى كان إبراهيم يخوض مع وهاب في نقاشات حول ما يحدث:

- ألا ترى يا وهاب، ليس هناك طلاب تقريبا، وعندما يحضرون في نهاية الأمر يبدون شاردين في انتظار أمر يدفع بهم لمسيرة جديدة.
- أرى ذلك، لكنهم سيعودون صدقي.
- متى.
- عندما يتعبون من هذا كله.
- ومتى يتعبون؟.
- لا أحد يعرف، لكنهم سيتعبون بالتأكيد.

- أنظر إلى هذا الخواء، ألا تفهم؟
 - أفهم يا عزيزي، أعرف أن كل شيء يصدمني هنا، لكنه قدرنا، أصمد أرجوك.
 - أنا مدرس ولست جنديا في خندق، هذه ليست جامعة إنها بازار مفتوح.
 - إنها مرحلة خراء وعلينا الصبر.
 - إنهم ينظرون لي بعين اتهام عندما أطلبهم بالبقاء في المدرج وتحصيل العلم.
 - لا تفعل، أرجوك لا تفعل، فقط انتظرهم حتى يتعبوا، ماتفعله قد يكون خطرا.
 - أعرف، أرى ذلك في عيون الطلبة الثوريين الذين يمسون بكل شيء، إنهم يسموني الأميركي.
 - انتبه، إن ذلك ليس جيدا بالتأكيد.
- وهكذا كانت حوارات الأخوين تمضي دون نتيجة مؤكدة، لأنه ما من أحد منهما يملك شيئا في اليد، وفي النهاية استسلم إبراهيم وبالكاد تدبر تأشيرة خروج لمالطا حيث جاءته صديقه الأميركية وتزوجا ومضى في طريقة إلى جامعة بنسلفانيا لتدريس عمارته. تسلم وهاب الشقة والسيارة ليوصل بدوره انتظار الطلبة الذين عادوا أخيرا متعبين وساهمين طوال وقت المحاضرة، وكأن أمانهم وروحهم الفتية قد شاخت تحت قوة العبث الجبارة التي لا ترحم ولا تستكين.
- حضرت مبكرا إلى مقر الرابطة اليوم، صنعت قهوتي بالطريقة التي كان يحبها سوف الوداني قبل أن يمنعه الطبيب من شربها، ملعقتان من السكر تحركان جيدا في الماء لتمتزج به نهائيا ثم ملعقة من البن، وصعدت إلى الطابق الثاني حيث المكتب الذي خصص للمجلة، غرفة

كبيرة محاطة بجاجز زجاجي يفصلها عن الصالة التي كانت يوما تحتضن مناقش الكتاب. البحر متمسك بحدوئه رغم محاولات شهر يناير لإثارته. أتابع المنظر من حين لآخر وأنا أحتسي قهوتي وأتصفح مواضيع العدد الذي تم انجازها حتى الآن. إنه العدد الأول بالشكل والمضمون الجديدين حيث من المقرر أن تصدر المجلة مع نهاية الشهر كما تم الإتفاق بيننا بعد تحضيرات عديدة. على جانبي قرب النافذة جهاز الراديو المفتوح على برنامج صباح الخير يا وطني. المذيع الذي يفعل كل ما بوسعه من أجل إعطاء انطباع أن كل شيء على ما يرام يطرح سؤالاً بصوت مفتعل عن اسم المركز الذي أنشأته الثورة، من أجل توثيق فترة الجهاد ضد الطليان، ويعطي أرقام هواتف البرنامج بنفس الحماس محرضاً المستمعين على الاتصال. أتصفح المواد بحدوء. أغلبها نصوص شعرية وقصصية وبعض المقالات. مشكلة الصحافة في ليبيا أنها تقوم منذ فترة على أكتاف الكتاب بعد انحسار الصناعة الصحفية عقب المداهمات الثورية العديدة، وإلغاء الصحافة الخاصة وتخوين أصحابها ومحاکمتهم علناً في التلفزيون. لذا فإن أغلب المواد تأتي على شكل نصوص وهو ماناقشناه كثيراً وقررنا بذل الجهد في محاولة تغييره ما أمكن. قرأت سريعاً بعض المقالات التي بدت في حالة جيدة وتحمل آراءً خجولة ولكنها تفصح عما تريد وإن مداورة فالحذر واجب. بعض الكتاب الذين اتصلنا بهم رفض فكرة الكتابة بالأساس معتبراً أن هذه المجلة ستكون فخاً آخر لتجميع المارقين ومحاکمتهم من جديد. ركنت بعض النصوص الأدبية جانباً بهدف اقتراح تأجيل نشرها لأعداد قادمة للمحافظة على الطابع الصحفي للمجلة. المذيع يرد على المكالمات التي تحاول الإجابة على السؤال. يحيرني دائماً كم التجاوب من المستمعين في مثل هذه البرامج. الناس تتصل وتكلف نفسها الوقت

والجهد. ربما في محاولة للتواصل أو لإثبات شيء لا أعرفه. الإجابات كلها خطأ حتى الآن. أمسك بموضوع الغلاف الرئيسي الذي اتفقنا عليه، واقترحه مدير التحرير صلاح الكاشف الذي كان ضابطا واستقال في بداية السبعينات. عاش صلاح حياته مستقيما وراكم خبرة في الإدارة مع الكثير من القدرة على الحسم، وهو ماجاء به للمجلة التي تحتاج شخصا ملتزما بالمواعيد، ولحوا ونظيف السمعة حتى وإن لم يتمتع بقدرات تحريرية كبيرة.

موضوع الغلاف يدور حول مشروع عمارات مسكونة منذ سنوات في منطقة طريق المطار. العدد المتفق عليه في العقد كان خمسا وعشرين عمارة وماتم تنفيذه كان أربعة وعشرين. هناك عمارة كاملة بإثني عشر طابقا اختفت ولم ينتبه أحد. قدم الموضوع لنا زميل صحفي اشترط علينا أن ننشره باسم مستعار. قام بزيارة المكان وقضى نصف يوم يتجول في السيارة بحذر كي يتأكد من العدد ثم التقط الصور، وتسلسل خارجا من بين السكان الذين تجمعوا حوله وبدأوا يثونونه شكواهم من كل شيء. الموضوع عبارة عن تحقيق يؤكد الواقعة وخلا من توجيه اتهام لأحد. كان خفيفا ولكن توفر على بعض الخدمات المفقودة التي تضاف إلى اختفاء العمارة، مثل أن بقية العمارات كانت بدون مصاعد بحيث يقضي السكان وقتا صعبا في النزول والصعود لبيوتهم، بدا الأمر طريفا ومأساويا في آن، أجرينا في الأيام التالية لقاءات سريعة معهم بعد أن كلفنا محررا آخر لنشرها بجانب الموضوع الأول مقابل مكافأة مقطوعة، وذهبنا إلى وزارة الاسكان التي نفت أمر العمارة المختفية بشدة ثم عثرنا بصعوبة على محام زودنا بالرأي القانوني شرط عدم ذكر اسمه، وأصبح لدينا تحقيقا جيدا له الصبغة المحلية حتى أننا اقررنا عدم نشر عقد إنشاء الوحدات السكنية، الذي يبين العدد

الكامل لها والذي تحصل عليه صلاح بعلاقاته القديمة حرصا على عدم الاستفزاز، حيث توجد به أسماء لن تسكت ولها القدرة على إحداث أضرار جسيمة. فضلنا أن نقول لهم أننا نعرف ومن حق الناس معرفة ذلك دون الذهاب أبعد من ذلك. المذبح لازال يرد على الهواتف التي لم يوفق أصحابها في العثور على الاسم الحقيقي للمركز وإن اقترب بعضها منه كثيرا، مما دفعه أخيرا إلى حل اللغز تحت ضغط الوقت، كان الاسم هو مركز الجهاد الليبي ضد الغزو الايطالي، الجميع نسي اسم الليبي وهو ما بدا لي محملا بالكثير من الدلالات.

في العاشرة تقريبا سمعت خطوات صلاح الكاشف ثابتة الإيقاع متجهة للدور الثاني وعندما دخل كان بصحبة المخرج وهو زميل قديم من دفعتي في الدورة الوحيدة التي قامت بها مؤسسة الصحافة في الثمانينات. شاب طموح ومحبط في آن مثل الكثيرين، ما إن تلوح فرصة لمطبوعة يستطيع منحها بعض الأفكار التي تعج في رأسه حتى يسارع للانضمام إليها وعندما تتعثر التجربة يعود لإحباطه مجددا، كانا في المطبعة للتمهيد لطبع المجلة. رمى الكاشف سترته وجلس بعد التحية الخاطفة على كرسيه في الزاوية. أعطيته ماتوفر من العدد حيث انشغل مباشرة في تصفحه وجلست مع المخرج لمتابعة العمل حتى الظهر عندما مر وهاب وذهبنا إلى مطعم الشجرة حيث أكلنا وتحدثنا مع بعض الموجودين واتفقنا على اللقاء ثانية في المساء، والذهاب للفندق الكبير حيث سيأتي الوفد المصري للمشاركة في أسبوع ثقافي مرتجل تنظمه مؤسسة الشعب الواحد، وذهبت بدوري لشقة عمار الناهي قرب سوق الرشيد، وجدته مسترخيا على متراس يتصفح كتابا.

الناهي جندي حقيقي قضى عقدا ونصف في العسكرية، وخاض حرب تشاد كاملة وشاهد بعينه الفرقة الأجنبية الفرنسية التي جاءت من

ثكنة ابونيايه بفرنسا، وشارك في القتال في فترة متقدمة وكاد يقع في أسرها. كان الناهي في مقدمة فصيل استطلاع وراقب بالمنظار العرض الاحتفالي الذي قام به جنود الفرقة، تتقدمهم يد قائدهم الخالد الكابتن دانجوغ الخشبية، والذي قتل أثناء حمايته لقافلة في المكسيك العام 1863. كانت اليد مرفوعة على سارية تتبعها لافتة كبيرة مكتوب عليها شعار الفرقة الرهيب (تقدم او مت).

تعرفت على عمار الناهي في إحدى الليالي بفندق باب البحر، عندما رأيته يرقص في البهو على أنغام فرقة كوية كانت تشارك في احتفالات عيد الثورة، لم يكن من ضمن الفرقة وجمهورها في البهو الكبير، ولكنه اختار زاوية صغيرة في الركن وبدأ الرقص غير عابئ بشيء، واستمر في ذلك حتى منتصف الليل عندما انفض عرضه بعد أن جذب جمهورا لا بأس به للفرقة، خرجنا مع بعض، كانت رائحة البوخة تفوح قوية منه، وأمام الفندق خطرت له فكرة مفاجئة عندما تذكر عرسا لأحد معارفه في منطقة بوسليم مصرا على المضي لتكملة الليلة هناك، وهكذا وجدت نفسي بصحبة شاعر معروف جيدا في الوسط الأدبي يرغب في قضاء الليل في تلك المنطقة التي ما إن وصلناها حتى هب العريس لاستقبالنا، وجلسنا مع مجموعة كبيرة متحلقة حول فرقة شعبية يعزف مطربها على الأكورديون ويغني المرسكاوي. كنا نقوم بين وقت وآخر لبيت قريب نتناول فيه بعض الكؤوس صحبة أناس طارئين، ونعود للجلسة نستمع للمرسكاوي، استمر الحال هكذا حتى قرابة الفجر. قرر الناهي العودة إلى شقته مطلقا شتائم متتالية ضد الدنيا، ومعبرا عن حب شغوف لابنته، وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن هذا الرجل الصايع متزوج ومحب لعائلته.

في المساء مر وهاب مجددا وذهبنا ثلاثتنا إلى الفندق حيث، وجدنا الوفد المصري وقد فرغ لتوه من ترتيب أموره ونزل مجموعة منه إلى بهو صالة غدامس، وتحلقت حول عازف عود وشرعت في الغناء في حب مصر ووصف عذاب البعد عنها، وكأنهم لم يصلوا منذ ساعتين فقط! كان الفرح المفتعل يعم المكان صحبة الضحكات العصبية والقيام والقعود مجددا كلما انضم عنصر جديد للجلسة. أشار وهاب لما يحدث هازئا على هذا الحنين الكاذب، ودرنا في المكان وخطر له أن يسأل عن ضيف ضمن الوفد وقيل لنا أنه خرج حالما وصلنا، وهو أمر بعث في وهاب بعض العزاء إذ أنه لم يجده وسط هذه المجموعة النائية. جلسنا بعيدا في الصالة الجانبية المطلة على طريق الكورنيش وطلبنا مشاريب وبقينا حتى المساء ناسين الهدف الذي جئنا من أجله، بعد أن انهمكنا في أحاديثنا الخاصة قبل أن نخرج متجهين نحو ورشة ناصر ديهوم.

الورشة

في طرابلس حيث تنعدم تقريبا وسائل الترفيه وأماكن الإلتقاء بالأصدقاء ليلا تعتبر ورشة ناصر ديهوم رحمة من السماء. تقع الورشة في أول سوق الثلاثاء حيث المنطقة الصناعية وتجار الجملة من ناحية قاعة الشعب على حافة الطريق، وهي ورشة صغيرة نسبيا مخصصة لتصليح كهرباء السيارات ورثها ناصر عن أبيه الذي توفي فجأة، بينما كان يكافح من أجل إثبات ملكيته لها أوان الزحف الكبير على المتاجر. بقيت الورشة مقفلة سنوات طويلة قبل أن يتمكن ناصر ديهوم من فتحها مجددا بعد أصبح الصباح، حيث جلب فنيا مصريا لطيف المعشر للعمل ومشاركتنا جلساتنا في بعض الأحيان. توجد فسحة في الوسط

تجلب لها كراسي بلاستيكية تبقى مخفية في النهار، ويحيط بالمكان الصغير أدوات العمل المختلفة من أجهزة صغيرة وروافع ومصابيح وماشابه، بينما علق على الجدران مفاتيح عديدة مرتبة حسب التدرج في الحجم. الأرضية من الاسفلت القاسي وتتوسط الكراسي طاولة منهكة تحمل نهارا جزءا من العدة، وتسحب ليلا ليوضع فوقها ما يحضره القادمون للسهرة من أكل وشرب وكتب ومطبوعات. كنا قد مررنا في طريقنا على شارع مهجور في قرجي الخلفية حيث اشترينا كيسين من البوخة، وجلبنا بعض السندويشات ومضينا إلى الورشة تحت مطر كثيف، إلتقينا ناصر ديهوم وسوف الوداني وصلاح الكاشف في المساحة الصغيرة وسط الورشة وأمامهم قنينة مياه ممتلئة إلى المنتصف بماء البوخة الشفاف الشبيه بالماء العادي والفودكا، وكأس الشاي الصغيرة مملوءة حتى الثلث بالإضافة إلى فول سوداني ورقائق بطاطا.

منذ أن فقدت عملي نشأ بيني وبين وهاب والناهي إتفاق ضمني بعدم دفعي لأي نصيب في الجلسة ماداما حاضرين، وبعد عدة كؤوس بدأت وتيرة الحديث في الاستمرار وكان الحدث الرئيسي هو أسبوع المصريين الثقافي السياسي وأسماء المشاركين فيه. روى وهاب بطريقته الساخرة مشهد الغناء والحين الذي كان ينثال من الجلسة حول قسوة الغربة عن أم الدنيا بعد ساعتين من مغادرتها، ثم انتقل الحديث عن العدد الأول من المجلة وموضوعاته وإلى أين وصلت الأمور في الطباعة، قبل أن يلتحق بنا خليفة ذهب المحرر الثالث في فريق طرابلس التابع للمجلة ونسميه أيضا الممول لأنه عادة يجلب معه قطعة حشيش لزوم السهرة، ولقب ذهب أيضا من اختراعنا ومقصود استخدامه على الورشة فقط فهو سليل عائلة طرابلسية شهيرة احترفت تجارة الذهب منذ زمن بعيد، وعندما بدأ الزحف الثوري على التجارة منتصف

السبعينات فرغ والده محتويات المتجر الذي يقع في سوق الترك، وخبأها في أماكن آمنة متفرقة واستمر في سحب قطعة من هنا أو هناك وصرفها على أمور عائلته، قبل أن يقسم ثروته العينية بين ولديه وأختهما ليستمر في نفس الطريق، ولذا لم يحتج خليفة للعمل في الدولة بعد تخرجه من كلية الآداب بينغازي، وعاد إلى طرابلس متفرغا للقيام بأعمال تجارية، وكتابة القصة القصيرة التي برع فيها رغم قلة ما ينشره حيث تتناول قصصه مواضيع تشتمل على مفارقات الحضر والمضر في ليبيا، وتغير القيم وتحتوي على قدر وافر من السخرية المبطنة وروح التمرد. اكتسب الحذر مما حدث للعائلة وتصنيفه ككاتب برجوازي تتابعه العين الثورية، وفي نفس الوقت كان به ميل شديد للحياة والانطلاق والصحة والسهر وكثرة الأسفار، ولهذا قد يبدو غير متوازن تماما لمن لا يعرفه وعلى قدر كبير من الغموض ودائما على وشك اتخاذ قرار مفاجئ، كما حدث عندما طلب بنفسه أن يكون ضمن فريق المجلة التي اعتبرها الكثيرون فخا مؤقتا لتجميع العصاة.

في عشية اليوم التالي عدت ووهاب للفندق الكبير وهناك قمنا بجولة سريعة مسلمين على البعض، كما حضرنا جزءا من الندوة، ثم خرجنا نرتاح في هـو القاعة ندخن ونراقب الحضور الذي كان كوكبـلا متنوعا من الفن والسياسة والصحافة، عندما مر من جانبنا صف مكون من سامي شرف ومحمد فوزي واحمد حمروش، وأحد الفنانين الذي أصبح عضوا في مجلس الشعب كأهم في عرض عسكري مال وهاب علي وقال:

هؤلاء ليسوا قادرين على تدمير بلد واحد فقط، إن في استطاعتهم تدمير أمة بحالها في زمن قياسي.

أمضي في المركز بروح تتقدم للامام، مصرة على عدم العودة،
أعرف كل يوم على أشياء صغيرة، محاولا التمهّل حتى لا أكتشف كل
شيء وأعود للدوران في الفراغ داخل هذا المكان الصغير، توطدت
علاقتي بعالية وصرنا نخرج مع بعض نتجول في الغابة الصغيرة القريبة،
ونصعد البرج الخشبي حيث تخرج هي كراستها وتبدأ في وضع
تخطيطات للمنظر. ترسم بطريقة مدرسية تقليدية مع مساحة عفوية
تعطي لخطوطها حميمية دافئة يزيدها عدم وجود الألوان قربا من
النفس. ليست رسامة بالتأكيد لكنها تتصرف كأنها كذلك مما يدفعني
لتصديقها مرات كثيرة. نتمشى تحت المطر الخفيف وعندما يشتد نعود
لمسرعين للمركز حيث يتابع كلا منا يومه منفردا، قبل أن نلتقي أحيانا
في غرفة الحبر وجو اللذين عرفتي عليهما. الحبر يعزف على الجيتار وهو
من عائلة سودانية شمالية معروفة، ومنها مطرب شهير قالت إنه يلعب
بأبوقلم، وعندما سألتها عن معنى ذلك أجابت بأن حضور حفلاته
عندما يشتد بهم الطرب يقذفون تحاهه بالأقلام، وجون سوداني
جنوبي يكاد لا يتوقف عن الرقص. يتحرك بخفة وهدوء في المسافة
الصغيرة بين الأسرة الأربعة الموجودة في الغرفة. يقطن معهما أفغانيان
مرحان. مصطفى المدرس الذي سبقته زوجته التي تحصلت على لجوء
وبيت وينتظر لم شمله بها، وآخر لم أعرف اسمه بعد لا يتقن اية لغة ولكنه
يتواصل معنا عندما يكون حاضرا بكلمة واحدة: خراب.. خراب.
يردها وهو يضحك حتى تهتز قصته المصفوفة يمينا والمسفرة عن جبهة
قوية فوق حاجبين كثين. الأفغانيان عادة يكونان خارج الغرفة ليلا
عندما آتي للعب كونكان أو سهرة مع بوهدى وأبوآثار ولا أجدهما،
وفي القاطع الثالث ذاته تعرفت على مجموعة شباب من زنجبار. هادئون

ويتصرفون بفطرة وصدق. يوسف ومالك وزكريا الذي يبدو شيخا صغيرا ورعا يحظى باحترام رفاقه بشكل ظاهر.

التحقت أيضا بدرس أسبوعي لتعلم اللغة الهولندية بناء على اقتراح بوهدى. استيقظت أمس في التاسعة وجهزت نفسي وذهبنا إلى المبنى الإداري المقابل حيث مكان الدرس. الأستاذ متطوع يأتي من مدينة اوترخت. ضخّم الجسد وتمعّل الخطوات ومتوطن على الصبر. لم ينس بوهدى أن يميل علي بعد دقائق من الدرس ليخبرني أنه اكتشف بأن اللغة الهولندية متشابهة جدا مع اللغة المجرية. طبعاً لم أعره انتباهها جادا لأني أعرف بأن العالم بالنسبة له بلاد واحدة اسمها المجر، وعندما خرجنا في منتصف النهار وجدنا بوآثار وهو يقود فريقه لشيت سياج بجانب الممر الرئيسي. كان منهمكا في إعطاء الأوامر وكأنه يقود كتيبة حربية. حيناه سريعا واتفقنا على لقاء ليلي ومضينا نحو غرفة بوهدى التي كانت خالية، حيث تصفحنا بضعة أعداد من جريدة نضال الشعب التي يصدرها الحزب الشيوعي، ويتكفل الرفيق بوعدنان بإيصالها له مرتين في الأسبوع. كان بوهدى يتصفح جريدته بشيء من العرفان والقدسية وبشعور الارتباط بجسم يعنيه في هذا العالم. جسد يرتبط معه بخيط دقيق مهما حصل وأينما كان، وهي تعزية لا يستهان بها في عالم تسكنه الوحدة ويتطلب توضّحات عديدة. أولها فقدان الاستقرار والاستعداد للتفرّق حالما يتم التجمع. يأتي بوعدنان كل ثلاثة أيام بدراجته الصينية إلى المركز، حيث يكون بوهدى في انتظاره كل مرة، حاملا حقيته الصغيرة حيث يدس فيها الجريدة أو ما توفر من بيانات وأخبار، ويبقى لمدة ساعة أو أكثر يتبادل مع بوهدى أخبار الرفاق والحزب والعراق واللجوء وما يستجد من أحداث. أحيانا أظل معهما وأحيانا أخرى أمضي في حالي مستكشفا بقية يومي على مهل.

لمحت جون النيجيري وهو يعبر باتجاه الشارع، قاطعته وحبيته
وسأله عن الساعة. إنها الرابعة والنصف. أجاب وسار في طريقه يدفع
جسده الضخم بتأن. يسكن جون الضخم في القاطع السادس بجانب
المطعم مباشرة حيث يوجد أيضا ثلاثة أو أربعة نيجيريين أحدهم يقطن
مع زوجته التي تعمل على تصفيف شعر النساء داخل الغرفة. جون
يذاوم على التواجد في المقهى للعب التنس أغلب وقته، فهو لاعب ماهر
يبقى على الطاولة كفائز بينما يتغير اللاعبون. رفيق جون في الغرفة
يرابط دائما بجانب كشك الهاتف في مدخل المركز. يبيع بطاقات
اتصال الهاتف لمن يرغب في إجراء مكالمة طويلة مع عائلته في الوطن.
اكتشف مبكرا بطاقة هاتفية يمكن معاودة الاتصال بها من خلال
الكشك الواقع على حافة بوابة المركز. يقف هناك مساء متدثرا بمعطفه
المطري منتظرا زبائنه. يطلب منك الانتظار خارجا بعد أن يأخذ منك
الرقم ويدخل للكشك وبعد لحظات يخرج ويترك لك الهاتف العمومي،
ويتفرغ للنظر في ساعته لحساب الدقائق قبل أن يطرق عليك الباب
منبها إلى أن وقتك قد انتهى. أبوآثار هو من كشف لي وجود مثل هذه
البطاقة الهاتفية وأخبرني بأنه بالإمكان شراؤها من محلات المدينة دون
الاضطرار لطلب الخدمة من الآخرين. يربح النيجيري بضعة خلطات
إضافية تختلف باختلاف زمن المكالمات ومكانها، والمعلومة مهما بدت
صغيرة فإنها مهمة حتى على هذا المستوى، فأغلب قاطني المركز جاءوا
من بلدان لا تتوفر فيها مثل هذه الخدمات، وزميل جون يعرف ذلك.
بدا لي الجهد المبذول تحت المطر والانتظار ومداومة الاتصال بالرقم الآلي
الخاص بهذه الخدمة أمر متعب وأن النيجيري يتكسب من عرقه بالفعل.
إنها الرابعة والنصف وموعدي مع مصطفى في الخامسة. الجو مغيم
وظلمة الليل تزحف ببطء وثقة على المكان. أمس ظهرا وبينما كنت

أدخن خارج القاطع وقف شاب بشعر مجعد يرتدي ملابس الجينز وحذاء رياضية ماركة اديداس يكاد يبلى من كثرة الاستخدام. سألني بالإنجليزية إذا كنت أعرف شبابا مغاربة هنا، ومع الحديث عرفت أن اسمه مصطفى وأنه من بدون الكويت ومن أصل عراقي بعيد، وكنت قد عرفت أن هناك شبابا في مثل وضعه يقطنون بين القاطع الأول والثاني. انقطعت بهم السبل بعد غزو عراق صدام حسين للكويت وانعكس ذلك سلبا عليهم خاصة أنهم لا يحوزون على الجنسية، ومع بدء موجات الهجرة للغرب بدأوا في هجرة جماعية حطت ببعضهم في هذا المركز. سألني مصطفى مباشرة إذا ما كنت أعرف مكانا يبيع الحشيش أو المارغوانا، وعندما أجبتة بالنفي وأنا على شيء من الحذر رد بأنه يعرف وسوف نلتقي غدا بعد أن يتدبر الأمر. بدا لي منطق غير متماسك ولكن قدرت أنه يبحث فقط عن سلوى ورفقة فالكويت كما يسمون هنا أغلبهم محافظ فيما يخص الحشيش، ويقتصر بعضهم على شرب الكحول. كنت قد تحدثت مع الخبر أثناء سهراتنا في غرفته حول موضوع الحشيش مستغربا عدم ملاحظتي له رغم أن هولندا بلد يسمح ببيعه، وتناوله في أماكن مخصصة لذلك ولكنه أبدى أيضا عدم معرفته بهذه الأماكن، وإن أكد لي أنه يشم بين الوقت والآخر روائح يشك أنها للحشيش عندما يخرج ليلا من الغرفة لسبب ما.

كنت في داخلي متطلعا لموعد مصطفى فقد مر علي أسابيع هنا ولم أحظ بنفس واحد من الحشيش. كنت قد دربت نفسي على التوقف قبل أن أغادر طرابلس بستة أشهر تخفيفا لأية ضغوط مستقبلية، كما فعلت أيضا مع السجائر التي خففت منها لأقصى حد استعدادا لمرحلة جديدة، فبعد سنتين من شرائي لتذكرة سفر إلى هولندا سنحت الفرصة لي فجأة للحصول على تأشيرة دخول إليها بعد أن كانت

متوقفة، وخلال هذه المدة التي كنت قد قررت فيها المغادرة بدأت في تنظيم حياتي قدر المستطاع. لم يكن عندي أمل أكيد بأن التأشيرات ستفتح من جديد ولكن احتفظت بالذاكرة كتميمة أعالج بها عطش روحي، التي كنت أراقبها وهي تذبل أمامي بينما الحياة تسير في مكان آخر.

جاءت الساعة الخامسة ولم يأت مصطفى. الجو بدأ يبرد ومطر خفيف مستمر في النزول، والمرحال إلا من الذاهبين إلى والراجعين من المطعم. يمرون سريعاً وهو يتبادلون التحيات الخاطفة. قررت بدوري تناول العشاء فذهبت للغرفة التي صرت أخف من ترددي عليها، حيث تناولت صحي وملعقي وكوبي وانضمت لطابور الأكل، وبعد دقائق ثقيلة اكتشفت أنني نسيت تذكرة الأكل فعدت ثانية للغرفة وما كدت أدخل حتى طرق مصطفى الباب. خرجنا لمقدمة القاطع وأخبرني بأنه يحمل لفافتين من المارغوانا. انتابني رعدة خفيفة اختلطت فيها الإثارة بالرغبة بالخوف، وسرعان ما خيبت أمل مصطفى:

- اوه عظيم، كم ثمن الواحدة.

- يامعود شنو هالكلام اللي ميسوى.

أصررت على سؤاله وأصر على جوابه. كانت خطته أن ندخن معا ولكني تعذرت بأسباب اخترعتها للتو حتى أتحصل على لفافة تخصني كي أدخنها بنفسى، لأننى توقفت مدة طويلة عن التدخين ولم يسبق لى أن دخنت مارغوانا. لأعرف نوع مزاجها وأصابني هذا بالحذر، وبشيء من التأفف ناولني مصطفى لفافتي وذهب يدمدم دون أن يأخذ الخلدات الخمسة التي مددتها باتجاهه. شعرت بنذالة موقفي وتذكرت كلام يحيى من أن الحشيش يعلم الإنسان الخنس والحسابات المركبة.

ولتغيير الجو قررت المرور على غرفة بوجود بعد أن دسست اللفافة في جيبي الداخلي بحرص. لم يكن في الغرفة ولكني وجدت شيركوه وحسين وكاظم منهمكين في فتح علبة صويا بسكين قصاصة أظافر. كان حسين يقوم بالفتح وشيركوه يمسك بصحن منحني باتجاه الأرضية وكاظم يوزع مايشبه الملاحظات، وبعد أن تمكن حسين من فتح العلبة دار حديث قصير حول ما يتوجب عمله بماء الصويا الذي في العلبة وقبل أن يتفقوا أمسك شيركوه العلبة، وذهب يرافقه كاظم إلى الحمام المقابل ثم عاد وكاظم لازال وراءه متلهفا وسكب المحتوى في الصحن. كنت أتابع هذه العملية بمزيج من الفضول وعدم القدرة على اتخاذ القرار بالخروج من الغرفة، أخذ كل منهم صحنه ووزعوا الصويا بينهم بالتساوي، بعد أن اعتذرت عن الأكل، وأخذوا في أكلها وكأنها تحلية مابعد العشاء. عصرت قلبي على هذا المشهد الذي يبدو فيه الشعب الذي كان يفطر على اللحم وهو يلتهم فول الصويا النيء وكأنه مكسرات.

خرجت من عندهم وأنا حائر أين يمكنني تدخين لفافتي التي ابتليت بها. كنت أفكر بسرعة أنستني أن التدخين مسموح به في هذا البلد. انتابتي مجموعة تصورات مرعبة تنتهي جميعها بترحيلي مجددا إلى ليبيا، لأنني أخللت بالقانون وأوهمت السلطات بأني صاحب قضية وطريد رأي، بينما قبض علي وأنا أدخن المارغوانا. تذكرت أيضا أني جائع ولم أتعش بعد ولكن لم أذهب للمطعم الذي كان على وشك الإقفال. قصدت القاطع الثاني حيث قال مصطفى إنه يقيم وتجولت في الممر لعلني أجده وأطلب منه مشاركتي ولكن لم أجده فعدت ثانية أتمشى على غير هدى حتى خطر على بالي أن ادخلها في الحمام، فتحركت فوراً إلى قاطعي ودخلت الحمام وبعد تردد قصير أخرجت

السيجارة المحشوة التي أصبحت متعركة منشية تكاد تنكسر، وأشعلتها ليخرج ما يشبه البخور القوي وسحبت منها بجذر، ثم يتمهل ثم بعمق، وبدأت أحاسيس قديمة تعود إلى دماغي ولكن بشكل قوي وكاسح وسريع.

كانت طويلة وسمينة وغير ما تعودنا تدخينه في ليبيا شكلا ومضمونا، فهناك كنا نستمتع في ورشة ناصر بجلسات التدخين حيث يقوم أحدها بتفتيت قطعة الحشيش، وآخر يفرغ السجائر من التبغ ثم يخلط هذا وذاك بمقادير صار متعارف عليها، وتمرر السيجارة على الجميع بأنفاس تكاد تكون متساوية. لكن هذه اللفافة اللينة تشبه مانراه في الأفلام المصرية وتلك التي دخناها أنا ووهاب وخليفة صحبة أصدقاء مصريين في بيت آيل للسقوط ببولاقي. بل حتى تلك اللفافات تشبه هذه في الشكل فقط، أما الحشوة فتلك كانت من البانغو، استمرت في سحب الأنفاس تحت هذه الهواجس والتذكريات المصاحبة وأنا مرعوب من دخول أحدهم المكان، والقيام بالإبلاغ عني، ومن هذا التداعي أذهب بعيدا في التصورات مجددا دون النجاح في كبح جماح خيالي الذي تمكنت منه المارغوانا حتى وأنا لم أكمل لفافتي بعد، وعندما سيطر الدخان والرائحة على المكان قررت القذف بالثلث الأخير منها إلى المرحاض وأشد دافع الماء عليها. ظللت أراقبها حتى اختفت لأشعر ببعض الراحة لموت هذا العدو الذي ورطت نفسي في الاشتباك معه. بعد ذلك وقفت ساهما للحظات أذكر أين أنا وما الذي كنت أفعله وتداعى خيالي إلى تلك الليلة التي دخلت فيها بقالة بجانب الفندق في الدار البيضاء، عندما أعطاني البائع الشاب قطعة حشيش صغيرة خضراء زيتية اللون كهديّة على البيعة، لأبقى بعد تدخينها طوال الليل هائما بجانب مكتب الاستقبال مفكرا هل علي الصعود للغرفة حيث دخت،

أم أخرج للتجوال والاختلاط بالناس لتبديد شمل هذه القوة التي احتلت رأسى.

تمالكت مابقي منى وخرجت أمشي على الإسفنج مفكرا بصعوبة وسط التداعيات بالخطوة القادمة. تمشيت في الممر الرئيسي متجنباً الدخول في أي حديث مع القلة التي كانت تخرج وتدخل للقواطع، محاولاً التماسك وسارداً في سري كل المعلومات الشخصية التي تؤكد من أنا وماذا أفعل هنا، وعندما تأكدت من هويتي والمكان الذي أنا فيه ثبت ذلك في رأسى. بدا لي الذهاب للغرفة الآن حلاً مثالياً لولا السيدة بوتو وزوجها وأخوها القليل ونواز شريف، وعلى حين غفلة تذكرت بوهدى لتنتفح أمامي بوابة للنجاة من هذه البارانويا المتداخلة، وانتعشت نفسي جراء المطر الخفيف وأخذت في السير نحو القاطع الثالث دون أن أتوقف عن خوض معركة خاصة وسرية بتحري في داخلي، لتذكير نفسي بهدي الذي بدا لي بعيد المنال وسط التشوشات المتلاحقة، وما إن وصلت وتمكنت من طرق الباب حتى أطل بوهدى الذي رأيته كائناً مربعاً بعينين جاحظتين تنظران لي بشماتة وخبث مما أشعرنى بالغثيان. قاومت المصير البائس التي تقود إليه المارغوانا في رأسى، وحييت بوهدى بصعوبة فانفلت بالضحك:

- ولك يجرب عرضك، وجهك مثل الليمونة شو عامل..

أخذت نفساً عميقاً محاولاً طرد شعور كثيف بالكراهية تجاهه. حاصرني في تلك اللحظة قبل أن أخبره بكلمات متقطعة عن ماحدث.

سحبني إلى داخل الغرفة الخالية لحسن الحظ وهو يهتز من الضحك، وألقى بي على سريره وخفض من صوت التلفزيون.

- حيا الله خونا الليبي فتي الصحاري.

ناولني سريعا كوب شاي جرعت منه بصعوبة فأحسست بطعم
الدنيا من جديد، وراقبته للحظة وهو يضحك فانتقلت لي العدوى وبدا
ينكشف لي تحت قوة الضحك غباء العملية كلها، وتذكرت أن
مادخنته مجرد لفافة مارغوانا وأن علي الصمود حتى أجتاز هذه المحنة
بسلام، وهو ماحدث بعد ساعة أو يزيد فاعتذرت منه بلطف، وعدت
لغرفتي منتشيا وعلى بعض الخجل وجائعا جدا. الواقع اشعر بالجوع ليلا
منذ أتيت إلى هنا، فعادة أفطر في الغداء وأتغدى في المغرب ثم أجوع
ليلا في الغرفة، ولكسلي وقلة المال لم أستطع معالجة هذا الوضع إلا
ببعض حبات بسكويت أو كسرة خبز موجودة بالصدفة. كانت الغرفة
ساكنة ورفاقي نائمون، فتحت التلفزيون، وخفضت الصوت ثم بعد
دقائق أقفلته من جديد مكتفيا بإطلاق خيالي على حصان الكيف في
غارات مفاجئة داخل الذاكرة هنا وهناك. ألداعى كل مرة بعيدا قبل
كبح الجراح عائدا لنقطة البداية لأسلك طريقا جديدا، ثم هويت في
نوم عميق وساكن لم أذق مثله منذ زمن...

استيقظت في التاسعة نشيطا وهادئا وبقيت تحت الغطاء أتفكر في
ليلة البارحة. كانت الغرفة خالية فأخذت راحتي في التمطط
والاستمتاع باللحظة في انتظار أن تخف الرجل على الحمامات. أخذت
أفكر في سبب اختياري للحمام لأشعل لفافتي تلك. كان داخلي
يضحك علي وأنا أمرر التفاصيل مرة أخرى أمام ذاكرتي، وبدا لي أن
الموضوع جدير بالتأمل، فالحمام هو المكان الذي نكون فيه منفردين مع
أنفسنا بشكل حقيقي، فمارس طقوسا ونقضي حاجات لا يراها أحد،
وفي كل مراحل عمرنا تكون لنا علاقة مميزة بهذا المكان، وليس
مصادفة أن تمتليء مراحيض المدارس والأماكن العامة بتلك الكتابات
والرسومات الخليعة، التي تعبر عن مكنونات جامعة لا يمكن التصريح بها

أمام الآخرين. استعرضت على السرير بعض محاضري مما شاهدته في حمامات ومراحيض مختلفة، وفي أماكن متفرقة والكتب التي قرأتها وأنا أتغوط داخلها، وبدأت لي الآن جديرة بالدراسة المعمقة وبكتاب مثل كتاب عبدالكبير الخطيبي الاسم الجريح، الذي استعرت من عمار الناهي، ويتحدث عن الوشم ودلالاته في البيئة العربية والأمازيغية على ما أذكر.

بعد أن سمعت صوت عامل النظافة يخرج نفضت متناولا منشفتي وصابونتي ومعجوني، وانسللت سريعا حتى أخذت دوشا على مهل مستمتعا بالماء الساخن والمكان النظيف نسبيا، فرشيت أسناني وحلقت ذقني فانتابني شعور عام بالنظافة والتجدد، وعندما عدت للغرفة وجدت ثلاثة من الباكستانيين يتابعون السي ان ان ويتحدثون حول مايجري في بلادهم، حيثهم برود وخرجت عازما على أن اضع حدا بأسرع مايمكن لهذه الفوضى، كان موعد مقابلي مع موظف وزارة العدل بعد أيام وأحتاج لبعض الخلوة لإعداد قصتي، خاصة وأني اعتذرت عن قبول مساعدة ابوآثار الذي عرض تأليف قصة مناسبة لي، وتحت ضغوطتي الخاصة تعكر مزاجي فجأة وعدت للغرفة لأجد أن المجموعة زادت واللغط في ذروته، فلم أتمكن من كتف غضبي واتجهت مباشرة للتلفزيون وأغلقتة فبهت الحاضرون من هذا التصرف غير أني قررت المواصلة وبدأت خطبة مرتجلة بخليط من اللغات:

من بناظير هذه التي تتحدثون عنها يوميا وفي كل وقت في هذه الغرفة الحقيرة؟، ماذا فعلت لكم؟، أليست هي من تسبب في مقتل أخيها مرتضى؟، أليست هي من زادت معدلات الفساد بوتيرة سريعة في عهدنا الميمون؟، وهل ما عندكم تسمونه اقتصادا؟!، ماذا فعلت من أجلكم ايها المغفلون؟، لقد فاض بي الكيل ولا أريد أن أسمع اسم

هذه المرأة مرة أخرى هنا، ثم أشرت لمن هم من خارج الغرفة وسألتهم: أليس عندكم غرف خاصة بكم؟ لماذا لا تحترمون خصوصية الآخرين وتتركوهم يدبرون أمورهم في هذا الوقت العصيب.

وواصلت على هذا المنوال خالطا الإنجليزي بالعربي مضمنا حديثي نتفا من الأوردو تعلمتها منهم وهم فاتحين أعينهم وفالدين المبادرة، ثم قذفت بأدواتي على الطاولة، واتجهت صوب الباب فاعترضني المهندس شاكير محاولا تهدئي، ولكني رفضت ذلك وأجبتة بأني لا أريد الحديث معه ولا مع غيره واستمررت في طريقي نحو الخارج غير عابئة بشيء.

جلست أمام القاطع على كرسي الحديقة الأخضر متنفسا بعمق، وشاعرا ببعض الراحة بعد أن فرغت شحنة غيظي. كانت الشمس تطل خجولة من خلف الغيوم ولفحة برد تلسع وجهي وتتجه نحو أسناني، وبعد وقت قصير لحق بي شاكير ثانية وأصر على الحديث معي، وما إن بدأت أتكلم معه حتى خالطني شعور عميق بالذنب. صحيح أن الإقامة في غرفة بهذا الشكل يتحول إلى عذاب يومي وسط جو يحيط به الضيق والجهول من كل جهة، لكن ذلك لا يبرر التصرف الذي قمت به. كنت أفقد حماسي وفضولي اللذين صاحباني الأيام الأولى هنا، وحل محلهما نوع من التوتر الخفي الكامن والمستعد للانقضاض عندما تتوفر الفرصة. اعتذرت عن حماقتي فطيب شاكير خاطري واقترح علي أن يتدبر أمر نقلي للغرفة المجاورة، فهناك بها صديق له يرغب في الانتقال لغرفتي، شاب اسمه طارق تعرفت عليه عن طريق الشيخ زكريا الذي قال لي أنه عمه. بدا لي العرض معقولا ووافقت دون تفكير واعتذرت ثانية عن شططي فتقبل الأمر بلياقة وهكذا حلت المشكلة على غير توقع وتخطيط.

قبل الغداء كنت قد نقلت متاعى البسيط لسريري الجديد الذي يقع مباشرة خلف الباب من جهة اليمين. تعرفت على رفاقي الجدد: زاد من كردستان وسعيد من أفغانستان، ورغم أنها كانت غرفة تشكو علنا من قلة النظافة لكنها بدت لي أكثر اتساعاً لأنها مخصصة لثلاثة أشخاص فقط، وهكذا ذهبت للغداء بعد أن أقدمت على أول تغيير في حياتي الجديدة...

التقيت بوهدي في المكتبة وأخبرته بالتغيير الذي حصل وقرأنا جريدة الحياة بعد أن انتظرنا دورنا كالعادة، ثم أخبرني بأي مدعو الليلة إلى حفلة في القاطع الرابع عند حيدر العراقي، الذي حصل على اللجوء السياسي أمس. لم أصدق بداية ولكنه أكد لي الخبر وهو يشير بما معناه أن لا تستغرب وعليك بالصبر،

حيدر شاب من جنوب العراق لم يبلغ العشرين بعد. ظل يلح على ابوآثار أن يؤلف له قصة سياسية، لكن ابوآثار كان متردداً، فعمر حيدر لم يكن يسمح بهكذا نوع من القصص، إذ ماذا يمكن لشخص دون العشرين لا يقرأ ولا يكتب أن يفعل في عالم السياسة. الحاح حيدر دفع ابوآثار لأن يؤلف له ماخطر بباله في التو عندما كان يلعب الكونكان. كانت القصة تقوم على أن حيدر عاش في قبو البيت لمدة خمس سنوات، متخفياً تحت صندوق من الكرتون به فتحتان تساعدان على التنفس والرؤية.

يا با قلهم أنا "مشفة" شي، أنا مثل المعري، هو أعمى وأنا حبيس الصندوق ولهذا السبب فحياته لا تسمح له بالتحدث طويلاً حول أحداث شهداها العراق في ذلك الوقت.

لاشك أن ابوآثار كان حانقاً وعلى غير عادته في السبك، وراغباً فقط في التخلص من هذا الإلحاح ولكن لم تشاركه وزارة العدل في

هذا المزاج الساخر من العملية برمتها، ومنحت حيدر حق اللجوء السياسي والدليل أننا من المدعويين هذه الليلة في الحفلة التي يقيمها بهذا الخصوص.

هبط الليل ومررت على غرفة بوهدى والتحق بنا ابوآثار وذهبنا معا إلى القاطع الرابع نحو غرفة حيدر الذي يقيم مع أخوين أكبر منه سنا. وجدنا الغرفة تعج بالحضور الجالسين على الكراسي المصفوفة على الجوانب. بعضهم كان على الأسرة التي استخدمت أيضا أماكن للجلوس. لمحت بعض المعارف ووجوها أخرى أراها لأول مرة، وبدأ لي ذلك غريبا فرغم تجاوزي الشهر هنا لازالت هناك وجوه جديدة علي، وبما أننا من جماعة ابوآثار وسع لنا فورا في المجلس وتقدمنا مزهوا إلى صدر المكان، وجلس وهو يرد التحيات المنهمرة عليه بوضع يده على صدره وخفضها في كل مرة، وجلست وأبوهدى بجواره مثل وزيرين يحيطان بالملك، وأدركت فورا أن النظرات ترمقني وتعيد النظر في مكاني قبل أن أدخل مع ابوآثار، وأحسست أنني ارتقيت درجة في الأهمية لمجرد أنني بصحبة رجلين لهما سمعتهما في هذا المكان. أبوهدى بتاريخه العسكري ومقاومته للسلطات وابوآثار بشخصيته العابرة للحواجز وأفضاله في تأليف القصص التي لا تخيب.

عندما دخلنا كان صوت كاظم الساهر يلعلع في المكان بلحنه الحزين التكلف وما إن أشار ابوآثار حتى تم تخفيض الصوت فورا، ونظر لي نظرة فهمت منها أن ذلك خدمة خاصة يؤديها لي لمعرفة بآني لا أحب هذا المطرب، فشكرته بوضع يدي على صدري سريعا كي لا يلاحظ الآخرون، متجنبنا الطعن في ذوقي الفني في مقبل الأيام. قام شقيقا غسان بواجب الضيافة ووزعا الشاي والمكسرات وبعض السندويشات الخفيفة. الأخوان تحصلا على لجوء انساني وهو أقل درجة

من لجوء غسان في مفارقة من مفارقات اللجوء، وبدا عليهما نوع من الخجل بسبب ذلك. غادرنا الغرفة ونحن نعلق على الحادثة وقصة حيدر التي ألفت على عجل، وكيف كان بريفاً حتى أننا شككنا أنه يدرك ماحدث له وذهبنا لغرفة ابوأثار للعب الكونكان.

في طريق عودتي وجدت عالية عند باب قاطعها ترتدي معطفاً ثقيلاً على بيجامة النوم تراقب، وما إن لمحتني حتى قالت بشبه الهمس:

- وينك يالبيبي، طليت ادور عليك من بدري.

وقبل أن أجيب أشارت لي بأنها ستبقي الباب مفتوحاً وعلي الدخول بعدها بقليل. انتابني بعض الارتباك بعد انسحابها ثم لممت نفسي ودخلت بحذر. كانت وحدها وأخبرتني أن شريكها في الغرفة ستقضي الليلة خارج المركز. قدمت لي كرسيًا وجلست مقابلها. كانت الغرفة معطرة بالبخور ويسري فيها صوت غناء قدرت أنه أتيوبي منخفض الصوت، وبدأت عالية ببشرتها البنية وقميص بيجامتها المفتوح من فوق ومفترق لهدايا الصغيرين اللذان يطلان باستفزاز. كانت قد نزعَت ضفائرها الصناعية وبدأت خلابة بشعرها القصير الغلmani، ووجهها المدور وغمازة ذقنها المحفورة مثل طاقة صغيرة تشير إلى منبع اللذة، وساد الصمت للحظات خمن فيها كلاً ما يدور في خاطر الثاني. كنت قد حاولت في الأيام السابقة أن أُلطفها ببعض اللمسات والتحرشات الخفيفة، ولكن لم أر تجاوباً صريحاً فككفت مستمتعا بالرفقة والأحاديث، مدت يدها إلى الطاولة ساحبة حافظه الشاي وسكبت قدهين، ثم أخرجت من تحت مخدعها لفافة بيضاء طويلة ومدتها نحوي، ترددت للحظات وكأنها عرفت مايدور بخاطري. أخبرتني بأنه حشيش. قالت ذلك مبتسمة وكأنها تعرف بمغامرة البارحة. سحبت نفساً ببطء وأنا أزرع في داخلي استعداداً

راسخا للذهاب في هذه الرحلة إلى محطتها النهائية، التي تريد أخذي إليها عالية فهي المضيف والربان، وصاحبة الخطة وما أنا إلا المنقاد. أعدت السيجارة إليها فسحبت منها بعمق وتلذذ مغمضة عينيها وكأنها تشرع في رحلة. شربنا رشقات من الشاي وأعدنا الكرة مع السيجارة المحشوة عدة مرات حتى استوينا. امتلأنا بالموسيقى والغناء مغمورين برائحة البخور، بعد برهة فتحت عينيها الصغيرتين وسهمت للحظات ثم ضحكت بصوت خافت ودققت النظر في وكأنها ستب قائلة:

- شنو يابطل
- شنو شنو؟
- كيف المزاج معك؟
- أهجة.

وبعد هذه الكلمات المشحونة التي خرجت منا بصعوبة تحت تأثير الهبة الأولى من انتشار الحشيش في الرأس، وقفت ناضرة إلى النافذة للتأكد من أنها مغلقة وغمرني إحساس بأنها مقدمة على لحظة هجوم، وهو ماحدث عندما فتحت بقية أزرار قميص بيجامتها الأزرق بتمهل وبرز تهداها مباشرة ودون مقدمات ليتصدرا المشهد الذي بدأ يجن. لاغالب عبرة حاصرني بغثة أخذت في تتبع جسدها ولحت بين ساتر الدخان الذي يحلل الغرفة الصغيرة سرقها بوشمها البري الدقيق. استمرت هي في النظر نحوي راسمة ابتسامة إغواء مخلوطة بانتصار عبر الخطوة الأولى. عرفت أنه علي التقدم وخوض هذا الامتحان اللذيذ والشاق، انغrust فيها متجها مباشرة للحلمة التي أخذت في مصها ببطء ومداعتها بلساني في رفق مكررا المرور على النهدين اللذين ماعدت أراهما الآن بيدي. كانت عالية تصدر تأوهات خفيضة طالبة المزيد، بينما تقودني يداها إلى مكانم اللذة المفضلة لديها برفق وسلاسة.

ساعدني ذلك التخلص من توترات اللحظة والذاكرة المخزونة بالأسئلة والانعطافات المفاجئة، أدخلت يدي في الوقت الذي قدرته مناسبا تحت الحزام فعرفت أنها قد استعدت منذ أيام لهذه الليلة عندما اكتشفت من خلف خيالي المجهد بالتدافعات أنها لم تكن ترتدي الكيلوت، ومررت أصابعي بتأن على الجزيرة الملساء في الأسفل فأطلقت آهة زادت من إحساسي بنفسي، فشرعت في الإطاحة بهذا العائق الذي يقف في طريق اللذة وخلعت ملابسني بدوري، فبدونا مثل ما كانت عليه الخليقة الأولى. جسدين عاريين متداخلين في بعضهما يصعب تفريقهما ولو بخطط. صعدت مجددا وتناولت شفتيها برفق ثم أخذنا نقترّب من السرير متلاصقين حذرين من انتهاء الموسيقى فجأة حتى وصلنا. وواصلنا الإبحار وعندما حانت لحظة الوصول للقمة تحولت إلى لبؤة شرسة تطلق زجرجة سريعة مثل طلقات رصاص، وتهرش بأظافرها حقا في ظهري. منتفضة كذئبة تحرك نصفها الذي إنغرست فيه سعيا للمشاركة في هذا الشيء الحلو بأقصى قدر ممكن، نفعل ذلك وكأننا سنتلاشى بعد الانتهاء منه وسنتبعثر للأبد مثل تفاصيل هذا الدخان الذي يحوم في الغرفة منتظرا ثغرة للاندثار.

الانترفيو

أشعرتني انتقال علاقتي بعالية إلى المستوى الجديد بنوع من الاستقرار النفسي. ساعدني على تجاوز يوم التحقيق بأقل التوترات الممكنة. الجميع يعتبره يوما فاصلا وتبدأ الاستعدادات له مبكرا وكأنها امتحانات التخرج، حيث ترى المقصودين وهم يحضرون قصصهم

ويستشيرون ذوي الخبرة، ويكثرون من الاتصالات والتردد على الغرف التي اجتاز أصحابها هذه المحنة. إنه يوم عصيب ولاشك، حتى أبو آثار كان يصاب ببعض التوتر عندما تكون إحدى قصصه داخل غرفة التحقيق. ليس كل قصة ولكن هناك أيام يبدو فيها متطلعا لمعرفة سير التحقيق في إحدى قصصه، حينها نعرف أنا وبوهدى بأن هذه القصة اشتغل عليها بجد، وبذل فيها الكثير من الخيال والمعلومات. في تلك المرات يظل يسأل بشكل مستمر إذا ما خرج فلان من الغرفة باعثا الرسل ومتقصيا الأخبار. كان يتصرف على اعتبار أن سمعته في الميزان. حدث مثل محمد عبد الوهاب عندما قدم أول لحن لأم كلثوم، وعندما يخرج أخيرا حامل قصته ينتحي به جانبا، وي طرح عليه بضعة أسئلة ليستنتج من إجاباتها سير التحقيق ونتائجه، ولا ينسحب إلا بعد أن ينشر تطميناته بصوت مسموع على المحقق معه، مؤكدا أن النتيجة خير إن شاء الله. في أيام أقل يكون عنده أكثر من حامل قصة في يوم الإنترفيو. في مثل هذه الأيام يقضي أبو آثار يومه كله في التردد على القسم الإداري، ولقاء من ألف لهم القصص. كانت هذه الأيام شاقة بحق، ولكنه كان يقضيها بالكثير من التسامح والمتعة.

كان الإنترفيو الأمر الجدي الوحيد الذي يؤخذ بعين الاعتبار في المركز. الأغلبية هنا تسميه: التحقيق. إنه امتحان في زاوية ضيقة نتیجته تغير كل ما في حياتك من مكان وزمان. فهو الحد الفاصل بين حياة المركز التي نعرف أنها مؤقتة مهما طالّت، أو العبور إلى الحياة في الضفة الأخرى بقدر جديد من الصعوبة حتى أن الدخول لا ينبغي أن يكون مشروطا باجتياز امتحان.

هناك ثلاثة أنواع من اللجوء هنا، السياسي الذي يفترض أن يعطى لمن لهم قضايا سياسية، والإنساني الذي يعطى لأصحاب الظروف

الإنسانية الصعبة من ضحايا الحروب والدكتاتورية، ولجوء مؤقت يبدأ بسنة قابلة للتجديد لمن هم على الحافة، الفروق ليس فقط في القيمة المعنوية لنوع اللجوء، حيث اللجوء السياسي يتمتع صاحبه باعتراف بأنه مهم ومميز، لكن هناك أيضا فروقا في الحقوق المترتبة على نوع اللجوء. السياسي يحق له أن يجلب عائلته إذا كان متزوجا، أما الإنساني ولجوء الحافة فلا يحق لهما ذلك، أيضا يتمتع السياسي والإنساني بحق بيت مستقل بينما يجب على صاحب اللجوء الثالث (يسمى اختصارا بلجوء F) أن يقيم في سكن مشترك يسمى راوا هاوس، كما أنه لا يحصل على جواز سفر بعد انقضاء مدة ثلاثة سنوات كما يحدث مع السياسي والإنساني.

ليس بالضرورة أن يتحصل السياسي على لجوء سياسي والإنساني على الإنساني كما يفترض، فكثيرا ما تكون النتائج نتيجة الحظ فقط، فهذا ما يمكن به تفسير حصول شخص مثل حيدر على اللجوء السياسي، أما بالنسبة لي، فلم أكن أبالي بمميزات أنواع اللجوء، فليس لي زوجة ولا يهمني أن أسكن في بيت مستقل إذا ما كانت لي غرفة خاصة بي كما يحدث في الراوا هاوس، ولا يهمني كثيرا إذا لم تعترف بي وزارة العدل كمستحق للجوء السياسي، يهمني أن لا أرجع لليبيا الآن، وكل أنواع اللجوء خير وبركة...

في يوم مواعي استيقظت في التاسعة صباحا وأخذت دوشا سريعا على غير عادتي في انتظار تنظيف الحمام، وتناولت شطيرة خبز كنت قد جلبتها من المطعم في العشاء، ثم تصفحت أوراقتي وذهبت إلى الجهة المقابلة حيث وجدت موظف وزارة العدل الذي بدا لي من أصل اندونيسي، ومساعد الشؤون القانونية المتطوع بإبداء النصح للاجئ أثناء التحقيق ومترجم عراقي كردي. كنت خلال

جلسة التحضير مع المساعد القانوني قد اتفقنا على تقديم قصتي كما هي قدر الإمكان معتمدا على قرار رئيس الوزراء ووزير الإعلام بالإحالة إلى هيئة الأمن الداخلي، بالإضافة إلى ملف يحتوي على مقالاتي وكتاباتي المختلفة، وبطاقاتي الصحفية وماتبقى أثناء تنقلاتي من صور لنشاطاتي.

كانت الخطة التي نصحني بها المساعد تقوم على ثلاث خطوات. اثبات أنني صحفي وصاحب رأي وأني غير قادر على الاستمرار في الحياة ببلدي نتيجة ذلك القرار، وصارحني بأن علي أن أتبع تكتيكا هادئا المهدف الأولي منه إقناع المحقق بقضيتي ليكتب ذلك في تقريره، ومن ثم الاستئناف لأنه لايعتقد بحصولي على اللجوء من المرة الأولى لعدم فهم القضية الليبية في أوساط لجوء هولندا لقلة الليبيين هنا. معك ورق كثير يبدو أنه جيد ولنركهم يترجمون على راحتهم حتى يتعبوا، ننتظر ونر، كما قال.

دخلت الغرفة متسلحا بملفي الكبير وجلست مع المحقق لثلاث ساعات على جزئين. الأول للبيانات الشخصية وسيرة حياتي العملية والثاني لشرح التفاصيل التي اضطررتني لطلب اللجوء. كانت جلسة ماثونية مجهدة وأنا أتذكر تفاصيل عديدة حضرت أثناء الكلام وأخرى محزنة حتى أن نفسي صعبت علي مرات انهرت في إحداها، وانهمرت بالبكاء وسط حيرة المتواجدين. الموقف أشعري بأني كمن يتسول، ولكن الأمر مر بسلام في النهاية وخرجت لأجد بوهدي ينتظر في الخارج متسائلا بلهفة عن سير التحقيق، فاجبته بأني لا أعرف. قلت ماعدنى وعلينا الانتظار، ثم جاء ابواآثار بينما كنا نتمشى وأعاد السؤال، وردفه بمجموعة من الاستفسارات التي بدت لي أكثر دقة من بعض أسئلة المحقق ثم علق رافعا معنوياتي:

- خير خير، آه لو كانت قصتك هذه عند عراقي، كان أخذ اللجوء في اسبوع.

بالطبع لم يعد هناك لجوء يعطى في أسبوع ولكن لو كنت عراقيا، او أفغانيا لتغير الأمر لصالحى بسرعة بالتأكيد. استأذنت منهما وذهبت للغرفة حيث خلعت ملابسي بسرعة ودخلت تحت الغطاء وغبت في نوم طويل صحت منه عند العشاء، وأنا اشعر بانزياح ثقل كبير من على صدري، ورغبة في مواصلة حياتي في المركز بطريقة جديدة لايحتم فوقها كابوس الانترفيو.

تناولت عشائي كاملا للمرة الأولى. الحساء وطبق الأرز وسلطة ذابلة، ومع ذلك أكلتها ثم شربت كوب شاي. كنت جائعا ومحتفلا وبمعنويات عالية عندي شعور مريح لمعرفتي أن مامن أحد سيزعجني بأية واجبات قانونية قبل أسابيع على الأقل. أخذ المطر ينهمر بغزارة ولكني لم أحفل بذلك كثيرا. تفقدت جيبي وعددت ماعندي من نقود فوجدت ثلاثين خلدن فقررت الاحتفال، توجهت باتجاه غرفة بوهدي الذي اخترته لمشاركته في هذا الاقتراح، ولكني في الطريق تصادفت مع مصطفى الذى لم أره منذ تلك الليلة. رحب بي وبدا أنه قد نسي موقفى الغريب معه، وشرع فوراً في الحديث عن المارغوانا واتفقنا سريعا على الذهاب للكوفي شوب، وعندما أخبرته بانى لا أملك دراجة غاب لدقائق تاركا وعاد بدراجتين. وقفنا ننتظر توقف المطر أو خفوته وما إن حدث ذلك حتى ركبنا قاصدين وسط البلد.

لم أر في حياتي حتى هذه اللحظة مقهى يبيع الحشيش، ويسمح لك بتناوله وانت معزز مكرم. هذا أمر يشكل حلم أغلب الشباب العربي، وعدد لا بأس به من كهوله ولذا فقد كنت مستثارا وأشعر بفرح طفولي. ليس لفكرة الحصول على الحشيش وإن كان ذلك أمر

لا يستهان به، ولكن ما حفزني هو فكرة الحرية في أن تجد مكانا يسعك
تمارس فيه عاداتك دون أن يراقبك أو يعاقبك احد.

على مشارف المدينة وبعد أن اجتزنا المدخل بقليل انعطف
مصطفى بدراجته نحو اليمين، وتبعته حتى دخلنا شارعاً ضيقاً، ثم
انعطف يساراً ووجدت صعوبة في ملاحقته فأنا لم أقدر دراجة منذ زمن
الطفولة بينما كان هو يقود وكأنه ولد على دراجة. توقف أمام مقهى
تعلوه لافتة مضيئة خضراء، دخلنا المكان ذي الإضاءة الخفيفة المتوزعة
على الأركان والموسيقى الهادئة. كان هناك زبونان على البنك يتناقشان
مع البائعة بينما توزع بقية الزبائن على المكان في أحاديث هادئة تقطعها
تعليقات وضحكات مرحة. اخترنا ركناً وجلسنا ندفء أطرافنا قبل أن
أتجه إلى البائعة طالبا قطعة حشيش بعشرة خلدات، فردت أي نوع من
الحشيش أريد فسألتهما ثانية عن الأنواع المتوفرة وأنا أدعي خبرتي بهذه
الأمكن، فأخرجت لي قائمة مغلفة بالبلاستيك وقرأت سريعاً ماها
وعندما لمحت اسم نوع أفغاني طلبته على الفور فهو المفضل في ليبيا،
مدت لي كيس نايلون صغير به القطعة فشكرتها وعدت لمكاني بصعوبة،
لأنني كنت مسطولاً أصلاً من الطقوس التي مارسناها لأول مرة في
حياتي. حديث قانوني وعلي حول شراء قطعة حشيش ثم اتفاق وتحيات
احترام. ماذا لو قلت لموظف وزارة العدل أن مافعلته الآن يتيح لي حق
اللجوء؟ أريد أن أشتري قطعة حشيش وأدخنها وأستمتع بها في مكان
قانوني. عدا عن كوني صحفياً وأكتب مقالات. أليس من حقي أن
أعيش في مكان أشتري فيه الحشيش دون أن أتعرض للعقوبة
والتشهير؟.

نفض مصطفى جلب الشاي من البنك وشرعت في تفتيت جزء
قدرت أنه يكفي للفاقة معقولة القوة، وعندما رجع ناولتها له للفاها. أنا

متعود على حشو السيجارة العادية وليس اللف. قام مصطفى بذلك بمتعة وكأنه يداعب نهدا، وأرجعها إلى جاهزة فسحبت منها نفسين خفيفين ومددتها له، وبقينا نتبادلها حتى انتهت فرشفت من الشاي شاعرا ببدء الرحلة وأعدت تمر كزي على الكرسي المريح دافعا برأسى للخلف، بينما كان هو يراقب الحضور ويطلق بعض التحايا.

بقينا في الكوفي شوب حتى التاسعة ثم خرجنا بعد أن اشترت قطعة ثانية من نفس النوع، وركبنا دراجتنا وقدت خلف مصطفى بحذر وبكل ما أم لك من انتباه رغم أن الطريق المخصصة للدراجات كانت شبه خالية، واتجهنا نحو المركز وكلانا يغني على ليلاه بالطريقة التي ساقه إليها المزاج.

مررت على قاطع عالية ولكن لم أتشجع لطرق الباب وعدت لسريري، حيث كان سعيد يغط في النوم وزاد خارج الغرفة عند أصدقاء له يناقشون سير الأزمة التي بدأت بين أنصار طالباني، وأنصار البارزاني في كردستان العراق. شغلت التلفزيون وحاولت التركيز. كانت شاشة السى ان ان التي تعرض مسيرات صربيا ضد الرئيس مولسفيتش. كان المنظر مذهلا حيث يرفع عشرات الآلاف من المتظاهرين المظلات اتقاء المطر، فبدأت الساحة الرئيسية كغابة من الفطر الأسود، لكني سرعان ما سرحت بعيدا في خيالات متداعية وسريعة وغير مكتملة، حاملة سيلا من المشاعر المتنوعة قبل أن أعود من جديد وأراقب حرب الأكراد الأهلية. كانت ميليشيات طالباني قد دخلت أربيل فطلب البارزاني عون صدام حسين، الذي أرسل له جيشا استعداد المدينة قبل حوالي شهرين، والآن يسعى طالباني للرد، في التلفزيون بدت سيارات الدفع الرباعي حاملة المدافع الرشاشة تنهب الطريق مثيرة لكثير من الغبار، وفي لقطات أخرى بدا أشخاص من الميليشيات يرتدون

الملابس الكردية الواسعة وهم يتربصون خلف زوايا الشوارع أويطلون
بجذر من الدثمت المسورة بأكياس الرمل. بقيت أغيب في خيالاتي
وأعود للتلفزيون حتى هويت في النوم.

صحوت حوالي الواحدة ظهرا. أفطرت في المطعم وعدت إلى
الغرفة ثم مضيت إلى المبنى المقابل حيث يتم اليوم تسليم المنحة
الأسبوعية. حالة من الجبور تسود المكان. التعليقات تنطلق من هنا
وهناك وكأننا قضينا الأسبوع في عمل شاق وحن موعد قبض الأجر.
وقفت في الطابور وانتبهت بأني خلف لاجيء بلحية طويلة غير مشدبة
سبق وأخبرني بوهدي عنه باعتباره من مجموعة الجزية، ولذا شحذت
انتباهي قدر الإمكان حتى أسمع تلك الجملة التي سيطلقها عند الوصول
إلى الشباك، عندما حان دوره أخذت خطوة للأمام حتى كدت التصق
به وسمعتة يبادر الموظف الذي يجلس خلف الشباك يناول النقود:

- الإسلام ام الجزية؟

فرد الموظف متأففا بجملة هولندية وناولته النقود التي أخذها بدوره
مرتاح الضمير، بعد أن عرض عليه ما يقتضيه الشرع كما يعتقد. عاد
مطمئنا راجعا عكس الطابور، إنه من المجموعة التي تعتقد أنهم الطرف
الأقوى مهما بدا من ضعفهم، وعليه فيجب أن يعرضوا الإسلام على
النصارى أو أخذ الجزية منهم وهم صاغرون. حسدت أبو لحية على هذا
الفهم القاطع والبسيط والحاسم وتناولت بدوري منحني شاكرا
للشرطي صنيعة ومنهيا تامامي في نفس الوقت وعدت شاعرا ببعض
الغثيان والاستغراب.

وقفت عند باب القاطع متقيا المطر أراقب المرور السريع للناس
حتى لمحت عالية، فاتجهت نحوها وسلمت عليها بسرعة وأخبرتها برغبتى
في الخروج للغابة عشيية إذا كف المطر فوافقت سريعا ومضت فى حالها.

منذ تلك الليلة أصبحنا نحرس في اتفاق ضمني على عدم الظهور معا أمام الآخرين قدر الإمكان. أصبحنا نشترك في سر خاص قابل للإعلان مع أبسط حركة منا، فالمرکز يقع في هولندا ولكنه في الواقع لازال ينتمي لثقافة العالم الثالث بتعقيداتها وعقدها الخاصة، التي تتميز بالفضول والغيرة والثرثرة في كل ما يخطر على البال. شعرت بالمفارقة فبقدر ماتوطدت علاقتنا بعد أن عبرنا الحاجز الأخير فإنها صارت تطلب عدم التلاقي والبعد وممارسة التجاهل وإدعاء عدم المعرفة الوطيدة.

سرت نحو غرفة بوهدي في القاطع الثالث وعندما دخلت بادرنى:

- تعال شوف شلون كظه ولزمه تحت الماء وماقدر يسوى شيء.
وعندما تتبععت يده التي تشير نحو التلفزيون فهمت المعنى فوراً، فهو يقصد أن التمساح قبض على الوعل الذي كان يريد الماء وسحبه بقوة إلى الأسفل حتى قضى على أنفاسه. كان يراقب المشهد الذي كان فيه التمساح الآن يطفو فوق الماء ضارباً الوعل على سطحه بقوة جبارة، ثم بدأ في تمزيقه بفمه الرهيب قبل أن تظهر تماسيح أخرى على الشاشة وتبدأ معركة دموية انتهت بتقاسم الوعل، وسط دوائر مائية حمراء مهولة ارتسمت جراء العراك، بعد هذا المشهد - الذي أحدث نشوة خاصة عند بوهدي - لا بد أنها أرجعته لأيام الجبال - قررنا اللحاق بسرعة بالمكتبة قبل الإقفال، هناك أعطاني بوهدي الجريدة التي وجدناها تنتظر على غير العادة وانسحب نحو رف الكتب الصغير قبل أن يعود بكتاب عرفته ما إن لمحت في يده. كانت رواية (متاهة الجنرال) لغابرييل غارسيا ماركيز. عرفتها من غلافها ذي الأرجوحة الملونة وترجمة صالح علماني. دفعت نحو الجريدة وأنا أستأذنه وتناولت الكتاب قبل أن يسترد المبادرة وشرعت في تصفحه وعندما لاحظ بوهدي شغفي سألتني:

- مش قتلي انك قرئت كل كتب ماركيز بالعربي..
- صحيح، ومنها هذا الكتاب.
- لعاد ليش ماتخليني اقراه أول وبعدين اجيبه لك.
- زين، بس هذا الكتاب بالذات عندي معاه قصة.
- ما آبي اسمعها، خوزه وبعدين آخذه آني..

تذكرت ذلك اليوم الذي ربما يكون بداية قصة يحيى والتي توجت بتلك النهاية المروعة. أنا وهو أمام بيتهم في سيدي خليفة بقرب جامع الشيخة راضية. يحيى منتش وواضح أنه تناول كم حبة وسيجارة على الأقل حشيش. كان قد خرج لتوه للحياة بعد أول انتكاسة كبيرة يواجهها بعد تركه للجامعة وبقائه في البيت وبيعه للحشيش بالقطعة. دخل في عزلة حديدية لم يستطع أحد إخراجه منها.

جربت معه كل ماعرفت أنه يؤثر فيه ولكن بلافائدة، كأنه قرر مقاطعة الحياة بشكل نهائي وهذا القرار الذي بدا لنا نحن أصحابه القريبون مجرد غضب طاريء، ومحاوله للفت النظر صار مسألة جديدة مع الوقت عندما مضى شهر ونصف ولم يغادر البيت. يتناول مايصله من الأصدقاء من حبوب وحشيش ويظل مرابطا أعلى البيت طوال النهار على فراش ييسطه على الأرض قبل أن يهبط ليلا لينام، وبعد اجتماعات عائلية عديدة تمكن أحد أبناء عمومته من تدبير تأشيرة له لدخول بريطانيا. كان من المقرر أن يستقبله ابن عم آخر يدعى عملا خاصا في لندن وهو من سيتدبر له عملا معه. كان عليه إجراء مقابلة للحصول على التأشيرة في تونس لعدم وجود سفارة بريطانية في طرابلس، وكان عليه أن ينتظر الموافقة قرابة ثلاثة أشهر، كان خلالها قد واصل عزلته وإن خفف من إجراءاتها داخل البيت وأصبح يتكلم بشكل متقطع مع والدته وأخواته.

أرى نفسي الآن مع خليط من الأصدقاء وأبناء الشارع ونحن نحيط
بيحيى لنودعه بتعليقات مختلفة، أراقبه. يبدو واثقا بأنه تناول ما يكفي
لتغيبه عن الوعي حتى الوصول إلى العاصمة تونس، وربما حتى موعد تسلّم
الموافقة. كان الوقت عصرا وشمس سبتمبر الحارة لازالت تقاوم الخريف
ويحيى يعانق مودعيه ويضرب الأرض بحذائه ويزجر مرتحي الفم:

- أخيرا خلاص ساغادر هذه الغبرة، ملينا يا أخي وتعبنا من هالحبس.
لم يكن يوجه كلامه لأحد معين. لمح في الكيس الذي أحمله
"الجنرال في متاهته" فأصر على أخذها مني كزاد للطريق. استغلّيت
الظرف وانتحيت به جانبا ودققت النظر في عينيه وأنا أعطيه الرواية
محلّفا إياه برأس أمه أن يعطيني ما عنده من ممنوعات، لأني كنت شبه
متأكد أنه يحمل معه زادا للطريق قد يعرض خطة هجرته بكاملها
للخطر، لكنه أقسم لي وهو يمسك بالكتاب بأنه لا يحمل معه أي شيء
وكل مامعه في رأسه وأنه يدرك اللحظة التي هو مقدم عليها، ولكنه لم
يكن صادقا للأسف، فقد أمسكوا به في البوابة التونسية بعد أن وجدوا
معه قرشين حشيش. حاول أن يبلعهما ولكنه فشل وحكم بعد
مداخلات قانونية كثيرة بعام ونصف لتتحطم سفينة أحلامه على مرسى
تلك الغلطة الصيانية، التي دفعته لعدم الاكتفاء بالكتاب كمؤنس طريق
والوقوع في التقدير السيء تحت تأثير طول المسافة حبوب الهلوسة
المدعومة بكمية وافرة من الحشيش.

بقيت مع "متاهة الجنرال" أياما وأنا أقرأ وأستعيد عشرات
التأملات والأفكار حول يحيى وعلاقتي به شاعرا بالذنب لإحساسي
بأنني لم أبذل الجهد المناسب لانتشاله من مهاويه، وعدم قدرة خيالي
على رسم صورة النهاية البشعة التي وصلت إليها سفينته في ذلك اليوم
الرهيب عندما أحاط به القدر ولم يعد الفكاك ممكنا.

وعندما أعدت الكتاب لبوهدي أحسست بمشاعر مختلطة وكأني قد ودعت يحيى للأبد في اللحظة التي مددت فيها الكتاب، وانتابني رعدة حتى أنني انسحبت للغابة القريبة وبكيت كثيرا تحت المطر.

““

أصحو قبل الظهر بقليل، أتحمس أطرافي المرهقة جراء عدوان الانفلونزا، لازلت لا أشعر ببعض الأجزاء من جسدي بعد أربعة أيام في الفراش، ما إن عدت من الغابة القريبة حتى بدأت الحمى تدب في جسدي مثل أسراب من النمل. العرق ينز والأنف مقفل والحلق جاف والريق مر وإحساس بالوحدة يضاعف من كل هذا. بالكاد زحفت متكئا على بوهدي إلى الجهة المقابلة حيث أعطاني الطبيب حبات إسبرين وبعض المضادات بعد الحاح كبير. قال بأنهم لا يعطون الدواء هنا إلا في الحالات الضرورية حتى يتركوا للجسم فرصة الدفاع الذاتي، وبناء حمايته الخاصة. كان ابواثار وبوهدي يتبادلان الزيارة وجلب الطعام كل يوم مما خفف عني الكثير. في الليل كانت الحمى تبلغ مداها. أصبح في عرقي وتتهيا لي خيالات متداخلة يبرز دائما من بينها يحيى وهو ينظر نحوي من بعيد دون تعليق. نظرت كانت متألمة وصامتة وعيناه لاترمشان. أتجه نحوه وأنا ممتلىء بشعور من الذنب فيبتعد بخطوات بطيئة. أجري لاهثا ولكني لا ألق بتلك الخطوات.

أغالب نفسي منتهزا صحو الطقس، فأخطو للخارج. أغسل وجهي. الماء ينسكب باردا ثم ساخنا يدعوني للاستحمام ولكني أخشى أن أنتكس من جديد. أدخل الغرفة ثانية أفتح التلفزيون باحثا بين القنوات وأختار برنامجا يتحدث عن سلفادور دالي، وهوسه بقدرة العلم على تجاوز الزمن وتشبيته. لم أعرف ذلك سابقا، أعني أنه يظهر في البرنامج وهو يعقد جلسات مطولة مع علماء الفيزياء، ويحضر مؤتمرا

عبر الأقمار الصناعية يبحث في قدرة العلم على تجاوز الزمن. يطل رأسه وشاربه المذنب من ملابسه البيضاء وقورا وهو يشكر العلماء على تلبية رغبته والتجمع في هذا المؤتمر. لقد كان دالي في الحقيقة يسعى نحو الأبدية والخلود، وكانت تلك الطريقة الوحيدة الذي ربما عن طريقها يتحصل على إجابة للغز الموت، أو يعثر بحيلة لتجاوز الأمر كله، بعد نهاية البرنامج المؤثر والنادر. أمسكت الريموت من جديد. توقفت عند قناة موسيقى تبث برنامجا وثائقيا عن حياة البوب مارلي. تظهر بعض اللقطات التي سبق وشاهدتها في ليبيا عند يحيى، البوب وهو يلعب الكرة مرتديا زيا رياضيا احمر، ثم وهو يجري بروفات وسط قاعة خفيفة الإضاءة. يتحدث البرنامج على علاقته بهيلاس هيلاسي امبراطور اثيوبيا، وكيف أنه يعتبره مقدسا وخليفة للنبي سليمان. أفكر وأنا تحت تأثير الدواء والإنفلونزا والإرهاق في هذه المفارقة. الرجل الذي غنى طوال حياته للحرية والمساواة وإفريقيا يؤمن بقدسية واحد يناقض كل ذلك، يستعرض الشريط زيارة هيلاسلاسي لجامياكا حيث يعتبره الكثير من الناس هناك كائنا مقدسا، أخت بوب مارلي تتحدث كيف أن بوب تحسر لأنه لم يكن هناك...

... أتذكر يوم مات بوب مارلي، كيف خرجت له جنازة غائب في ليبيا، حمل مجموعة من مقلديه وعشاقه - منهم معروفون مثل عادل الزينة وحسناوي رحيم وفتحي ريج - تابوتا خرج من شارع هايتي بوسط طرابلس متجها لمقبرة سيدي منيدر قبل تدخل قوة ثورية لتشتت الجمع وتلقي بالتابوت في عرض الشارع وهي تهتف بحياة الثورة وقائدها.. كانت أغاني البوب التي تم تعريب بعضها بكلمات محلية على نفس الموسيقى هي المنافس الوحيد لأغاني المرسكاوي والمألوف الطرابلسي في الأعراس، ويرجع له الفضل الأول في الحفاظ على خيط

يربط الشباب باللغة الإنجليزية بعد منع تعليمها باعتبارها لغة الإمبريالية والاستعمار، كنا نردد تلك الكلمات دون أن نعرف مراميها ومقاصدها وتبادل الأشرطة الخاصة به باعتبارها حدثا ملازما للحياة، ويوم العيد هو عندما نتحصل على شريط فيديو يحتوى على لقطات للبوب بشعره المظفور الطويل الذي كنا نعتقد أن غسله ووضفه يحتاج لثلاثة أيام على يد فريق نسائي أثيوبي متخصص...

المطر بدأ ينهمر في الخارج، أراقب تدافعه على النافذة، أتمسك بغطائي جيدا وأتحسس أضلاعي المتعبة من السعال والتقلب والبقاء على الفراش مدة طويلة، أحس بالدفء وقرب الفرج والخروج لحياة المركز التي أشعر بشوق داهم لها، لقد أصبح هذا المكان حميما بالنسبة لي أكثر مما قدرت، أتابع التلفزيون وأتوغل في الدفء والمسرة لقرب الشفاء وأغرق رويدا في النوم من جديد، متطلعا لعاداتي اليومية من جديد في الغد.

جلست مستمتعا بالصحو والصحة أراقب كالعادة من على كرسي الحديقة الرائع والغادي من سكان المركز، وجوها مختلفة يذكر بعضها بأصدقاء ومعارف قابلتهم في أماكن مختلفة، يمر اللاجئون في مجموعات صغيرة لقضاء حوائجهم المختلفة ولجرد التمشي والتكلم، هناك أيضا نساء ورجال هولنديون يعملون في المركز، يمرون ذهابا وإيابا لأغراض مختلفة تخص اللاجئين، ألح ميرندا وهي تسعى نحو مكتبها في الشؤون الاجتماعية في الجهة المقابلة كفرس شصوص تبادل رجليها القوين محمية كل من في طريقها، إنها أكثر بنات المركز شعبية ولها علاقة مع عبداللطيف الزنجباري صاحب العينين الزرقاوين والبشرة الخلاسية والشعر المجعد، أراقبها من بعيد كلما سنحت الفرصة برغبات دفيئة وحب استطلاع كبير، أظنها بدأت تشعر بذلك فكل ما تمر بي

تحسيني بطريقة أحس من خلالها أنها تعرف. انقطعت عن درس الهولندية بسبب متطلباته في الاستيقاظ مبكرا وحاجته للتركيز، بوهدي فعل نفس الشيء مكتفيا باكتشافه للتشابه بين الهولندية والإنجليزية وهو اكتشاف جعله راضيا ومكتفيا بما نال من العلم، وعندما وصلت في تداعياتي إلى هنا كان بوهدي واقفا بجانبني يحمدي السلامة وهو يضحك، مشيرا لشحوبي الذي ذكره بليلة المارغوانا، أخبرني بأنه ذاهب مساء إلى مجلس عزاء يقيمه فرع الحزب في وسط المدينة على روح قيادي شيوعي عراقي ودعائي للذهاب معه فوافقت على أن نمر أولا على الكنيسة التي في مدخل لايدن.

- كنيسة شنو هذه؟.
- كنيسة، شنو ماتعرف الكنيسة؟.
- والله آني قلت عليك مخبل، يعني تريد تعمل مثل هذولا اللي بيدولن دينهم على خاطر يعتقدون ان معاملة لجوئهم رح تمشي.
- ورغم ان غرضي من الذهاب للكنيسة كان مختلفا إلا اني جاريته:
- وش عليه يابوي، الإيمان في القلب وهذه مجرد اجراءات.
- اجراءات الخراء على خشمك، انا صحيح شيوعي بس هالخرابط
- ماتدخل رأسي وماحسبت ان تدخل رأسك انت بعد.
- ماهو كله دين ربنا يابوهدي.
- بس اللي أنت قاعد تسويه اسمه بنس ديني، مو عيب عليك وانت راجل مثقف وتكتب.
- للضرورة أحكام.
- لا احكام ولا بطيخ، انت مو صاحبي اللي يسوي فيني كذي.
- وعندما شعرت أن المسألة تعتبر شخصية لبوهدي قطعت استرسالي وأخبرته بأنني أود الذهاب للكنيسة لأني سمعت بأنها تباع

ملابس مستعملة وأنا محتاج لذلك لأنه ليس عندي ملابس تصلح للشتاء، وعندها هداً ووافق على اقتراحي على أن نخرج أبكر قليلاً ثم ذهبنا سوياً للغداء ولم يمنعني الشرطي الذي يشرف على الطابور من الدخول رغم أن دور قاطعي لم يكن بعد، ربما بدا يألف وجهي ووجه بوهدى، بعد ذلك ذهبنا لغرفة بوهدى حيث وجدنا الأفغانيين والشيخلي، وعلى سريريه جلسنا أراني بوهدى ورقة صغيرة سيلقيها في العزاء باعتباره قائد فصيل مسلح أيام حرب التحرير، لم تعجبني اللغة المكتوبة بها، كانت تقليدية جداً وفحمة، ولكن أعجبتني لأنها مختصرة ولن تأخذ أكثر من ثلاث دقائق، اعتبرت ذلك كافياً فأمنت عليها ومدحتها كاذباً له خوفاً أن أفسد عليه لحظة اعتزازه بأنه لازال مهما يطلب الحزب حضوره ومشاركاته كقيادي من ضمن قياداته وهذا كما قدرت يعني الشيء الكثير لشخص مثل بوهدى وخاصة في هذه الظروف.

أخذنا الحافلة التي تتوقف مرة كل ساعة أمام المركز في الثالثة، نزلنا في مدخل المدينة واتجهنا نحو الكنيسة الصغيرة قاصدين جناح الملابس المستعملة، بحثنا في الأكداص الصغيرة حتى عثرنا على سترة وبنطلون كريمي اللون بخمس عشرة خلدن، دسستهما على بعض الخجل في الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها معي وبوهدى لا يتوقف عن رفع معنوياتي بمدح البضاعة المشتراة.

جلسنا نشرب الشاي (رفض بوهدى البيرة لأنه في مهمة رسمية جادة) في مقهى قريب من مكان المجلس بانتظار حضور البقية قبل أن نلتحق بهم في قاعة تعلق ناديا اجتماعيا هو مكان العزاء، الحضور حوالي ثلاثين من مختلف الأعمار، وجوه متعبة من السهر وكثر التنقل والذكريات الطازجة التي هبت للمقدمة عندما ألتقي الرفاق

لتمر الأماكن والأحداث أمامهم في شريط مكثف، محزن وثقيل، تكاد ترى العبرات في العيون والغصات في الحلق مما حول المشهد إلى مشهد فقدان جنازتي يليق بالمناسبة فعلا.

وقف عريف اللقاء خلف طاولة صغيرة متحدثا قليلا حول المناسبة راثيا الفقيد ومشيدا بإنجازاته ومقدما التعازي للحزب والرفاق وطالبا بلطف من شخص يدعى أبوناز التقدم وإلقاء كلمته، فحضر من الصف الأول شخص يرتدي بذلة سوداء مقلمة وربطة عنق حمراء وسار بخطوات بطيئة تغالب كرشه المندلق، حيا الرفاق وبدأ يلقي كلمة بالمناسبة تحدث فيها عن معنى النضال والشهادة والتضحية وموقع الفقيد من كل هذا، ثم جاء دور بوهدي الذي تقدم بخطوات تكاد تكون عسكرية وأخرج نظارته والورقة الصغيرة وقرأ دون أن يرفع رأسه عنها مجموعة من الجمل المسجوعة وختم بتحية الشهداء والحزب والوعد بالمواصلة واتجه إلى مكانه وما إن وصل حتى مال علي قائلا إن الكلمة كانت سيئة، كان يلومني على عدم إخلاص النصح له، أصابني ذلك بالخلل لأن كلامه صحيح، وصعد للمنبر متحدثا أو ثلاثة فضل آخرهم الحديث عن الفقيد - الذي كان اسمه ابوشاشا - من ناحية إنسانية حيث ربطته به علاقة شخصية وعائلية طويلة وسرد نتفا من ذلك ليرجع ابوناز مجددا للمنبر موضحا أنه لم يكن يدري أن المطلوب الحديث عن الفقيد كإنسان، وبدأ فورا في حديث إنساني راويا ذكريات جلسات حميمة حول قناني العرق وبعض الأغاني - الملتزمة طبعا - المفضلة لدى صديقه الفقيد وعن طريقة تصرفه الإنسانية طوال عملهما معا ضمن القيادة العامة للحزب، واضح أنه غار من أن يتحدث آخرون على المعرفة الشخصية بالفقيد مصرا على تأكيد مكانته في ذلك، عندما أكمل ونزل أعلن العريف عن انتهاء الحفل ودعا

الحاضرين إلى تناول الشاي والقهوة التي أعدها بالمطبخ في الأسفل
بمجموعة من الرفاق الشباب.

إنضممت لنفر من الحاضرين احتفلوا بوجودي بينهم باعتباري
مثلا للشيوعية الليبية وهو أمر تواطأت معه بأفضل السبل حتى لا أخيب
الحدس الشيوعي العراقي الذي كنت أعرف ميله إلى الأوهام وحب
التضحيات المجانية.

بعد أن انفض الاجتماع ذهبنا إلى محطة القطار لتوديع بعض
الرفاق الذين صار بعضهم أصدقاء لي الآن ناداني بعضهم بلقب رفيق،
ثم اقترحت على بوهدي القيام بجولة في الشارع الرئيسي للتفرج على
بدايات زينة عيد الميلاد كي أخرجهم من جو خذلاني له فيما يخص
كلمته، بعدها أخذنا الحافلة للعودة للمركز حيث ساد الصمت بيننا
واكتفينا بمراقبة حبات المطر وهي تهاجم نافذتنا بفعل الريح وغرق كل
منا فيما يخصه من تداعيات.

توجه بوهدي مباشرة إلى غرفته فيما توقفت بعد ذهابه في غرفة
الهواتف مدعيا أنني أنتظر مكالمته، في الواقع حاولت مرتين في الأيام
الماضية أن أتصل بوهاب عن طريق هاتف صديق في الجامعة ولكني لم
أوفق كما فكرت سريعا في الاتصال برحاب ولكن أبعدت هذا الخاطر
سريعا وأنا أشعر ببعض الخجل لأني لم أخبرها عن خطتي للسفر ومن
هناك توجهت لغرفتي وأخذت عدة الأكل وتناولت العشاء صحبة
بوجود الذي لم أره منذ أيام، تحدثنا عن مجلس عزاء بوشاشا فقال إنه
يتذكره ببغداد في الفترة التي كان فيها قريبا من الشيوعيين أيام العمل
العلني عندما ضمتهم الجبهة الوطنية مع حزب البعث قبل أن يقرر
التفرغ الكامل للفن، وعدنا من المطعم على مهل حتى أوصلته لغرفته
وعندما أخذ في لف سجائره متمددا على سريره استأذنته وخرجت

بدوري لأضع أغراضي على الطاولة البلاستيكية وأحمد قليلا مفكرا في يومي وفي المكان الذي سأقضي فيه الساعات القادمة.

فجأة تذكرت أنني نسيت حقيبتى الصغرة وبها ما اشتريته من الكنيسة وأدركت الآن سبب إحساسي بالخفة وأنا خارج من قاعة العزاء، وقبل أن أستغرق في الأمر تذكرت أيضا أن لدي قطعة حشيش اشتريتها عندما كنت مع مصطفى في (الكوفي شوب) فنسيت أمر الحقيبة بل شعرت للحظة بالراحة لنسيانها لأني لم أكن متشجعا كثيرا لتلك الصفقة. نهضت مقتشا بنطلوني الثاني فوجدت كيس النايلون الصغير به القطعة ففرحت بقدر أكبر مما توقعت، بعض التجارب التي تمر بها تجعل للأشياء أهمية خاصة مهما صغرت أو قل شأنها في الأيام العادية، مررت القطعة أمام أنفي أتشممها وأنا أفكر فيها ثم قررت أن أقسمها لنصفين وخرجت بإحدهما باحثا عن أحد يشاركني ليلتي بعد حمام سريع يزيل روائح الحمى عني.

اتجهت أولا في جولة استطلاعية شملت قاطع مصطفى الذي لم يكن في الغرفة وعرجت بعد ذلك على غرفة الخبر حيث وجدته مع جو يدندن على "غيتارته" وأمامه علبة بيرة من نوع رخيص، كنت بحاجة لمن يلف لي القطعة، سألت الخبر عن عالية مصطنعا العفوية فأجاب بأنها على وصول فقلت له بأني سأعود لكني خرجت لأقف في باب القاطع منتظرا إياها حتى جاءت بعد دقائق فقررنا الخروج قليلا للتمشي أمام المركز بجانب الطريق الرئيسي وهناك لفت عالية السيجارة وهي تمشي، دخناها بالتبادل ونحن مستمتعان بصحو الجو، استمررنا في سيرنا حتى وصلنا الغابة وعدنا أدراجنا من جديد بتمهل ونحن نتحدث في مواضيع لا تكتمل حتى وصلنا المركز حيث افترقنا على أن نلتقي في غرفة الخبر حيث كان الغناء السوداني وعزف ربابة قام به عثمان جار

الحبر وجاءت أيضا سمر الصومالية وتوسا التركية ويوسف الزنجباري، الكل يحمل معه ماتوفر من الكيف، رققت البنات ويوسف صحبة عزف الحبر وتوليت وعثمان شئون البار المرتجل ومضيئا في هذا حتى قرابة منتصف الليل عندما خرج كل واحد إلى غرفته.

شيخ زكريا شريكي في الغرفة السابقة يوقظني بصوت حذائه الهولندي المصنوع من الخشب، أخمن أنه يتجه نحو المدخل حيث تعود التدخين وهو يتأمل المارة، أخبرني مرة أن سبب فراره من باكستان أنه يعرف اسم قاتل مرتضى بوتو ومنذاك أحاول أن أسأله كل مرة التقييه عن الاسم وأنسى، لم أصدق الأمر فكل شخص هنا عنده اكاذييه الخاصة ولكن الفضول كان يدفعني للسؤال والنسيان يمنع ذلك، أبقى خامدا في سريري لبعض الوقت أراقب التلفزيون الذي كان يث شريطا وثائقيًا حول المافيا وكيف أن جوزف كندى والد الرئيس جون كندى كان له علاقات وثيقة معها إضافة لعلاقاته الارستقراطية الراقية وكيف أنه أمن أضل المشروبات الروحية في حفل تخرج جامعة هارفرد في زمن منع الكحول بالولايات المتحدة الأميركية عبر علاقاته تلك، كما استعرض الشريط سيرة شخص اسمه ارتوستاين ملقب بالدماغ، لأنه جعل من الجريمة المنظمة عملا إداريا مستفيدا من خبرته في العمل النقابي عندما كان من رواده، يروي صوت المعلق كيف أن حاجة القوافل التي تهرب الكحول خاصة من كندا للحماية أيام المنع كان السبب في سيطرة المافيا والقتلة المحترفين، مستعرضا أول جريمة قتل بالرشاش في فيلادلفيا آخر العشرينات، تظهر على الشاشة صورة لوتسكي الذي يصفه المعلق بأنه كان شخصا طيبا مبتسما، أشرف على تهريب الخمور من كندا وأوروبا وأدار شبكة من متاجر الكحول وحلبات المراهنة على الملاكمين.

أتابع الشريط على مهل منتظرا أن يمر الوقت ويأتي الليل حيث ستكون شريكة عالية في الغرفة في بيت صديقها الجزائري مرة أخرى، بإمكاننا أن نمضي الليل معا حتى الفجر كما تعودنا أن نفعل كل نهاية أسبوع تقريبا.

عندما دخلت بهدوء للغرفة كانت عالية ترتدي سروالا قصيرا يكشف عن ساقها الجميل اللامع، وفانلة بدون أكمام كالتى يرتديها لاعبو كرة السلة، كنا قد تخلصنا من إرباك البدايات وصرنا نعرف ماذا نريد من بعضنا. كانت قد أعدت الشاي وبعض الكيك وجلبت قطعة حشيش وورق بافرة لزوم اللف، وبعد السيجارة الأولى أخرجت رقعة الشطرنج وبدأنا في اللعب مستمتعين بمحاصرة الخيال النافر على الرقعة، نهر رؤسنا المعبأة على أنغام موسيقى التلفزيون دون أن نرفعها، أرمقها بين الحين والآخر فتبدو واثقة من نقالاتها ومنسجمة مع ماتفعل، بعينها الصغيرتين الدقيقتين وقد دخلتا في نوع من النعاس الجميل جراء الحشيش، صدرها النافر وكتفها اللذان خمدنا نحو الأسفل بتأثير الاسترخاء، كانت متجهة بكاملها نحو الرقعة وكأنها ستدخل فيها كقطعة من قطع اللعب.

في مثل هذه الأوقات أشعر بالراحة الكاملة حيث تكون الدنيا بكاملها داخل غرفة صغيرة في متناولي، تقوم أحيانا لجلب غرض ما فتتهز أمامي كحلوى الجيلي بمؤخرتها الرجراجة وخطوطها البطيئة الواثقة وحبها لعمل كل شيء بتمهل ولذة ومزاج عكس مايوحى به مظهرها العام، عندما رفعت رأسي نحوها بعد استغراق في اللعب وجدتها قد أخرجت نهدا الأيمن من مجاله فظهر بكامله كدعوة للتوقف عن هذا النوع من اللعب، وأكدت دعوتها تلك بتمرير يدها ذات الاظافر المقلمة فوقه بعناية شديدة حتى أنها اغمضت عينيها، سحبته لفراش الروسية

وأدخلت أنفي في المفترق وأخذت أشم على مهل حليب أُمي المفتقد محاولاً أن أتذكر كل الأوضاع الجنسية التي أمضيت الأسبوع وأنا أفكر فيها في انتظار يوم الجمعة، في الواقع كنت قد قسمت الأوضاع على يومي الجمعة والسبت في خيالي ولكن اللحظة أطاحت بذلك على صدى ضحكة رنانة انطلقت فوق رأسي فانتقلت العدوى إلي وتشاركنا الضحك بهستيريا ونحن نفتش بعضنا حتى أصبحنا عاريين تماماً، دخلت بين فخذيهما الناعمين وبدأت ألعق جزيرتهما الملساء على إيقاع تأوهاهما المنتظمة ومن بئر اللذة تلك عثرت على جهاز التحكم وزدت في صوت الموسيقى واستمررت بعد أن أعطيتها نصفي الأسفل، وعندما استدرت كانت عيناها مغمضة وجفناها ترفان وكأنها نائمة تحلم فأغمضت عيني بدوري وانهمكت في الحلم الذي تحي مداعبا ماتصله أعضائي من جسدها.

أشعلنا لفافة من جديد واستمررنا في اللعب من النقلة التي كنا قد أنهينا إليها قبل أن نغير نوع اللعب، صببنا مزيداً من الشاي وتوجهنا للسريير حيث دخنا ونحن نتكلم في مواضيع مرتجلة، قبل أن أستيقظ في الفجر وأتسلل إلى سريري وأواصل النوم.

صحت على أصوات متسارعة تصاحبها ضحكات متقطعة وجري ومناداة وعندما خرجت لأستطلع الأمر وجدت زكريا الذي أخبرني وهو يكتف ضحكة بأن علي رضا الإيراني خرج من غرفته عارياً تماماً وهو يشتم ونام في الممر الرئيسي محتجاً على نتيجة رفض طلبه للجوء التي تسلمها من المستر نجتف المكلف بذلك، ووصف لي زكريا كيف كان رضا يضع يده على عورته وهو ملقى على الظهر بينما يشير باليد الأخرى مواصلاً شتم الحكومة الهولندية ورافضاً محاولات جره لغرفته طالباً حضور موظف من وزارة العدل ليتسلم شكواه، استغربت

الحدث فقد بدا لي علي رضا شابا هادئا في المرات التي رأيته فيها، قليل الكلام ووديا وغير معني بما يدور في المكان إلا في الحدود الضيقة التي تهم حياته اليومية، رجعت للغرفة وتذكرت أن اليوم هو السبت وأنني سألتقي مجددا بعالية فانتابني شعور بالطمأنينة والسلام الداخلي فغسلت وجهي سريعا ولبست وتفقدت ميزانيتي فوجدت أن لدي عشرين خلدن، ارتحت فهي مبلغ لا بأس به بالنسبة لاحتياجاتي حتى يوم الاثنين إذا تصرفرت بلباقة، جلست أمام التلفزيون وأنا افكر في ما فعله رضا انتابني هاجس أن هناك مصاعب أخرى لم أختبرها بعد في هذا المكان وخشيت للحظات أن أرتكب يوما مثل هذا التصرف مراقبا نفسي في الصورة التي وصفها لي زكريا، وكاد هذا التخيل أن يطيح بي في بداية اليوم فقررت الخروج، لكن أدركت وقتها أن المطر ينزل في الخارج، فعاودت تخيل رضا وهو مغسول تحت المطر يصير على حضور موظف العدل وقدرت انه سيصاب ولا بد بحمي وصعد تعاطفي معه إلى قمته فزاد شجني، دفعني ذلك للتوجه إلى غرفة الهواتف التي صارت مثل الخيط السري الذي يربطني بالعالم الذي تركته وصار ينأى عني كل يوم وأنا أتوغل في حياتي الجديدة، إنها مكان لتعزية النفس واستعادة طمأنينة تتزعزع أمام واقع جديد لم تألفه النفس بعد وأن تعاطي معه الجسد كل يوم.

هدأت نفسي بعد وقت من توقفي في غرفة الهاتف متظاهرا كالعادة بانتظار مكالمة تخصني، وقفت أراقب المطر المنهمر لبرهة قبل أن أعبر للجهة الأخرى نحو غرفة بوجواد الذي كان مع بوهدي يتحدثان حول ذكريات بغداد ومعارفهما المشتركة والأماكن التي كانت وكيف أصبحت، جلست أستمع وأمني معرفتي بهذا البلد الذي لم أزره ولكنني عاشرت الكثير من أناسه وصار لي فيه أصدقاء وأماكن حفظت بعض

مواقعها من كثر تردد ذكرها أمامي، ثم اتفقنا على اللقاء بعد العشاء وحضور الحفل الذي سيقميه اللاجئين الافغان بالمركز.

وفي وقت الحفل دخلنا المقهى الذي تحول إلى مسرح حيث صفت الكراسي في مقابل منصة مرتجلة جلست فوقها مجموعة عازفين كان من بينهم الرجل الذي كان معي في المطار صحبة زوجته، كان يمسك بدف صغير، تبادلنا التحية ورحب بنا قائما من مكانه فقد نشأت بيني وبينه علاقة مودة بعد أن قضينا تلك الليلة معا وجلسنا لفترة نستمع للغناء الافغاني الحزين قبل أن يميل علي بوهدي ليخبرني أنه لا يستحق هذا العذاب فعرفت أنه قد شارف على إنهاء "متاهة الجنرال" حيث ترد هذه الجملة على لسان بوليفار في الثلث الأخير منه، فكرت طبعاً للحظات في يحيى عندما سمعت جملة بوهدي نيابة عن ماركيز ثم وافقته على رغبته فخرجنا مع أول استراحة متجهين مع بوجواد لغرفة بوآثار للعب الكونكان...

... فحضت باكراً بعض الشيء وأشعر ببعض الإثارة حيث سأقوم اليوم بأول رحلة طويلة خارج المركز، سأذهب لمدينة اوترخت لمقابلة الحامي الذي عينته لي وزارة العدل، ذهبت للإدارة وتسلمت تذكرة القطار والتاكسي وراجعت خريطة المكان مع الموظفة وتوجهت للمحطة الرئيسية للمدينة محافظاً على تركيزي في أعلى معدل، جاء القطار وصعدت بشيء من الرهبة وجلست بجانب النافذة كي أتمكن من قراءة أسماء المدن والمحطات التي سنمر بها.

انطلق القطار ونسيت تركيزي مطلقاً بصري في المساحات الخضراء التي كانت تتجه بسرعة عكس السير متأملاً الأبقار التي ترعى مطمئنة حاملة خرائطها المبهمة على ظهورها (كما قرأت مرة لشاعر اميركي)، تختفي خلفي بسرعة حتى وصلت محطة اوترخت الكبيرة،

بالكاد استطعت العثور على محطة التاكسي وأعطيت العنوان للسائق وبعد دقائق من الانطلاق وسط مظاهر عيد الميلاد المبكرة وصلنا إلى بناء من طابقين وجلست في الصالة لدقائق قبل أن يخرج المحامي، رجل أربعيني أنيق الملبس ودقيق الحركة يصحبه مترجم عراقي واتجهنا إلى المكتب حيث جلست على طاولة صغيرة للاجتماعات.

وتحدثنا في موضوع لجوئي لنصف ساعة تقريبا طمأنني المحامي في نهايتها على أن قصتي جيدة ووثائقي قادرة على دعمي ولكن مفتاح نبلي للجوء يكمن في الصبر. بدا واثقا من نفسه وجديرا بالصورة التي رسمها لي بعض من دافع عنهم سابقا، فهو متخصص في قضايا الكتاب والصحفيين وعلى معرفة جيدة بأحداث المنطقة العربية - تبين لي ذلك من حديثه - وإن كان أقل فيما يخص ليبيا، حيث بدا لي أنه متشوق لسماع مزيد من الأخبار عن نوع الحياة واهتمامات الناس، وطريقة سير الأمور فانا أول زبون ليبي يتولى الدفاع عنه كما قال. تمنيت أن يدفعه ندرة نوعي للاهتمام أكثر بقصتي.

ودعت المحامي الذي طلب من سكرتيرته توفير تاكسي تقلني للمحطة من جديد، وهو ما حدث وركبت القطار عائدا إلى المركز في لايدن. في طريق العودة شعرت ببعض السعادة لأنني عائد إلى مكان يخصني، فالمركز أصبح مكانا مناسبا لي تماما كلما تقدمت الأيام. هناك أصدقاء وقصص وكيف.

وجدت بوهدى وابوآثار في انتظاري حالما وصلت. طرحا علي بعض الأسئلة وبوآثار يردد:

خير خير انشاءالله،،،

وتوجهنا مباشرة تحت مطر خفيف وظلمة إلى غرفته حيث كانت زجاجة فودكا مع بعض المازات التي جلبت من المطعم بتدبير بوآثار

جاهزة على الطاولة. جبن وبطاطا مقلية وبعض الخيار المملح. أخرج ابواثار إبرته الصغيرة وصوبها نحو ذراعه وسمعنا الطقطقة المعتادة، وهو يفرغ في وريده لثمليء الغرفة برائحة الأنسولين. نشرع في الشراب وتوزيع ورق الكونكان لندخل الليل في حال أفضل بعد يوم طويل.

رجعت ثملا للغرفة قبل منتصف الليل، وجدت زاد الكردي متسمرا أمام التلفزيون. ما إن لحني حتى أشار علي بالسكوت والمتابعة. كانت صور مختلفة لعدي صدام حسين تتوالى على الشاشة، وصوت المذيع المتحمس للخبر العاجل يملأ الغرفة. حاولت التركيز ومغالبة تشتتي للإمام بما يحدث. زاد بالكاد يعرف بعض جمل بالعربية. كان في حاجة لمن يفسر له ما يحدث على شاشة السي إن إن، (ليس عندنا قنوات عربية أو كردية) وفهمت بعد جهد أن عدي تعرض لمحاولة اغتيال ببغداد، بينما كان يقوم بجولة ليلية لصيد البنات، وعندما طلب زاد مزيدا من المعلومات ولم أستطع تلبية طلبه أشاح عني مشيرا بيده مستغربا، لأنه كان يعتقد أي أفهم الإنجليزية بشكل أفضل من الذي اكتشفه. الواقع كانت لغتي تتحسن كل يوم لاضطراري لاستخدامها في المركز ولكنها لم تكن بعد في مستوى مايريده زاد. تابعت الخبر والتحليلات لبعض الوقت قبل أن اخضع لسلطان النوم تاركا إياه وحده. كان يضع غالبا زجاجة نبذ أحمر على الرف. أتحدث معه أحيانا حول أسرته والعراق واللجوء هنا. أحاديث قصيرة تساعد على نمو علاقة هادئة بيننا. كان رجلا خمسينيا عنده ثماني بنات في قرية من قرى السليمانية. تحصل على اللجوء السياسي هنا، ويبحث عن بيت للانتقال إليه.

في اليوم التالي تجمع العراقيون في حلقات صغيرة طوال الوقت. في الممر والمطعم والمكتبة والمقهى. يتحدثون عن الحدث مفسرين إياه كل

حسب مايريد. بوهدي ظل محتفظا بمسافته عن الجميع مفضلا الحديث مع بوجواد وابوآثار، ومنتظرا رأي الحزب في الموضوع. أخبرني أنه يكاد لا يصدق. وصف لي حركة عدي وحي المنصور حيث تمت محاولة الاغتيال، شارحا لي كيف يتم عادة ترتيب الحراسات الخاصة بالشخصيات النافذة ليخلص لاتهم صدام حسين نفسه بالواقعة، مبرا ذلك بأن سلوك عدي لم يعد يطاق حتى بالنسبة لوالده، وروى لي كيف أن عدي ذات ليلة توجه للتلفزيون وهو ثمل ليعلن إنقلابه على والده، الذي أمر بغلق كل المرسلات وتركه يكمل مابدأه قبل أن يرجع به الحرس إلى سريره، وهو مستمر في ظنونه التي خيلت له أنه قد أصبح الرئيس الجديد للبلاد.

MR. Negative

لا أحد يعرف اسمه الحقيقي رغم أنه يقوم - أو ربما بسبب ذلك - بواحد من أكثر الأعمال حساسية في المركز. عمله هو إبلاغ ردود وزارة العدل على طلبات اللجوء. يقوم بجولته المعتادة في المساء متنقلا بين القواطع والغرف في هدوء وأدب جم وصبر جمل، متأبطا ملفا أوراقه تقرر المصير، ولأن كثيرا من هذه النتائج تكون سلبية لرفض الوزارة لطلب اللجوء لسبب أو لآخر، أطلق عليه أصحاب الحظ السيء من لاجئيء شرق آسيا وإفريقيا لقب المستر سالب (نيجيف) وانتشر هذا اللقب وصار اسمه الذي يعرف به.

بقامته المتوسطة ووجهه المسالم ونظارته الطبية الصغيرة التي تحدد باقي قسمات وجهه الصغير، وشاربه الدقيق يبدأ المستر نيحيف جولته المسائية التي يترقبها كل سكان المركز. في اليوم المقرر فيه إعلان الردود (تسمى هنا النتائج). يلزم الأغلبية غرفهم في وقت مبكر انتظارا لطرق

بإهم من السيد نجتف حاملا لهم الخير السعيد المنتظر. يدخل بهدوء حيث يتحلق حوله قاطنو الغرفة، ومن صادف في الجوار بصمت وترقب بينما يكون هو منشغلا بإخراج الورقة المطلوبة التي بها القرار، بعد أن يكون قد تأكد من الاسم عدة مرات. يدرك مستر نيچيتف حساسية عمله والأثر السيء الذي تخلفه بلاغاته في كثير من المرات. يحاول جاهدا أن يخفف من ذلك بحركاته المدروسة وابتسامته المواسية وكلماته المشجعة، وهو يبلغ الخير السيء لصاحبه وحتى في حال نقله لخبر سعيد عندما يتحصل أحدهم على الموافقة الإيجابية على طلبه. يبذل مجهودا إضافيا كي يظهر مشاركته في الفرحه بأقل قدر ممكن حفاظا على مشاعر الآخرين الذين بلغهم - أو سيفعل - بالخبر غير المرحب به. في حالة الإيجاب تكتسب عيناه لمعة إضافية وهو يخرج ورقة النتيجة مهنتا اللاجيء بكلمات مغممة هازا كنفه في حركة سريعة يهتز لها معطفه الرسمي الأزرق، ومعبرا بها عن حواره لنقله هذه البشارة الطيبة. في كل مرة ينقل فيها قرار الرفض ترتفع حوله صرخات الاستهجان والاعتراض، وفي كل مرة يستطيع تهدئة النفوس بطريقة أو بأخرى متحينا الفرصة المناسبة للخروج سريعا، قبل استفحال الوضع مخلفا وراءه قلبا أو أكثر كسيرا.

أراقبه وهو يقوم بتلك الجولة متخيلا نوع الخبر الذي سينقله لي ورد الفعل الذي ساقبله به. من النادر أن تراه يمشي وحيدا في جولته تلك، فدائما يحوطه أكثر من شخص متلفه لمعرفة الغرف التي سيقصدها هذه المرة، ورغم أنه كان شحيحا في إعطاء بيانات رحلته التي كانت تمثل سلطة لأبأس بها، فقد كانت المعلومات البسيطة المتسربة كفيلة بالوصول لأصحابها، والتأكد ما إذا كانوا في غرفهم أم يلزم الإتيان بهم في لحظات معدودة لأسرهم، بينما تزيد المعلومات التي لم

يكشفها المستر نيجيتف بعد من الإثارة، ويبقى الكثيرون في غرفهم مترقبين وهم يتطلعون من الأبواب والنوافذ ليرصدوا مسار تلك الجولة، وأيديهم على قلوبهم فرما يكون دورهم قد حان اليوم.

2

- تي شرت حلو.
 - اوه..شكرا، صاحباتي يرين العكس.
 - كيف؟.
 - يقولون أن صدي صار اكبر الآن.
- أحب هذه الوداعة والتورية القادرة على إغواء الشيطان ذاته، فعلا كبر صدر رحاب، تربى على يدي وصار يعلن عن نفسه خلف التي شرت الأصفر. تظهر حلمته كحبي حمص بهما قدرة كافية لتحدي العض.
- وقفت بجانب النافذة تعيد ترتيب فازه ورد. حركاتها المحترفة تصف أولا الورد الصغير ثم تضع الوردات الكبيرة جانب الفوهة. بدت لي منشغلة بأمر ما. الفنيلا الصفراء تنسكب في تنورة طويلة تمنحها مسحة عازفة بيانو من العصور الوسطى. أتجه نحوها بهدوء حذر بقصد أن أشتت الموضوع الذي يشغل ذهنها. أشم عطر الرامب الذي تحبه لأنه يكمل شخصيتها الهادئة، ويضيف عليها مسحة خفية من الحضور القوي. أضع يدي على الكتفين وأأمل الصدر الذي شب عن الطوق وأعلن تمرده بارزا للامام. تدور بحركة ناعمة وتنفلت مني باتجاه مكتبها وتنقر جهازها نقرات سريعة. لا أعرف هل كتبت شيئا أم أنها أقفلته. مددت يدي نحو الحمامتين الرابضتين في الصدر وضغطت برقة وثبات. رف جفنها وأطلقت تأوها مكبوتا ذكرها ولا بد بأنها هي من فتحت

حديث الصدر. تبدو منقسمة بين أمرين. تريد الحديث في موضوع يشغلها ولكنها تريد أيضا تريد اغتنام الوقت القصير للمشاركة في المتعة التي حرصت عليها، أدور وراءها وأحاييلها كما أحاييل هذه البلاد الغامضة. أقبل رأسها المنشغل وأحس ببعض الأرتقاء يسري داخلها. بعد أن ضمنتها لصدري وأحسست باستقرار حمامتيها الدافئتين في العش بدت وكأنها انتبهت من رحلة قصيرة ورفعت رأسها نحوي وتنفست بعمق. قبلت خاتم فمها بتأن ولين ثم بحرارة وعضضت بقضمات كذوبة شفتها السفلى. رفعت يديها وجذبتني وغمستني في مبتدأ العنق وبعين نصف مفتوحة أطبقت على الحمامتين وهما في وضع من يريد الفرار والخروج للهواء. أضغط برفق. بحنو وتوسل فتطلق مونولوجا صغيرا مشتتا تحت سلطة اللذة: أنت حبيبي أنت كذاب..أنت مكار.. فاشل.. عابر دخل مكتبي بالصدفة...

ينهض الجسد الجسد الباهر مواصلا همسه المخبول. المرتب. المشبوك، الذي يخطر في التو. الجسد الذي أتخيله في عدة أوضاع وأنا قادم في كل مرة، برأسه الصغير وصدره العامر، أصدع قمتي بهدوء وممتعة، إنها لي الآن، التي كانت تصفف الورد بيتي شيرتها الأصفر العاجز عن كبح تفجر صدرها الذي تربى على يدي.

نجلس على الكرسي. تبسم. بمكر واستسلام ورغبة في الاحتلال، أعيد رأسي لشق الصدر حيث يلتقي فمها، أشم عبير عمري آتيا من العمق، من الداخل، أحب هذا الوضع وتعرف رحاب دائما كيف تتوأطأ معي للوصول إليه. أدفن رأسي في الفردوس وأبقى صامتا أشم ما بين النهرين رائحة تشبه الحليب الطازج في الصباح، وتشبه رائحة العمر المكثف. تمر يدها خلفي حتى تصطدم بحافة الكرسي. تغمض عينيها علامة على بدء سفر. أرسل يدي نحو مكائهما الأليف لتنزعاً

حمالة الصدر بوتيرة مرتعشة وساخنة. تبرز الحمامتان مباشرة في وجهي. يداي تعرفان الطريق جيدا. أجوس برفق باحثا عن الحلمة التي تتخلى عن قسوتها كلما داعبتها أصابعي. تمرق يداها خلف المسند وتهصرني. بدت قوية ومحتفلة بعودتها سالمة من مكان بعيد. نقف متواجهين تغمرني بشعرها وتنورقها الهفهافة وتأخذ الزمام. تمسحني برفق. تشمني مرسله حمما صغيرة متتالية من أنفاسها. تمر علي ذهابا وإيابا مرات، منتعضا وعلى شيء من القسوة غير الخطرة، أهم بالتنورة التي ترتفع مثل ستار ينفرج عن جزيرة للمتعة، تأخذني إليها، فيها: أنت كلب، أنت حلو، صغير مثل ولد، قلبك ميت...

تجذبني مبتسمة واثقة ومليئة بالمتعة نصفها عار ونهداها حران لترتمي سويا على الأرض.

تتكون ليبيا من عرقين هما العرب والأمازيغ ولكن اجتماعيا يمكن تقسيم سكانها إلى ثلاث فئات. البدو والريفيون ثم المدينيون وبعد ذلك العائدون، ويطلق لفظ "العائدون" على أولئك الليبيين الذين هاجروا سنوات الاحتلال الإيطالي إلى خارج ليبيا، وخاصة نحو تونس ومصر وتشاد، حيث استقروا ومارس أغلبهم هناك أعمالا هامشية ثم بدأوا رحلة العودة بعد إعلان استقلال ليبيا، وخاصة في الستينات وأول السبعينات، وخضع هؤلاء العائدون لتصنيف سلبي من بقية المجتمع الذي كان يراقب العادات التي جلبوها من بلدان المهجر بكثير من الاستياء، رغم أنها لم تكن مختلفة بشكل كبير عن عادات الذين بقوا في ليبيا، ولكنها اتخذت كمبرر للتمييز الخفي والعلني أحيانا، وكرد فعل اتهامي بسبب مغادرتهم أثناء الحرب وتركهم للبلاد وهي في حاجة إليهم، كما يزعم الذين بقوا. طبعاً هذا مجرد وهم فهؤلاء هاجروا بعد أن ضاقت بهم سبل المعيشة، وبعد أن قاموا بأدوار كبيرة في حركة

مقاومة الاحتلال الطلياني، لكن بعد أن ضاقت الحياة إثر حركة التأميمات ومصادرة الأملاك الخاصة والزحف الثوري الذي طاول كل المناحي ازداد الشعور بالتمييز ضد العائدين، الذين بدورهم كانوا يشعرون بذلك ويتحركون في الأحياء الهامشية التي جمعتهم مع البدو وسكان الأرياف النازحين نحو المدن الكبرى، وظلت آثار هذه النظرة محفورة في دواخلهم حتى بعد تخطي الجيلين الثاني والثالث للحواجز العملية، ووصلوا إلى مناصب مختلفة في الدولة التي لم تكن تعير هذه المسألة اهتماما كبيرا لأنها كانت تشترط الولاء للثورة، وقيادتها كطريق وحيد للنفاذ بين الطبقات، وتحسين ظروف الحياة والانتقال بها إلى مستويات أفضل.

بالطبع كان البدو أيضا يتعرضون لحمولات من السخرية محملة بنكات وقصص مهينة، ولكنهم في نهاية الأمر كانوا يعتبرون طبقة عازلة بين الطبقتين، وفي ورشة ناصر ديهوم بسوق الثلاثاء كنا نشهد بين الحين والآخر صورا من هذا الصراع الخفي الذي يتمثل في أشكال عدة.

كان خليفة الممول ينتمي لعائلة طرابلسية عريقة احتل أفرادها مناصب مهمة في العصر الإيطالي والملكي، بفضل تعليمها الجيد ومعرفتها بأحوال العصر، ومرونتها في التعامل مع الظروف المختلفة التي كان الكثير منها حادا وصعب التقدير، ولكن فيما بعد بدأت هذه العوائل تفقد مكانتها إثر التغيير الثوري الذي حصل أواخر الستينات على يد مجموعة من الضباط البدو والقرويين. كان أغلب ضباط الانقلاب من أصول بدوية وقروية ومنهم أيضا بعض العائدين من المهجر.

أما منحي المبروك فهو من الجيل الثاني لعائلة عادت من تونس في أواخر الستينات. واصل تعليمه بتفوق حتى تخرج من قسم الاقتصاد

والعلوم السياسية بطرابلس، وبدأ في تسلق السلم الوظيفي حتى وصل لمنصب أستاذ جامعي بجامعة الفاتح، وإمتلك مزرعة صغيرة على طريق المطار بثمان زهيد، ضمن مشروع أقامته الثورة في منتصف الثمانينات ووزعت خلاله قطع أراض شبه مستصلحة لفئة من موظفين كبار، وبعض المحظوظين وثلة من البيروقراطيين الذين يعملون على مساعدة آلة الثورة التي كانت منشغلة بتصفية أعدائها، وتوفير الحد الأدنى من الخدمات للمجتمع كي يستطيع الناس المضي إلى اليوم التالي، وتواصل حياتها في انتظار استقرار الثورة وتعميم الخير الذي وعدت به على الجميع، ورغم أن حصوله على تلك المزرعة أتى في الغالب عبر علاقاته الجامعية التي مكنته من الترشح باسم الجامعة التي خصص لها عدة مزارع بحكم وجود قوة ثورية تستحق التكريم، وإذا نظرنا إلى كيف تسير الأمور هنا فلا بد أن المنجي غض النظر عن بعض الأشياء كما يفعل الكثيرون حتى وصل لمرتبة الترشيح، لكن لم يعرف عنه قط أنه تسبب في أذى مباشر لأحد، رغم أن هذا السيناريو هو الأقرب إلا أن الممول لم يغفر أبداً للمنجي هذا الأمر.

يتمتع منجي المبروك بخفة دم نادرة وكأنه مصنع للضحك ينتج كل أنواع السخرية، وحتى شكله الخارجي كان منسجماً مع روحه المرحية الساخرة بقامته النحيفة الطويلة ووجهه الوسيم الذي يتوسط رأساً صغيرة لا تتوقف عن الحركة. جمع جسده الجمال والقبح في نفس الوقت وحملت روحه تصميمات متواصلاً على تخطي كل الحواجز بالضحك، والحيل الصغيرة والانحناء وقت الحاجة على طيبة حقيقية تهب للمساعدة في كل وقت، ولكن هذه الصفات لم تكن تقنع الممول الذي استمر في تصنيفه كمواطن تونسي يتدخل في الشؤون المحلية للبلد، وييدي آراء تخل بوضعه كضيف على الدولة، ويجب التفكير في حالة

تغير النظام جدياً في محاكمته كمحتل يمتلك مزرعة لا يجب أن تمنح إلا للمواطنين، وزاد من حقن الممول - إضافة لمنافسة المنجي له في التنكيت وخفة دم التعليقات - أن المنجي عبر بهذه المواهب إلى قلب فتاة من عائلة عريقة أقنعت بدورها أهلها فتزوجته، وانتقلت معه إلى المزرعة الصغيرة. هذا أمر اعتبره الممول عملية تنويم مغناطيسية نتيجتها عودة فتاة من المدن إلى الفلاحة، ورغم أن هذه النظرة لم تكن من ثقافة الممول إلا أنه كان يصر عليها فيما يخص المنجي المبروك، الذي كان مجرد وجوده يدفعه إلى التخلي عن الكثير من روح التسامح، والمعارف التي تحصل عليها من أسفاره وتجاربه، فهو في هذا الموقف كان ينسى كل شيء وتلبسه روح دون كيخوتيي يعتقد خلالها أن الدفاع عن البلاد أولى من كل شيء آخر. في الواقع الحقيقة التي تكمن وراء هذا الموقف من المنجي مردها للمرارة التي يشعر بها الممول جراء المظالم التي تعرض لها، واعتبر أن سببها كل هؤلاء الذين زحفوا على مدينته واستباحوا كل منجزاتها عبر التاريخ، معتبراً أن المنجي من أهم ممثليهم وبالأحرى ممثلهم في الورشة، وبعض الجلسات ذات الطابع الثقافي التي تعقد بين حين وآخر.

مر علي بالجملة في الخامسة مساءً حكيم بركة، اتصل ظهراً ليخبرني بمروره علي. حكيم في الأساس مخرج مسرحي خريج دورة في المحر ترك المهنة وفضل العمل في شركة الغزال العربي الحكومية لنقل الركاب بين المدن. وظيفته في المكتب الإعلامي للشركة. يقدم أعمالاً فنية في فترات متباعدة. يسكن في تاجوراء على ضواحي طرابلس ويأتي للورشة بانتظام تقريباً كل خميس، حيث يقضي السهرة مع الموجودين. قال إنه يريدني في موضوع عمل، وعندما التفتينا تبين لي أنه مكلف من الشركة بأنجاز شريط تسجيلي يحوي مجموعة أغان وفقرات نثرية بقصد تسليية

الركاب في الرحلات الطويلة، وعمل دعاية إضافية للشركة. عرض علي كتابة كلام الشريط مقابل مبلغ معقول. سألته لماذا لا يفتح السائق المسجل أو الراديو للمسافرين، فقال إن المدير يقول بأن زمن الرحلة في المتوسط عشر ساعات والكاسيت المنتظر يغطي ساعة ونصف ليغطي بداية الرحلة. شكرته على عرضه الذي سيوفر لي مبلغا ماليا سيأتي في وقته مهما تأخر، وسألته عمن سيكون قارئ التعليق في الشريط فأجاب:

— ساسية حديد.

كانت ساسية حديد الوجه الرئيسي لنشرة التاسعة والنصف بالتلفزيون لسنوات قبل أن تنسحب للراديو. تملك صوتا رخيما هادئا. في الواقع هي لم تنسحب بل سحبت للخلف بعد قصة شهيرة، كانت على علاقة مع ضابط كبير من ضباط الثورة، وكانت العشيقة الرسمية له فترة من الزمن تلتقيه في بيت مخصص لهما يقع على حافة حي السراج، قبل أن يصبح حيا مكتظا بالأغنياء الجدد من ضباط الجيش والأمن وكبار قادة اللجان الثورية. كانت ساسية تتميز بجمال كلاسيكي خارق. العينان الواسعتان والشعر الطويل، والمؤخرة البارزة والبشرة الخمرية، ويتوج كل ذلك بعنق مرمري يشبه عنق وردة الجزائرية.

في ذلك البيت تشهد أوقاتها أنواعا من الحب والتسالي. كانت المذيعة تمسك فيها بذكر الضابط الكبير كأنه مايك وتبدأ في قراءة نشرة أخبار داعرة، بينما تلامس شفاتها الحشفة بين الجملة والأخرى، قبل أن تطبق عليه في نوبة من العشق المحموم، وعندما تسربت أخبار تلك النشرة التي كانت تسخر فيها من كل الأخبار التي تقدمها في التلفزيون، عاكسة إياها لقلب من أخبار فضائح الكبار وأسرارهم

الخاصة التي كان عشيقها يخبرها بها. اختفى الضابط فجأة من الصورة ولم يظهر بعد ذلك، وتم سحبها من التلفزيون لتعيش على الهامش فترة قبل أن يتوسط لها وتعود للراديو مع تعليمات مشددة أن لا تقرب نشرة الأخبار.

ناقشت حكيم فيما خطر لي حول طلبه واتفقنا على الخطوات والمدة التي يجب أن يسلم فيها العمل مكتوبا، وخرجنا سويا في السادسة نحو مصدر لبيع البوخة نتعامل معه عادة اسمه زوبيل في حي فشلوم العريق جنوب وسط المدينة من ناحية الشرق. وصلنا هناك مع المغرب وهو الوقت الذي تنشط فيه حركة البيع. أوقفنا سيارتنا في ركن يرانا فيه زوبيل وجلسنا ننتظر في صمت. كانت بعض السيارات تمر في الرقاق الضيق حيث يقف زوبيل يناول الطلب لليد الممدودة من النافذة، قبل أن تمضي السيارة من جديد بينما يوقف البعض سيارته بعيدا ويأتي على رجليه ويتبادل بعض الجمل معه قبل أن يأخذ غرضه. هؤلاء هم عادة الزبائن المميزون إذ تعتبر العلاقة مع بائع البوخة من العلاقات ذات الشأن. توجه نحونا زوبيل أول ما سنحت الفرصة، وتحدث معنا قليلا قبل أن يعود ليحلب لنا طلبنا. علاقتي بالزوبيل جيدة منذ سنتين تقريبا. عندما مررت عليه مع الناهي ووهاب واشترينا منه خمس لترات بوخة. عاد بالحقيبة الصغيرة التي أعطيتها إياه وبها البضاعة، وعندما وصلنا مكانا اكتشفنا أنه نسي النقود داخلها. ربما بسبب كثرة الزبائن في ذلك اليوم. أثناء السكرة توزعت الآراء حول النقود وطالب بعض الحاضرين التصرف فيها على اعتبار أن زوبيل لا يعرف بالموضوع، ولكن أنا ووهاب والناهي أصررنا على إرجاعها له، وهكذا كسبنا صداقة الرجل وصار يخصصنا بالبضاعة الجيدة وينصحنا أين نجدها مع توصية خاصة عندما لا تكون عنده.

أخذنا شربنا وتوجهنا نحو الورشة في الطرف المقابل من المدينة، وهناك وجدنا وهاب الذي استلم البضاعة وأجرى اللازم لإعدادها للتناول، بينما كان ناصر مشغولا بإعداد المزة وجلسنا بجانب سوف والمنجي وصديق لناصر يملك المحل المجاور، والتحق بنا بعد قليل الممول وصلاح الكاشف وخليل فيتور الذي جاء من بنغازي لمتابعة بعض أمور المجلة. بدأ وهاب في تدوير الكأس الصغيرة دورات سريعة حتى نصل لحالة معقولة ننفصل فيها عن أحداث النهار. كانت هذه طريقته قبل أن يطيء في التوزيع بعد ذلك للراحة، وإعطاء فرصة لمن يريد أن يدخن من سيجارة الحشيش، وهو مافعلناه أنا وهو والممول والكاشف وشاركنا المنجي بعد أن أخرج بدروه قطعة حشيش، ورمى بها على الطاولة اتقاء لمناكفة الممول أما سوف وخليل فبقيا في انتظار تجدد الدور يراقبان بهدوء. سأل ناصر عن أحوال المجلة.

- ماشي حالها.. مارأيك انت؟ رد عليه الكاشف متسائلا بدوره.
- بالنظر إلى عمرها حققت أكثر من المتوقع.
- الأعداد الأربعة التي صدرت حتى الآن متميزة وسمعت بأنه ليس لها مرتجعات. عقب سوف الذي كان مطلعاً على ما يجري ولكنه أراد استمرار الحديث فقدم هذه المساهمة التحريضية.
- نعم، لامرتجعات تذكر. قال خليل وهو يحرك عكازه، لكن المشاكل تكبر مع كل اصدار.
- كيف؟ قال ناصر.
- كما تعرف، ملف العمارة الناقصة فتح العين علينا ثم جاء عدد التعليم الذي أثار حنق العديد من المسؤولين ورغم اني نصحت بالتعقل إلا ان اصدار عدد حوادث السيارات فاقم المسألة إضافة للمقالات التي تخضع في كل مرة لتأيولات مزعجة.

- لا أريد ان اكون متشائما لكن أرى ان عمرها صار قصيرا، تدخل الممول ضاغطا بحذر على الكلمات.
- للأسف مهما نكن حذرين فلا مفر من أن ينهز عش دباير هنا أو هناك. قال وهاب الذي كان يداعب فوهة القنينة بأصابعه.
- نعم، عقب سوف، البلد صارت مجاميع تربطها مصالح مستعدة للدفاع عنها، وهذا جيد لولا ان هذه الانجاميع طفيلية في أغلبها وغير مؤهلة للحكم على الأمور. لها القدرة على التدخل حيال ما ترى أنه يمس سيادتها ومصدر نفوذها وهذا يسير بالجلة نحو منطقة معزولة بلا أنصار قادرين على المساعدة.
- نعيش في مجتمع لازال يحكم بالغريزة، قال المنجي واستطرد. لازلنا نقضي يومنا في التفكير في المحسوس. الجنس يشكل اغلب منطلقاتنا. نحن شعب يعيش على العادة السرية، ليس فقط بالمعنى الجنسي ولكن هذه العادة صارت تصاحبنا في مختلف انماط سلوكنا. نحن نفكر ونتعامل ونذهب ونعود بشكل سري. إننا بشكل ما مجتمع سري مكبوت ودعك من هذه الاجساد التي تتحرك بشكل ظاهر، نحن مجتمع لامرئي في الواقع.
- صحيح لحد كبير، قال الممول وهو يداعب علبة سجائره فوق الطاولة كأنها حجر دومينو كبير. نحن ايضا مجتمع منافق من طراز رفيع نتحدث بشكل علمي في الاماكن الضيقة ونمارس في العلن ادوارا مرسومة لنا بدقة.
- بل اننا نجتهد في إضافة خطوط اخرى لهذه الادوار كي نقفل الدائرة على انفسنا، قال خليل وهو يواصل تحريك عصاه ببطء.
- ولأنه ظن أن تلميحه لم يصل في المرة الأولى نظر الممول مباشرة للمنجي وقال:

- تقول نحن، من نحن، هل سألت نفسك عن التقارير التي تكتبها بخصوص احوال الجامعة؟ هل اوردت فيها ما تقوله هنا بصوت عال؟ على حد علمي توصيف نحن لاينطبق على كثيرين ممن يقولونه.

تكهرت الجلسة بعض الشيء فسارع وهاب لسكب الدور من جديد، لكن المنجي استلم الكلام مجددا:

- انا لا اكتب تقارير بل آراء اسلمها للمسؤولين عن الجامعة تتحدث عن الحالة التعليمية ومستوى الطلبة واقتراحات خاصة بهذا الشأن.

- لو كان عندك رأي لما كنت الآن تدرس في الجامعة. عقب الممول بعصية، لكن على من اقرأ مزاميري هذه دولة الأغراب والبدونة والفوضى الشاملة.

تدخل سوف لوقف المعركة التي كانت على وشك الوقوع:

- اعتقد ان علينا تخفيف الحدة، فيما نقول ونكتب ونناقش، الأجواء ملغمة بما يكفي.

وهكذا أنقذت الجلسة لحين وأخذ حكيم بركة الحديث وحكى عن المهرجان الوطني للمسرح، الذي سيستأنف انعقاده بعد توقف طويل، وتساءل إذا ما كانت المجلة معنية بهذا الحدث فيما واصل وهاب توزيع البوخة، واستلمت أنا مهمة تفتيت الحشيش وحشوه في السجائر، حتى همد الحضور وراق المزاج وتقلصت العدوانية وانتقلت الجلسة إلى مزاج مختلف.

كانت جلسات الورشة متنفسا للحديث ومكانا لراحة النفس ولكنها أيضا لا تخلو من شحنات تريد التفريغ بعد أن تفيض على الروح، وهذا يهدد دائما بتحويلها لساحة تصفية حسابات هامشية صغيرة، ولولا وجود سوف الذى يتمتع بسلطات روحية كبيرة على

الحضور، ووهاب الذي يمتص كل الصدمات وهو يلعب دور باخوس المعطاء(إله الخمر عند الأغريق) وكانت جلسة الليلة قد انتهت وهي في بدايتها، أما أنا فبقيت صامتا أغلب الوقت مفكرا في المجلة ومستقبلها القريب وماضيها الطازج. كنا قد أبحرنا ملفا عن التعليم وآخر عن حوادث الطرق انطلقنا فيه مما انتهى اليه وفد ياباني متخصص، أجرى دراسة شبه سرية عن سبب تصاعد أرقام الحوادث وضحاياها. جاء الوفد بناء على تعاون مشترك عن طريق شركات السيارات اليابانية التي تكتسح السوق الليبي. خشيت الشركات عندما قرأت إحصائيات الحوادث على سمعتها، وعرضت على السلطات فكرة إجراء دراسة تبحث في الأمر. قام الفنيون بمسح أجزاء كبيرة من البلد والسيارات والطرق ثم قدم تقريراً بالخصوص. قال التقرير إنه لاوجود لسبب ظاهر وجلي لهذه الحوادث المميتة، فرغم تآكل البنية التحتية للطرق وانتهاء صلاحية جزء من المركبات المستعملة مما يساهم في إرتكاب عدد من هذه الحوادث إلا أنهم لاحظوا أن السائق الليبي يمتلك روحاً غامضة، ويكاد يتحول لكائن مختلف عندما يكون خلف عجلة القيادة. كان تقريراً مهذباً يراعي أيضاً مصالح شركات السيارات وعدم إغضاب المسؤولين المحليين، ولكنه أشار بما يكفي لعامل نفسي يدفع الناس لنوع من الانتحار الغامض، وهو ما حاولت المجلة الإجابة عليه في تحقيقها الذي ركز على العامل النفسي، والضغط التي تدفع الناس لهذا السلوك الشرس في القيادة، وربطه بالسلوك اليومي في باقي مناحي الحياة. كانت فكرة جيدة نوعاً ما واستقطبت قراء كثر والكثير من الأعداء أيضاً، الذين ضاقوا بما اعتبروه لمزا موجهة للثورة التي تضغط على أعصاب الناس بكل اتجاه. كانوا يتحسرون على موتى الحوادث، ليس لأنهم ماتوا ولكن لأن ذلك تم في حوادث تافهة بدلا من أن يموتوا على جبهات النضال.

عندما عدت من أفكاري كان الممول يتحدث عن ثورة الاتصالات وكيف أن أفضل ما حدث هو غفلة السلطات، وهي في عز تشنجهما عن منع الصحون اللاقطة للبت الفضائي، وكيف أن هذا البث سيساهم في تنمية الوعي مستطردا:

- أوكد لكم أن الكثير من الناس كانوا يصدقون الهراء الذي يبثه التلفزيون الرسمي، ويعتقدون أن العالم يعيش مثلنا في نعيم النظرية العالمية الثالثة، وسلطة الشعب معطلا أشغاله كل عام عدة اسابيع لعقد المؤتمرات الشعبية، وتخصيص الوقت لقراءة تلك التقارير التي يكتبها بيرقراطيون بلا ضمير، بحجة تنوير الجماهير وهي تعقد جلساتها لتقرير مصيرها، أما اليوم فقد بدأت العامة تدرك أن هذا الهراء لن يقنع سمكة غبية فما بالك ببشر يتابعون ما يجري في العالم، وهم في بيوتهم يشربون الشاي أو حتى البوخة.

- فكرة ممتازة ربما علينا أن نتناوّلها في عدد قادم، نطق الكاشف بعينين شبه مغلقتين.

- نعم، لحسن الحظ لم تستفد أجهزتنا من تجربة صدام حسين الذي منع هذه البدعة العلمية. علق سوف مؤيدا، فانتشى الممول بهذا الكلام وحاول الاستفاضة غير ان خليل قاطعه بلطف خشية ان يستمر في موضوع تقارير البيروقراطية واستلم الحديث:

- ان ذلك من حسن الحظ، صحيح ان الصحن اللاقط يكلف ثمنا باهضا ولكن مع الأيام سيكون سعره في المتناول وتتسع رقعة المشاهدة وتقلص رقعة الجهل، المعرفة بالشيء هي أولى خطوات تجاوزه حتى وان كانت عملية التجاوز بطيئة وساذجة في بداياتها. كان وهاب صامتا حتى تلك اللحظة التي رآها مناسبة للتدخل:

- لقد تحصلت على نسخة من جريدة الغارديان وقرأت فيها عن فتح علمي جديد يمكنك خلاله أن تتطلع على اخبار العالم وانت امام جهاز الكمبيوتر اسمه انترنت.

- كيف؟ ارتفعت أصواتنا الفضولية.

- ياسيدي مكتوب ان هذا النظام كان من اكتشافات الجيش الاميركي منذ عشرين سنة، استخدمه في ايصال رسائله السرية وتبادل المعلومات المختلفة ذات الحساسية الخاصة. لا أعرف بالضبط الطريقة ولكن كما فهمت يمكنك ان تقر الجرائد والكتب وتدخل على المكتبات العالمية وأيضا تبعث ببريدك عبر برنامج خاص ليصل في ثواني للطرف الآخر مهما كان مكانه بعيدا.

- ليحفظ الله النصارى ويسخرهم لما فيه خير البشرية، قال الممول محتفلا بالخبر الذي رفع من معنويات السهرة وهو يفرك قطعة صغيرة من الحشيش قبل أن يمررها نحوي لأكمل تفتيتها.

- اي والله.

- اي والله.

ومن الانترنت عدنا للاختراع الجديد الذي اسمه موبايل، كانت أجهزة منه قد وصلت للدولة ومنحت للمقرين، وأخذ من رآه يروي كيفية عمله، وعند من رآه، وهل يستطيع الموبايل الاتصال بالهاتف الأرضي أم لا.

خرجنا من المكان قرابة الواحدة ليلا، كان الجو منعشا حيث داعبتنا نسيمات بحرية أول خروجنا فأزالت بعضا من الوسن والخدر الذي أصابنا من الكمية الكبيرة التي شربنا ودخنا وتفرقنا كل في طريقه. سعدت مع وهاب وخليل في اتجاه الفندق حيث يقيم. سلكنا شوارع خلفية بحذر حتى كدنا نصل هدفنا عندما أوقف وهاب

السيارة وأطفأ الأضواء وأشار نحو نقطة تتحرك في الشارع نصف المضيء.

ركزت النظر للحظات وأنا أقاوم السرحان والتداعي فرأيت جسدا ضخما يدب بهدوء في سير غير مستقيم تحوطه كتل من السواد بعضها وكأنها تمشي بجانبه. لقد كان العقيد خميس درهوب يقوم بمهمته الليلية في جمع أكياس القمامة من الشارع وتكديسها أمام البيت الذي يقيم فيه مع أمه. كان قد مسح الطرف القصي من الشارع وجاء دور الطرف الذي يلينا فحبسنا أنفاسنا ونحن نراقب المشهد، وهو يقترب منا بقامته المهيبة التي تعتصمها السكر الشديد حتى وقف أمام أول بيت في الناحية وتناول الكيس وهو يتجه للبيت المحاذي حيث تناول الكيس الثاني. واضح أنه طور تكتيكا خاصا إذ ربط الكيسين على جانبيه، وسار متناولا اثنين آخرين عائدا إلى باب بيته ليضعهم فوق الأكياس الأخرى التي بدت لنا مرتبة وفق نظام لا بأس به، ثم عاد من جديد باتجاهنا، توقف، عندها كتمنا أنفاسنا خوفا من أن يكون قد أحس بوجودنا ولكنه أخرج سيجارة وأشعلها، وسحب أنفاسا متلاحقة ببطء كمن يستريح وسط مهمته قبل أن يتناول أكياسه من جديد ويتجه لنقطة التجميع ثانية.

كان يفعل ذلك كل ليلة بنظام ودقة وترتيب مستمر ولا بد من خبرته الطويلة في العمل الأمني، حيث لكل خطوة ترتيب معين يسبقها ويعقبها في سلسلة متعارف عليها حتى يصل لهدفه النهائي.

العقيد خميس ضابط محترف أي أنه ليس من أولئك الضباط الثوريين الذين تخرجوا من دورات سريعة ولهم هدف عقائدي يخص الثورة وحمايتها، لكنه قدم كل خبراته وجهوده في خدمة الهدف ذاته. معروف بقسوته واسمه معروف على نطاق واسع وأعماله كذلك، ومن

يراه في أثناء العمل لا يصدق أنه نفس الشخص الذي يجمع القمامة أمام بيته كل ليلة كما يفعل الآن. على الأرجح يفعل ذلك تحت إحساس من اللاوعي على ما يرتكبه في عمله أو ربما هو عقاب سماوي معجل له في الدنيا. في كل ليلة تنهض والدته لتصلي الفجر ثم تخرج لتفرق هذه الأكياس اللعينة من جديد قبل أن يأتي العمال لجمعها في الصباح. كانت عادة ابنها بمثابة عذاب يومي لها.

أكمل درهوب سيجارته واستعد لمواصلة مهمته الليلية التي يأمره بها السكر الشديد وتعذيب ما تبقى من ضمير.

- مسكينة الوالدة. قال خليل متنهدا.

- مسكينة البلاد. رد وهاب وهو يتنفس بعمق.

وواصلنا المشوار.

دخلت فندق باب البحر الواحدة ظهرا بناء على موعد مع حكيم الذي سيأتي رفقة ساسية حديد للاتفاق على بعض التفاصيل. جلست في البهو الكبير أنتظر وسط حركة نشطة لقرب وجبة الغذاء كما حدثت. كان هناك جمع من زبائن شبه دائمين. لمحت زيادة الحماس الذي مر على إقامته في الفندق سنوات. انشق عن فصيله اللبناني وشكل تنظيمًا باسم اللجان الثورية اللبنانية. فضل إدارته من الفندق. كان يتدحرج بجسمه المدور ورأسه المسطح من الخلف باتجاه المقهى الصغير في الركن انتظارا للوجبة، وكان هناك أيضا الشاعر أحمد الاسمر وهو خلطة ليبية مصرية سودانية. كان مشروعا لشاعر متميز لكنه غرق في المدح وامتنع العمل الدبلوماسي مكافأة له على قصائده المتينة التي يلقيها في المناسبات الكبيرة. كان يسير متلفتا في حذر بسبب عقدة دفينية تدفعه للاعتقاد أن الجميع يراقب قامته القصيرة وملاحه الفاسية. كنت قد أجريت معه مقابلة طويلة في أيام انبهاري به ومع الأيام بدأت

أسام من طريقته في التبجح بمعرفته للأشخاص المهمين في البلد، وحديثه المكرر عن الاستشارات التي يطلبونها منه ونميمته المتواصلة لشعراء أحبهم مثل الماغوط وأنسي الحاج. طلبت مكياتا وجلست أتظر حتى جاء حكيم ومرافقته التي لم أرها منذ زمن اختفائها من التلفزيون. اكتسبت لحظة من الخجل الدائم ونظرة مكسورة يصاحبها ارتباك واضح من التواجد في الأماكن العامة.

بقينا حوالي نصف ساعة سألتها خلالها عن نوع الفقرات والفواصل التي ترتاح لإدائها في الشريط المزمع إنتاجه، كما تحدثنا قليلا عن عملها وشاركني حكيم الإطراء والثناء عليها. ظللت أجاهد طوال الوقت لطرد الصور التي كانت تهاجمني في حضورها وتصور لي أوضاعا مختلفة عن علاقتها بذلك الضابط الشرس الذي اختفى دون أن يعرف أحد مصيره بالتحديد.

بعد الموعد توجهت من جديد لمبنى الرابطة بعد ان أحضرت معي بعض السندويشات، وعكفت على تصفح المواد الجاهزة من العدد. فتحت النافذة طلبا لنسمة البحر وشغلت الراديو ثم نزلت للدور الارضي وصنعت كأس شاي وجلبت قنينة ماء بارد، وانهمكت في العمل منتهزا فرصة وجودي وحيدا حتى المساء. كنا قد اتفقنا في الاجتماع الشهري على أن يكون موضوع العدد الرئيسي عن المخدرات بعد نقاش طويل. كانت بداية الموضوع اقتراح من سوف الوداني الذي جلب لنا رسالة رسمية موقعة من ضابط كبير مسئول عن مكافحة المخدرات. يقول فيها بأنه بناء على التوجيهات العليا يطلب من كل وحدة تابعة له العمل على إبقاء الكميات المتوفرة في السوق في المستوى المتعارف عليه، وينبه بشدة على عدم تجاوز هذا القدر في الوقت الحاضر التزاما بالتوجيهات الصادرة. كان الأمر يمثل خبطة

صحفية جيدة لكن في ظروف مجلتنا لم يكن ذلك بالإمكان ولهذا قررنا بداية عدم نشر الوثيقة. كان الأهم هو بقاء المجلة وذلك يكون بمواصلة المناورة الضيقة المتاحة، وهكذا منذ البداية خسرتنا الهدف الأساسي من التحقيق وهو البحث عن صاحب التوجيه، والسياسة الحقيقية للدولة تجاه المخدرات وهل هناك توجه بالسماح لها بالدخول ولماذا ومن وإلى متى؟.

انقسم الرأي بين عمل تحقيق عام يتناول الظاهرة وطرق ومنافذ تسربها وتوزيعها، وبين رأي آخر حاولت الدفاع عنه صحبة خليل فيتور شددنا فيه على ضرورة الفصل بين نوعين من المخدرات. الخفيفة مثل الحشيش والبانغو وأخرى تؤدي للإدمان وما يترتب عليه من مأس مثل الهيروين، وقلنا إننا نرى أن الموقف الإخلاقي من الخفيفة يعتبر خطأ شائعا علينا أن نكون صرحاء مع انفسنا، ونعترف به ولكن بعد مداورات طويلة وشاقة اتفقنا على عمل تحقيق عام كلفنا به محررا متعاوننا، بعد أن وفرنا له عبر علاقاتنا ما يلزم من ضيوف وحالات إدمان ومعلومات عن المنافذ.

جلست لمراجعة التحقيق ووضع العناوين له ثم قلبت عدة مواد أخرى بينها بعض المقالات، وبعد أن انتهيت من ذلك أخذت مقالة وهاب التي ستكون في الصفحة الأخيرة هذا العدد وقربت الكرسي من النافذة، واضعا قدمي على الطاولة المجاورة وجلست أقرأ فيها لمجرد المتعة الشخصية إذ إننا تعودنا أن لا نراقب ما ينشر من مقالات ما دامت موقعة من قبل كتابها الذين عليهم أن يدافعوا عما فيها دون تحميل المجلة مسؤولية ذلك.

كان عنوان المقالة (الغربان والبلابل)، تأملته لشوان وعندما هممت بقراءة المتن دخل راضي الشايش حاملا لوحة مغطاة بالجرائد

أسندها على الحائط، وجذب كرسيًا وجلس بجانبني. فعل كل ذلك في نفس واحد وكأنني غير موجود ثم حياني بإيماءة خفيفة واقترح الهبوط لوسط المدينة للتجوال قليلا حتى يحين الليل فانسقت لرغبته متأففا لعدم قدرتي على رفض طلبه. لراضي مكانة خاصة عندي رغم أنني أفضل إلا أبقى معه أكثر من ساعة في الأوقات الأخيرة، لأن ذلك يشئت تركيزي فهو تقريبا لا يتوقف عن الكلام المسنود بالحركة لشرحه في كثير من الحالات. لكني أحبه وأتفهمه وأحترم ثقافته. ساعدني في تفكيك كثير من الكتابات التي تصعب علي، وهو من عرفني على كونديرا وأخذت معه ما يشبه الكورس الطويل في أغلب كتبه التي ترجمت للعربية. نشأت بيننا علاقة ود خاصة تتجاوز التشنجات التي تحدث بيننا أحيانا.

كانت الساعة حوالي الخامسة عندما اتجهنا لطريق قرجي الرئيسي وركبنا سيارة أجرة سرفيس بعد مشاجرة صغيرة بينه وبين السائق، الذي اقترح أن يضع اللوحة فوق السيارة مع العفش فصال راضي متهما إياه بالتخلف، وتدخل الركاب المستعجلون للوساطة وتم وضع اللوحة في الحقيبة الخلفية، بعد أن تطوع الركاب بحمل ما كان فيها من أغراض. استمررت في النظر باتجاه البحر محاولا عدم محادثة راضي الذي كان يقضم أظافره بقلق، عندما وصلت السيارة المنارة القديمة المحاذية لقاعة الشعب فوجئنا بسيارات كثيرة عسكرية ومدنية معروفة بأنها مملوكة للأمن. نزل منها على عجل أفراد من كتبية أمنية لوقف السير وصف السيارات على اليمين وإنزال الركاب ودفعهم باتجاه البحر، وتمت السيطرة في دقائق على المكان. انتحيت جانبا مع راضي الذي أصر على سحب اللوحة معه رغم كل محاولاتي لجره بسرعة بعدما أصيب الجميع بالجنون، وعندما وصلنا إلى الحاجز الإسمنتي الصغير

على حافة الشاطئء تسلقناه وارتمينا خلفه، ونحن لا نكاد نملك الجرأة على النظر من خلال الفتحات الموجودة في السياج.

بعد دقائق من المرح بدأت أصوات متداخلة كأنها هتاف متقطع يأتي من طريق قرقارش الموازي، وما إن سمع الجنود ذلك حتى أخذوا وضع الاستعداد بينما كان بعض الضباط يتحركون بعصبية وفزع، وهم يصرخون بالأوامر. كنا نجهل تماما ما يحدث حتى همس أحد المختبئين بجوارنا قائلا إن جمهور الكرة غاضب لأن مباراة المنتخب تم الغاؤها في اللحظة الأخيرة. أعلنت مكبرات الصوت عن ذلك لعشرات الآلاف من الجمهور المتحمس الذي تلقى خبر الغاء المباراة ومنح نتيجتها للفريق الضيف دون سابق علم بغضب كبير تصاعد عند الخروج من الملعب، ونشأت حالة من الهياج العام توجه على إثرها جزء من الجمهور نحو وسط المدينة على الأقدام، وعلى وقع الأصوات المنددة، سرعان ما تحولت تلك الأصوات إلى هتافات سياسية وصل خبرها فورا إلى الجهات المختصة، فسارعت لقفل الطريق بهدف تشتيت الجمع قبل وصوله للساحة الخضراء التي كان اسمها ميدان الشهداء.

في لحظة بروز التظاهرة التي كانت تهلل بمختلف الأصوات رافعة أعلام المنتخب وصور لاعبيه، وشارات النصر من الكوبري الصغير بجانب قاعة الشعب، تقدم ثلاثة أفراد من الأمن حاملين مكبر صوت في محاولة لوقف الزحف المجنون، وتحذير المشاركين فيه الذين لم يعيروا انتباها لهذا المحاولة واستمروا في التقدم يشجع بعضهم البعض في جو حماسي على حدود المستيريا أطاح بالجنود الثلاثة على الأرض، وتناول أحد المتظاهرين مكبر الصوت وأخذ يهتف عاليا ضد السلطات التي تحشر أنفها في كل التفاصيل. عندها وقف أحد الضباط وسط الجنود المرتمين على الأرض مصدرا صرخة حادة أعقبها بأخرى عالية وانهمر

الرصاص على المتظاهرين، وتحول المكان لساحة من الفوضى اختلطت فيها أجساد الجمهور الذي كان يحاول الفرار بكل الطرق، ورأينا من خلف الحاجز البحري أحدهم وهو يسقط واضعا يده على بطنه وآخرين يقعون أرضا بعد اصطدامهم أثناء محاولتهم الفرار بأجساد أخرى مذعورة. ساد الرعب في كل اتجاه. الجمهور الغاضب وقوة الأمن المرتبكة ونحن المختفين، وتحول المشهد على صوت الرصاص لمشهد دموي متداخل الأصوات وانتبهت على يد راضي وهي تهزني وعندما التفت إليه بادرنى:

- لو ألقينا بانفسنا في الماء هل سنصل للملأ؟.
- نظرت إليه فوجدته جادا في كلامه فعجزت عن التعليق وكدت أطلق ضحكة هستيرية لولا الخوف الذي جفف حلقي ومنعني من ذلك فأضاف مستدركا:

- ولكن اللوحة. ستبتل اللوحة وسأخسر الجهد الذي بذلته فيها. وعندها انتبهت لأول مرة للوحة التي كان يمسك بها بقوة ضاماً إياها لصدره وعرفت أنه هو من رسمها، وكدت أسأله لأتأكد من ذلك ولكن طلقات أخرى انطلقت أعادتني للواقع، فتلفت مجددا لموقع الحدث وأنا أصرخ في أن مالطا بعيدة ولن نستطيع السباحة نحوها في هذا الظرف.

هدأت الضجة بعد حوالي عشر دقائق، وامتأ المكان بسيارات الاسعاف والجيش والشرطة، وتفرقت المجموعات التي تكدست في المكان، وواصلت وراضي سيرنا بمحاذاة الشاطئ نحو وسط البلد صامتين لفترة قبل أن ينطق مقترحا أن نقوم بغطسة سريعة ننعش بها أنفسنا، ورغم أني وجدت هذا الخاطر جنونا في لحظة إلا أنني سرعان ما اقتنعت برأيه فانتخبنا ركنا خلعنا فيه ملابسنا وغصنا في المالح ننشد

السكينة، وأحسست بجدوى الاقتراح عندما غمرني الهدوء ومسح البحر الذعر الذي أصابني من هول المشهد.

بعد أن بقينا في البحر الذي كاد يخلو. فترة قصيرة تناولنا ملابسنا وسرنا دون أن نرتديها في نفس الخط حتى اقتربنا من نهاية الشط وكانت أجسادنا قد جفت في الطريق فلبسنا، وقطعنا الطريق من أمام فندق باب البحر وتفرقنا عند ميدان بورقية حيث ذهب الشايش لمكان لم يخبرني عنه كالعادة، وواصلت أنا طريقي إلى السكن الجامعي مفكرا فيما حدث وهل حدث بالفعل؟

عرفت المنطقة العربية العديد من الأنظمة التي اتسمت بالفوضى والعنف، والضربات الاستباقية لمن تعتقد أنه سيشكل خطرا عليها في المستقبل، ولكن ليبيا تبقى حالة فريدة على هذا المستوى، فالعداء للفنون والثقافة المعروفة عن الأنظمة الشمولية أضيف له هنا عداء مكين للرياضة وخاصة كرة القدم، وسبب ذلك يرجع لخوفها المكين من كل تجمع بشري قد يتحول في ظل ظروف الكبت لحركة عفوية ربما تتطور لعمل سياسي، أو تخريبي يشكل إحراجا للسلطة، أو خطرا عليها إذا ما توسع وشمل فئات أخرى ناقمة وهي كثيرة، كما أن سلطة ليبيا تميزت بالغيرة الشديدة من أي بروز خارج إطارها الخاص، فهي لا تستطيع احتمال أن يصفق عشرات الآلاف للاعب موهوب، وأن يتحدث الناس عن فريق يحقق إنجازا ما في الرياضة وخاصة كرة القدم، التي صنفها المعجم الثوري بأنها لعبة تتسع لآلاف المغفلين، الذين يملأون المدرجات مشجعين مجموعة لاعبين تتركز لديهم الشهرة والمال، ويشار إليهم بالبنان بينما تخوض الأمة والبلد الذي يمثل رأس حربتها معارك لا تنتهي ضد المؤامرات الإمبريالية، التي تولد كل يوم، إنها بهذا المعنى أداة لتغليل الجماهير والهائها عن هدفها الأسمى، المتمثل في مقاومة كل

المشاريع المضادة للتحرر والاستقلال، والدفع بها للصفوف الخلفية حيث التفرج على تلك المعارك ووصفها كما يصف المعلق الرياضي سير المباراة.

بدا لي أن الليل قد حل سريعا على غير المعتاد، وكى أهرب من تداعيات ما شهدته اليوم فتحت التلفزيون، وأعددت شايا وأشعلت سيجارة. جلست أشاهد القناة المحلية التي لا نملك غيرها في المجمع السكني. كان المتنبي يقدم فقرته المعتادة وهو متلثم بعمامته الخضراء الكبيرة، يروي فقرة هزلية عن قصة شهدا عندما استقل إحدى الحافلات في المدينة، وأطلق فيها ضبا أثار الفزع بين الركاب، الذين صعدوا مضطربين فوق الكراسي هربا من هذا "التمساح" الأسود الصغير. كان يروي القصة ويقطعها بضحكات حادة، وتعليقات مرة تسخر من المدن القادرة على إفساد الطبيعة البشرية، حتى إنها تحسب الضب تمساحا. يصدر بين الفينة والأخرى أصواتا مفزعة مقلدا بها ما حدث، ويمطر الكاميرا بأبيات مرتجلة تشيد بالبادية وتقاليدها العريقة التي تصنع الرجال الحقيقيين:

"تريس اللي تأكل في الضب عوينه في كمه مصرور، مش خووخ ويوقا وعنب ورأسه كيف أخته مضافور" أي أن الرجل الحقيقي هو من يأكل لحم الضب وزاده مصرور في أكمامه دليل الحذر والنباهة، ولا يأكل الخوخ والعصائر والعنب، وشعر رأسه مثل أخته مضافور."

1

طرق مصطفى الباب حوالي العاشرة صباحا بحجة أن اليوم مشمس، وعلينا الذهاب للغابة الصغيرة حيث سيلعب الآسيويون الكريكت، وسيريني بعض الحركات الصعبة التي لا يقوم بها إلا لاعب

محترف مثله في التاكواندو كما قال. قمت متكاسلا وتشطفت بسرعة تحت ايعازاته المتتالية. تناولت قطعتي بسكويت على عجل من فوق الطاولة وخرجت معه شبه مجبر. عندما وصلنا باب القاطع لحت عالية رفقة الحبر وسمر الصومالية وجو يصعدون الحافلة المتجهة نحو المدينة، فتذكرت ليلة البارحة التي قضيتها في غرفتها. أحسست في وقت متأخر من الليل بكتلة من لحم ساخن تضغط برفق على منتصفني وتتحرك ببطء في شكل دائري صغير. استيقظت رغبي. أبذل جهدا في محاولة تذكر أين أنا، وعندما عرفت مكاني تحركت قليلا معدلا من وضعي وضاعطا باتجاه تلك الكتلة الساخنة داخلا فيها برفق حتى وصلت البوابة حين قاومتني قليلا قبل أن تفرج عن ثنيتها، بما يكفي للدخول. عندما أحسست بحرارة اللذة مسكت بكتفها جاذبا إياها نحوي لأتمكن منها، وبقيت كذلك لحظات قبل أن تحرك مؤخرتها الملساء في هزات متتالية على صوت تأوهات ناعسة من كلينا، قبل أن نقع في النوم من جديد...

مضينا إلى الساحة الخضراء المرمية بجانب الغابة الصغيرة، حيث كان تجمع الآسيويين يلعب الكريكت مطلقين صرخات عالية في سماء شمس مارس، التي أجبرت الغيوم المتبقية على التراجع وإن سمحت ببعض البرد الخفيف. أخذني مصطفى من يدي خشية أن أطيل التفرج على المباراة التي لا أعرف قوانينها، وانتحى بي جانبا طالبا مني الجلوس على عتبة صغيرة ومراقبة ماسيفعله. اتجه هو إلى حيث وضع سترته الرياضية وأخذ في ممارسة عدة حركات للتسخين، قبل أن يتجه للخلف ويعود راكضا بقوة للأمام ثم يقفز في الهواء مثل لاعب جمباز، واضعا يده اليمنى تحت جسده ثم ملتفتا إلي طالبا الرأي فيما شاهدت. كانت الحركة عادية وتشبه تلك الحركات التي يؤديها طلبة المدارس الابتدائية

في حصص الرياضة، ولكن مصطفى كان مصرا على فرادتها معيدا إياها عدة مرات مما أضرني لإظهار اعجابي الكبير بها طلبا للخلاص، فأنضم للتبة وجلس مخرجا لفافة وطلب مني اشعالها. ترددت لحظة لاني لا أحب التدخين في النهار وبالذات صباحا ولكن فعلت ذلك لأنه لم تكن لدي طاقة للمجادلة، وهكذا تبادلنا الأنفاس ونحن نتحدث ثم اقترحت عليه القيام بجولة مشي في الغابة للاستمتاع بالهواء النقي المهم للرياضيين أمثاله، فوافقتني الرأي وبدأنا المشي وعندما التقينا بعد قليل بشابين من المركز يتمشيان مثلنا انتهزت الفرصة بحجة التبول، وتسلمت مبتعدا نحو البرج الخشبي الذي صعدته، وجلست أتأمل المنظر من عل..

في الليل قادتني قدمي إلى غرفة الحبر حيث قضيت وقتا جيدا، حتى عرفت بالصدفة من خلال أحاديث الحاضرين أن عالية قد انتقلت لمركز لجوء من الفئة الثانية المخصص لما بعد الاستقبال. بالكاد تمالك نفسي متذكرا أن لا أحد يعرف بالعلاقة الخاصة التي تربطني بها. مر أمامي مشهد الصباح عندما كنت خارجا مع مصطفى حيث كانت عالية مع الحبر وعثمان وآخرين، وأدركت الآن أنهم كانوا في وداعها. خرجت من الغرفة بهدوء وأنا غارق في أفكارني حول رحيل عالية الذي بدا لي أنه قاس وبشكل ما مهين. إذ صعب علي أن أجده تفسيراً لعدم معرفتي عن طريقها بذلك. تذكرت ليلة البارحة التي قضيناها معا وكيف كانت عالية لبوة شرسة تريد أن تمتلك كل شيء في ذات اللحظة. كانت تعض وتلحس. تربت وتقبل. تدفع وتجذب. تقود وتنقاد. كانت كل هذا وأكثر حتى أنني خلت في تلك الأوقات أننا باقون بطريقة ما مع بعض للأبد، وأن ما من فراق بقادر على تهديد شراسة ولذة ما يحدث في هذه الغرفة قريبا من الجميع، وبعيدا عنهم في نفس الوقت.

رحيل عالية نبهني إلى حقيقة كنت غافلا عنها وهي أنني سأغادر المركز مثلها ذات يوم. التفت حولي وكأنني أرى الأشياء على حقيقتها لأول مرة. لقد مضى على وجودي هنا خمسة أشهر وهو زمن يتجاوز الوقت الذي يقضيه اللاجئ عادة في مركز الاستقبال. غادر زاد منذ شهر وجاء مكانه شاب أفغاني يرتدي الزي التقليدي حاملا معه مسجلة مهترئة، وشريط كاسيت لمطرب من بلاده بالكاد تتعرف على صوته من جلبة المسجل، كما غادر سعيد منذ أسابيع وحل مكانه لاجئ من سيرلانكا يحب البيسي كولا والإستلقاء على سريره يتأمل السقف لساعات طويلة تدفع المرء للجنون، وحتى بوجود غادر بعد أن تحصل على لجوء سياسي، وخصص له بيت في مدينة دنبوش، ولكني لم أشعر بكل ذلك سابقا لأن عالية وبوهدى وبوآثار كانوا لا يزالون في المكان يخففون من وحشته ويشعروني بالتوازن.

علي أنا أيضا أن أستعد للمغادرة في القريب، ويجب أن أحرص على أن تكون مغادرتي بسيطة بعيدة عن أية شحنات عاطفية، ففي النهاية نحن كلنا سنمر سريعا بهذا المكان، ومن الحكمة أن لا نتورط في علاقات تدفع بنا للارتباط بأي شكل به. يجب أن أكون دائما متخففا من الأحمال ومستعدا للعبور نحو النقطة التالية في هذا الخيار الذي تبنيت، وقررت أن أكونه ويكونني، لقد أيقظتني عالية بمغادرتها وعلمتني أكثر مما تعلمت في حضورها الذي كان مفعما باللذة والنسيان والارتباط.

لم يعد المركز يعني لي الكثير بعد مغادرة عالية وأخذت أوطن نفسي على مغادرة ابوهدى وآبوآثار معيدا قراءة المكان وظروفه، وكي أغير هذه الأجواء قررت على الأقل أن أتخفف شكليا فمضيت للقاطع الرابع حيث يقوم عمر البنغلاديشي بحلاقة زبائنه في فسحة باب منتصف البلك مقابل خمسة خلدن. جلست على الكرسي البلاستيكي

الأبيض بعد أن لبست كيس القمامة الأسود الذي يشقه عمر من الجانبين لزوم دخول اليدين، فيصبح شبيهاً بمحافة الحلاقين. أغمضت عيني بينما كان عمر يحدثني عن قصة حبه المضطربة مع البنت الأفغانية التي تقطن قاطعي. البنت الوسطى في العائلة التي جاءت من السعودية.

عمر يعتبر محظوظاً إلى حد كبير مقارنة ببقية اللاجئين هنا، فقد تبنته سيدة من أصل بنغلاديشي تعمل موظفة في المركز، وخصصت له غرفة جميلة أراني مرة صوراً لها، حيث بدت مليئة بالألعاب الإلكترونية وكمبيوتر حديث، كما اشترت له دراجة نارية جيدة، ولكن مع هذا يبدو غير سعيد لأن المستقبل لا زال مجهولاً بالنسبة له، ففي حال عدم حصوله على قرار بالموافقة على بقاءه في هولندا أصبح كل هذه المكاسب في مهب الريح، إضافة لما خلقتة قصة حبه للأفغانية المتمنعة من اضطراب في شخصيته الهادئة البريئة. انتزعت منه الغربة المبادرة في التعبير مباشرة لها عما يدور من أفكار بقلبه كلما يراها.

كان يأتي كل يوم في النهار يسجل حضوره ويبقى في المركز متحينا الفرص لرؤية محبوبته، قبل أن يعود في الليل لينام في غرفته الوثيرة، وبين هذين الواقعين المختلفين كان داخله يترنح بين الأمل واليأس. أغمضت عيني بينما كان عمر يواصل الكلام على وتيرة تكتكة مقصه مفسراً لي أسباب عدم رغبته في العودة لبلده. راسماً صورة مقززة للشوارع المليئة بالبراز وطوفان المياه الذي يأتي مرات كل عام، فيذهب بما تم إصلاحه بسبب سيول العام الماضي. تاركاً بركة الطينية اللزجة في كل مكان. مصراً على عدم العودة لتلك الأرض المبللة حيث تهاجم حشرات شرسة الناس وتترك بينهم ضحايا حقيقيين.

زادني حديث عمر كرباً فأخذت دراجتي وخرجت نحو الغابة. ركبتها جانباً وتمشيت لبعض الوقت، وعندما هبت ذكريات عالية في

البال ركبت من جديد، ومضيت أبحول في المنطقة الخلفية بدون وجهة معينة حتى خطر لي أن أبح لوسط المدينة، حيث بقيت هناك أقود من شارع لشارع دون هدف محدد. أسرع وأبطيء حسبما تدفعني إليه مشاعري الجياشة، وبعد أن هدأت نفسي واستعدت سكينتي عدت للمركز للعشاء، ثم لغرفة بواثار حيث أمضينا الوقت في لعب الكونكان.

مضت الأيام بطيئة ومكررة حتى اليوم الذي تبغت فيه بموعدي مغادرتي للمركز نحو مركز آخر يقع في قرية بأقصى الشمال الهولندي، وعندما اطلعت على قائمة المغادرين وجدت أن جاد الأفغاني الذي يقطن مع بوهدي سيكون معي في نفس الرحلة. قررنا أن نذهب معا في اليوم التالي، وانهمكنا سوية في إتمام الإجراءات الخاصة بذلك وتحصيل تذاكر القطار والتاكسي ودراسة الخريطة التي زودنا بها موظف الإدارة وعدت للغرفة في وقت متأخر بعد أن ذهبت للكوفي شوب مع مصطفى وخلدت للنوم ساجحا في بحيرة من الخيال.

يحيى

مشاغل العمل في المجلة ودخول يحيى لجال المهيرين جعلت من لقاءاتنا متقطعة ومتباعدة. كنت أزوره فأجده أحيانا فوق السحاب بفعل الجرعة التي تناولها. عيناه شبه مغمضتين. غارقا في الموسيقى والتحليق، وأحيانا أجده في فراشه بركن الغرفة، يعاني من رعشه خفيفة في جسده كأنه "بردان". أعرف حينها أنه في واحدة من توقفاته عن التعاطي التي يكررها كل بضعة أسابيع كي لا يقفل باب الرجعة. في إحدى المرات وجدته مرتديا البدلة العربية البيضاء جالسا مع شخصين آخرين قدمهما لي على أساس أنهم من طلبة العلم، لكنني اعتبرت الأمر عاديا حينها، إذ كيف يخطر في بالي أن إنسانا مثله سوف ينضم لخلية تتبع مجموعة إسلامية مسلحة، فمثل هذا العمل كان بعيدا على تفكيره كما ظننت، لكنني الآن أصبحت أكثر معرفة بدوافعه الحقيقية التي جعلت منه يصحو بتلك الحدة، ويتجه نحو الجهة الأخرى كمتشدد مما لا يخالف تماما طبيعته التي أعرف.

كانت جماعة يحيى الجديدة طائفة من الخلق ظلت متماسكة داخل هذه الأرجوحة الكبيرة التي تحولت إليها المدينة. كانت جماعات من الشباب تكبر في الخفاء كل يوم. يسرون ناظرين إلى الأرض بثبات. يتشابهون بملابسهم البيضاء اللامعة المقصرة السراويل، ولحاهم النامية

بإهمال. يربطون أصابعهم بخيوط مدلاة من الشبايك يهزونها كالسنارة وهم في طريقهم لصلاة الفجر. يتلقون العلم الشرعي من أشخاص جاءوا خصيصا بعد أن شاركوا في معارك الجهاد في أفغانستان ضد الاتحاد السوفياتي الملحد، وعلموهم عادات جديدة بسرعة فائقة، فأخذوا ياكلون ويصلون ويتحدثون ويتزوجون بطريقة واحدة مختلفة عما عرفه وألفه سكان المدينة. يختفون من بيوتهم لأيام قبل أن يعودوا للظهور مارين قرب العامة بسرعة وصمت، وهم في منتهى الحذر من اللغو والإسراف في تبديد الوقت على غير الطاعات، وقد سبق واتخذوا القرار ولن يفيد الحديث مع أحد في شيء. يعتمدون في تدبر أمورهم اليومية على نظام بدائي بسيط أي شيء فيه يفني بالغرض. كان واضحا أنهم غادروا الدنيا بعد تجارب خائبة وغير ذات شأن، ووضعا أرجلهم على أول الطريق الذي عليهم أن يسلكوه من أجل الوصول للجنة مباشرة، لتخليص أرواحهم المعذبة بفهم الأشياء بطريقة برئية وخطيرة في آن واحد.

لم يكن يحى يعتقد بما يفكر به أعضاء مجموعته، ولكن قراره جاء بهدف إنهاء مسار حياته الخائب، والعمل على الانتقام من الثورة التي دمرت مستقبله. كان يريد أن يرد الصفعة لتلك الأعمال العدائية التي جعلت منه ومن آخرين كثر موهوبين مثله مجرد كائنات هشة تجلس أمام منازلها منتظرة القدر والنصيب. لم يفكر لثانية واحدة فيما سيحدث لو أن هدف المجموعة التي تتبعها خلته قد تحقق، وكيف سيكون شكل الحكم؟ وما هو دوره عندئذ؟ لم يخطر على باله شيء من ذلك لأنه لم يكن يهتم إلا بالخطوة الأولى التي تخص القتال. كان يريد أن يطفئ تلك النار التي لم يستطع حتى الميروين القضاء عليها. قرر يحى أن يتغير. أن يتمرد على حقيقة الخيبة التي ألمت به بعد فشل

مشروع هجرته لبريطانيا، ودخوله السجن بتونس لأشهر طويلة. لقد فاض الكيل به وقرر أن يخرج للقتال ولم يكن يهتم مع من. هناك شيء ما في جوفه مثل نار التين يريد أن يخرج للعلن، ومن أجل تحقيق ذلك تكيف مع قوانين خلите، وواظب على واجباته وتدرّب جيّدا وبقي متجنباً للنقاشات النظرية، لأنه غير معني بها. ما يهّمه هو النزول للميدان وتنفيذ المهام على أرض الواقع. كان قارئاً جيّداً للتراث ويحفظ الكثير من الشعر وأيام العرب، ولن يجد صعوبة في التكيف مع ما كان يحدث انتظاراً لليوم الموعود، وعندما سمعت خبر حجم وأنا في مؤتمر الشعب العام الطويل ذاك، أدرك أن ذلك اليوم الموعود لم يأت بعد، ففي مصادفة غريبة تزامن موت حجم واكتشاف أمر خلية يحيى في نفس الأسبوع. كان الأمن قد توصل لمكان مجموعة كبيرة من المجاهدين بعد مراقبة صاحب مزرعة يشتري كميات كبيرة من الخبز كل يوم، وعندما تمت متابعته اكتشفوا أنه يستضيف مجموعة مسلحين، وعند مدهمة المكان نشبت معركة مرتجلة بالكاد أفلت منها مجموعة بسيطة من سكان المزرعة، وعلى الإثر بدأت سلطات الأمن مسحاً شاملاً لكل المتهمين المتوقعين، وألقاء القبض على كل مشكوك فيه، وفي الطريق تحصلت على معلومات ثمينة ساعدتها في تفكيك بعض الخلايا كما حدث لتلك التي ينتمي إليها يحيى الذي كان من المقبوض عليهم.

بعد فترة من التنقل بين أقبية مظلمة في وسط البلد تم تحويله إلى سجن بوسليم. كان نوع المساجين قد تغير بعد (أصبح الصباح)، فلم يتبق إلا مجموعة صغيرة تقل عن العشرين من سجناء اليسار، والإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي. بعضهم تعدى وجوده في السجن عشرين سنة، بينما كان المئات الجدد من السجناء ينتمون للجماعات الجهادية والسلفية المقاتلة ودراويش متصوفة جلبهم حظهم السيء إلى هنا.

تجمع السجناء القدماء في أول عنبرين متقابلين بعد بوابة العنابر مباشرة، وتوزع السجناء الجدد بين الزنازين في بقية المبنى المستطيل الذي تحيطه الأسلاك الشائكة.

تعامل مع التعذيب في أقبية مظلمة كعملية تطهيرية تزيد من تصميمه إذا ما خرج يوما من هذا المكان. أذهل جلاديه ورفاقه وحتى نفسه بصموده وسخريته المتكررة التي كان يطلقها من خلف قساوة التعذيب المهلكة، وبعد أن تم تحويله إلى سجن بوسليم حيث الإقامة الطويلة شعر وكأنه قد خرج من السجن، وأستأنف حياته جاثلا بين الزنازين في فترات الاستراحة القصيرة كأنه طالب علم حقيقي. لم يفقد معنوياته وظل يقضي فسحته بالتجول بين العنابر والتعرف على هذه المجاميع المكبلة.

أستأنف حياته كأنه سيخرج غدا، ورغم أن هذا اليوم لن يأتي أبدا فقد استمر في تحسين لغته الإنجليزية وتمتين معارفه أينما وجد شيئا يضيفه لها. يرى ويسمع ويتكلم بعد أن أخذ مسافة متوازية من الجميع. ليس لأنه لم يعد يؤمن ببرنامج جماعة خليته وهو أمر لم يكن عليه منذ البدء، ولكن لترك خياراته مفتوحة في حالة خرج وبحث عن جماعة جديدة لمواصلة حربه على النظام. كان اسمه قد أصبح معروفا لأن الخطة التي كان يعمل عليها قبل القبض لا تتكرر كثيرا. لقد كان يخطط لاغتيال صديق الزولي، وإذا لم تكن ليبيا فلن تعرف على الأرحح خطورة ما كان يحيي ينوي القيام به، ففي تلك البلاد يكفي أن تذكر اسم الزولي حتى يعرف الجميع من تقصد تماما. لا أحد يعرف له رتبته العسكرية أو مكان عمله، فهو ليس بحاجة لذلك. صديق الزولي باختصار هو الرجل الذي يمسك بكل الأمن وهو رجل القائد والثورة في هذا المجال وعمليا هو الرجل الثاني في الدولة. مشهور

بقسوته وغموضه وقيادته لفرق التصفية الجسدية وكل ما يلزم لحفظ الأمن.

كان يحى قد لاحظ أن صديق الزولي يمر من جانب بيته أكثر من مرة في الأسبوع. كان على الأرجح يأتي من أحد مباني القيادة في الخلف ويتجه نحو طريق الشط حيث يوجد مركز رئيسي للأمن. يفضل هذا الطريق الفرعي الذي يدور على الطريق العام وينفذ بك إلى شارع الجمهورية، وكان الزولي كما فهم بعد المراقبة يستخدم أكثر من زقاق يبادل بينها للوصول إلى شارع الجمهورية، وكما توقع صار الزولي يستخدم زنقة الشيخة راضية حيث يسكن يحى أكثر من غيرها لأنها تكاد تكون شارعاً شبه رئيسي. يبدأ من ساحة المتحف الإسلامي وينتهي في شارع الجمهورية مقابل عمارة مؤسسة الصحافة، ومع مرور الوقت صار موعد الزولي شبه معروف. يمر بين الرابعة والخامسة عصراً بسيارة غولف صغيرة رصاصية بنوافذ ملونة، فمثل ما ألف هذه الزنقة اختار مع الأيام هذه السيارة، فهي مريحة وقوية وقادرة على المناورة في الأماكن الضيقة، ولأنه كان يمر بلا حماية كما اكتشف، فقد كانت الخطة تتكون من جزئين فقط: الاستعجال في الحصول على بنادق رشاشة، ثم قطع طريق الزولي واغتياله ما إن تصل الموافقة من قيادة الجماعة التي أصر أفراد الخلية جميعاً على الحصول عليها أولاً، فكانوا السبب الرئيسي في بقاء الزولي على قيد الحياة..

هذه الخطة لم يقدر لها النجاح بسبب القبض عليه مع أفراد خلتيه، لكنها أضفت عليه مسحة من الاحترام والتقدير بين قيادات المساجين، وصار يرحب به في المجالس العلمية في كل الحلقات، بما في ذلك حلقة الدراويش الذين أقاموا معه علاقة وطيدة. كان وجودهم في السجن محض سوء حظ، فقد كانوا مجتمعين بملابسهم البيضاء ذات ليلة يقيمون

فيها حضرة عندما مرت دورية أمن واعتقلتهم جميعا على الشبهة، ومر وقت طويل قبل أن يكتشف الجميع أنهم فعلا طارئون، وفات الوقت على إطلاق سراحهم بعد أن رأوا كل هذا يحدث في السجن، بل محتمل أيضا أن يكونوا قد أصبحوا خطرين على الخارج ويستحسن بقاؤهم في السجن بعد أن تعلموا كل تلك الخبرات من المساجين الحقيقيين، أما الدراويش أنفسهم فلم يبد عليهم أنهم أدركوا ما حدث أو ربما لم يهتموا به أصلا، واستمروا في مدائحهم وأورادهم وتمتاعهم في ركن المكان القصي. يمارسون ذلك بحذر وقلق، فثقافة الجهاديين والسلفيين عموما لا ترحب بالدروشة في الإسلام.

وهاب

- زويطة

قال وهاب ونظرت أنا للبحر الذي كان أمامنا من جديد، كان يبدو كواد من الزيت يتفرق في هدوء وانسيابية، وهو يلمع تحت بؤر الضوء التي تصله من الشارع. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ليلا ونحن في بلكونة الرابطة بقرجي في ليلة صيف طرابلسي رائقة. فرشنا مائدة من سندويشات الشاورما وعلب الببسي وكيس بوخة وقطعة حشيش، ثم خلعنا الأحذية وجلسنا على أرضية البلكونة في مواجهة البحر. كان وهاب مثلي مخنوقا وغير مرتاح، زاد ذلك متاعب سببها له مقاله (بلابل وغربان) الذي كدت أن أقرأه لولا دخول الشايش يوم حادثة جمهور كرة القدم التي اختبأت بدورها في مكان ما من ذاكرة الناس. المقال كان بحثا سريعا في السبب الذي يجعل الطعام المفضل للغربان هو البلابل وأعشاشها، وتساءل لماذا يكون ذلك وهل تسعى

الغريبان لاكتساب صفات البلابل بالتهامها وإحلالها داخلها، ثم ختم
بجملة صارت تتردد لفترة في الأجواء:

- لن تستطيع الغريبان أن تغني ولو التهمت كل البلابل التي على
الأرض... بل بلابل الفضاء أيضا أن وجدت.

كان وهاب يعرف أنه لن يستمر في الوضع الحالي طويلا، ولكنه
كان لا يفضل فكرة السفر لأوروبا لأنه يعرف أنها اختلفت كثيرا على
ما كانت عليه أواخر السبعينات عندما درس فيها. لا يريد أن يبدأ من
جديد في بيئة مختلفة، وكان لا يرى أفقا في وضعه الحالي ويعرف أن
عليه تغييره لانقاذ روحه وموهبته.

- زويته.. ولد الكلب...، علقت بعد أن مسحت بنظري ما توفر لي من
رؤية البحر من خلف قضبان البلكونة التي نضع عليها أقدامنا الآن.
تعرف! - استمر وهاب في الكلام - الموضوع كله يمكن اختصاره
في قصة هذه الفيلا اللي قاعدين في بلكونتها توة..
كيف؟.

- يعني زي ما انت عارف الفيلا هذه اشتراها رجل أعمال لزوجته
الشامية التي تحب الكتابة وتريد أن تصبح كاتبة. كانت تتنقل في
أرجاء البيت الواسع المطل على البحر باحثة عن الكتابة بس بدون
فائدة، فلا السيدة الشامية كتبت شيئا مهما قبل أن تعود لبلادها
كمواطنة عادية بعد مصادرة الفيلا للصالح العام، ولا نحن حافظنا
على المكان الذي تحول لبيت فقير ومتهاك، وجلبنا له الكثير من
الأعداء بحيث اتوقع أن تصدر البلدية قرار في وقت مناسب من
اجل هدمه وإعادة استثماره من جديد. شوف المفارقة هاذي. نحن
الذين ندعوا للحوار وحرية الرأي ونزعم أننا من النخبة. مقرنا
يقع في بيت مصادر وعلى الأغلب لم يدفع تعويض لأصحابه بعد أن

اجبروا على اخلائه، يعني أن الفوضى التي نعيش فيها غير منتجة ولا أفق عملي لها.

تستغرقني المفارقة التي أسمعها للمرة الأولى من وهاب حول البيت المصادر ووجود الرابطة فيه، ففي تلك الليلة أخبرني أنه أصبح يفكر في الذهاب لمدينته الصغيرة وشراء قارب صغير لصيد السمك كما كان والده يفعل، وربما يذهب وهاب لمدينته كما قال لكنه لن يشتري ذلك المركب. أعرف أنه لم ينس أخاه الذي مات غرقا في البحر أمام عينيه. وهاب هو من تبقى من أولاد العائلة الثلاثة. أخ مات وأخ هاجر منذ زمن، ولا أخوات يلفظن بعض هذه القسوة، رغم أنه يسبح جيدا إلا أنه لا يتجاوز مستوى صدره في الماء مهما حدث، ويظل ينظر للبحر بحذر وهو يتمشى أو يجلس لأوقات طويلة يتحدث معه ككائن حي مسئول: لن تغريني.. مش ناسي خوي، ماكش صاحبي ومانبيش صحبتك...

كان يمكن للحياة أن تسير بمثل هذا التعسر والتكرار وخفض سقف التوقعات، لكن كان ذلك لسبب مجهول غير كاف، ففي ظهيرة يوم حار تسرب نبأ بالطريقة التي يعرفها الناس هنا، وهي طريقة شفوية لا يوجد بها دليل ملموس لكنها فعالة وتكاد لا تخيب، ففي يوم صيفي حار من أيام شهر يونيو علم جميع سكان طرابلس وفي توقيتات متقاربة أن كومندوس إسرائيلي قد عبر الحدود وهو في طريقه إلى العاصمة لتنفيذ مهام تخريبية خطيرة، ولأن المجموعة الإسرائيلية قد اجتازت الحدود أصلا ولم يعد القبض عليها أمرا مضمونا، فقد قررت السلطات أن تقلب الطاولة على الكومندوس وتخفي العاصمة ذاتها من طريقه. كان ذلك تحديا كبيرا وشبه مستحيل توجب العمل على تنفيذه البدء فورا ودون إبطاء.

يوليو 1997 - هوخ هالن

وصلنا هوخ هالن في حوالي الرابعة بعد الظهر، وهي قرية تقع في محيط زراعي بها زهاء ألف ساكن يتحدثون لغة خاصة بشمال هولندا إضافة للهولندية. كانت الرحلة طويلة بسبب عدم معرفتنا بخطوط المواصلات، فقد كنا نتحرك كقبيلة صغيرة تائهة تسارع لإتباع أي مبادرة من أفرادها عسى أن يكون فيها الفلاح.

كنا حوالي عشرة نمثل الدفعة الأولى من لايدن: أكرد، أفغان وعرب من العراق والمرأة النيجيرية التي تخلق شعر النساء بغرفتها وزوجها. جلست طوال الرحلة بجانب مجيد الأفغاني الذي اتفقت معه يوم أمس على السكن معاً، وأخذنا نشجع أنفسنا على التقدم بطلب فور الوصول للحصول على غرفة لشخصين.

وصلنا القطار في النهاية لمدينة آسن ومنها أخذنا سيارات تاكسي مدفوعة الثمن مسبقاً واتجهنا إلى مركز طالبي اللجوء الواقع على حافة القرية بالضبط. كان (الآزاتسي) الكلمة اختصاراً للأحرف الأولى من ثلاث كلمات هولندية تعني مركز طالبي اللجوء- في الأصل معسكراً أميركياً يتكون من قواطع أرضية متفرقة على قطعة أرض خضراء مفتوحة على مساحة أخرى، بها أشجار عالية تفصل بين القرية والمركز. كان المنظر العام جميلاً.

وجدنا أمامنا مجموعة صغيرة متناثرة في المكان، وبعد دقائق قال لنا أحد الموظفين أن بإمكاننا أن نختار أماكننا بأنفسنا فتقرقنا سريعا فرحين، وفي الطريق راودتني فكرة التخلي عن اتفاقي مع مجيد وأبحث عن غرفة لشخص واحد ولكن لم أفعل. ليس لأنني صاحب مبدأ ولكن لأنني تخيلت الموقف الحرج الذي سأكون فيه إذا ما فشلت في العثور على غرفة، ولعله فكر في نفس الأمر. اتجهت مع مجيد لطرف الآزاتسي الذي يحده سور الشجر الكبير. بحثنا في القاطع الأخير حتى وصلنا لغرفة مخصصة لشخصين فدخلناها ورمينا بمتاعنا في دولابها، ثم اكتشف مجيد أنه لا يوجد بها تلفزيون فخرجت في جولة سريعة وبقي هو يحرس المكان. الغرف التي دخلتها كلها كانت خالية من التلفزيونات. رضينا بغرفتنا وقضينا وقتا في ترتيب متاعنا، ونحن نتبادل جملا متقطعة من لغة لا نستطيع إن لم تكن لاجئنا أن تفهم منها شيئا مهما حاولت، وعندما انتهيت من ترتيب حاجاتي خرجت في جولة سريعة داخل المعسكر.

تم اخلاء هذا المكان منذ فترة وأعيد فتحه بصورة سريعة تحت ضغط تزايد عدد اللاجئين، ورغم حالته المهملة فهو مكان جميل ربما كان ينفع في ظروف أخرى أن يكون مخيما لقضاء إجازة للتمتع بجمال شمال هولندا الطبيعي. أثناء جولتي تذكرت أننا لم نسجل أنفسنا لدى الاستعلامات فذهبت وفعلت وعدت مرة ثانية للغرفة وأخبرت مجيد ضرورة أن يفعل ذلك، وأن لا ينسى رقم الغرفة مثلي، وارتميت على سريري بقرب الباب مفتقدا التلفزيون الذي يتحول في مثل هذه الأوقات إلى مؤنس وصديق حميم. أخرجت سجائري وقطعة صغيرة من الحشيش اقتطعت منها ومزجتها بالتبغ ولففتها بحذر. مازلت مبتدئا في اللف ولكنني أصبحت أفعل ذلك بشكل معقول. خلعت حذائي وأخذت أفكر وأنا أدخن وأشرب الماء في وقت

مغادرتنا لمركز لايدن ضحى هذا اليوم. بعد سلامات وتحيات مختصرة لمن صادف اتجهنا للمحطة في مجموعة من المرافقين. رافقني إضافة لابوهدى وابوآثار الحاج زكريا الزنجباري، وعندما دخلنا بهو المحطة جذبني بوهدى حاضنا اياي بسرعة قائلا أنه لا يجب لحظات الوداع وانسحب نحو الخارج بخطوات سريعة، وقادني تفكيرني للأيام الأولى التي جئت فيها لأوسي لايدن للاجئين، وكيف كانت تلك الفترة المرتبكة. استعرضت أسماء وصورا ومقاطع من أحاديث، كانت ذاكرتي قد بدأت في تكوين مكان خاص فيها لهذا البلد. هناك جنين ذاكرة ينمو يختص بحياتي هنا. مخلوق صغير وطري مثل النطفة ولكنه موجود وينمو. الحقيقة أنني لم أعد أفكر كثيرا بليبيا والأصدقاء والمعارف في الفترة الأخيرة، حتى أنني لا أهتم كثيرا بما آلت اليه الأمور هناك. أخبرت بوهدى مرة عن بعض الأحلام المفزعة التي تتكرر معي أثناء النوم، وكلها تدور في ليبيا. سألته إن كان عنده مثلها، فقال إنه كان في السنوات الأولى لمغادرته للعراق يحلم بذلك البلد مثلي الآن ولكن هذه الاحلام ستختفي مع الأيام:

- شوف عزيزي، الحقيقة الي يجب تعرفها هو أنك تبعد عن وطنك من جهة ويبعد هو من جهة أخرى، يعني البعد مزدوج من الطرفين، يعني ذاكرتك الآن مازالت طرية هنا، بس أصبر شوية وراح تروح هالاحلام في حال سبيلها.

أصابني وقتها بعض الهلع، فقد كنت راغبا في استمرار ليبيا داخلي ولو على شكل مفزع. فكرة غيابها مني تفضي لواقع جديد لا أعرف كنهه، ولا أظن أنني أستطيع الاستمرار فيه حتى لو عرفته، لكنني الآن المح لأول مرة نور حقيقة في ما قاله بوهدى، وأخذني ذلك النور ليسلمني لسلطان النوم.

بشكل ما يشبه الانتقال من الأوسي إلى الآزاتسي انتقال الطالب من الثانوية إلى الجامعة، حيث هنا أيضا هناك تخرج يمنح للاجيء مما يؤهله للحياة بشكل أكثر حرية. التوقيع يتم مرة في الأسبوع ونظام الوجبات والمنحة والخروج كله مختلف. يحق لك أن تنام خارج الآزاتسي ويحق لك أن تطبخ وسوف تحصل على منحة أكبر خاصة إذا لم يكن هناك في الآزاتسي نظام الوجبة الواحدة الذي يقلل من المنحة. الدخول في مركز جديد هو أيضا عملية صعبة من ناحية تكوين علاقات جديدة، ففي حالي هذه مهمتي أبسط لأن كل السكان جدد، ومنهم من أعرفه من لايدن لكنها تظل مهمة صعبة. هنا عليك أن تنسى علاقات الثانوية العامة، وتنسج علاقات أكثر ثباتا خاصة إذا كنت مثلي من الجنسيات التي حظوظها صغيرة في الحصول على اللجوء. هناك لاجئون يبقون في هذه المرحلة لسنوات طويلة. يتحول الآزاتسي إلى مستقر لهم قبل أن يجبروا على الخروج بشكل ما. بدا لي أن صحبة بوهدى وابوآثار لن تنتهي هكذا بسرعة وانشغلت بالتعرف على المكان الجديد.

لحسن الحظ أنني جلبت معي بعض البسكويت والسجائر احتياطا من لايدن، فالمطعم في المركز الجديد لا يزال مقفلا بعد، وهو بعيد مسافة ثلث ساعة بالدراجة عن مدينة آسن. بعض اللاجئين جلبوا معهم أدوات طبخهم فتعاملوا سريعا مع الواقع وصاروا يترددون على المطبخ الملحق بصالة الرياضة. لم أكن مستعدا ولم أنجح في الوصول لسوق الأشياء المستعملة لشراء طنجرة وصحن وبعض الأدوات. يذهب مجيد إلى مجموعة أفغانية يفطر عندهم. ذهبت معه يوم أمس، وتبين لي أنهم كلهم مدعوون للفطور عند جارتهم وهي أفغانية أم لولدين تلبس الجينز وتطلق شعرها الجميل الذي له لون الحناء حرا في الهواء. كانت

معنا في لايدن. امرأة جميلة وقوية، وكانت في طريقها لكندا حيث تحصل زوجها على لجوء سياسي هناك، وفي الطريق توقفت الطائرة في أمستردام فنزلت في المطار وأخبرتهم بقصة زوجها معتقدة أنها في تورنتو، وأضطرت لطلب اللجوء في هولندا في انتظار إيجاد حل لمشكلتها الأساسية وهي استئناف رحلتها لكندا حيث زوجها ينتظر هناك. بعثت لنا السيدة الأفغانية بيضا مقلبا يسبح في الزيت. أقبل عليه الشباب بنهم وتظاهرت بالمثل رغم خوفي من الزيت. قررت بعد ذلك تدبير أمر طعامي حتى يحين موعد افتتاح المطعم، أو توزيع منحة كاملة خلال أيام. ذهبت للمدينة وسألت ودرت ولم أجد سوق الأدوات المستعملة فمررت على سوپر ماركت واشترت بيضا وخبزا وجبنا وعلبة فواكه محفوظة. صرت أسلق البيض في علبة الفواكه وتحسن موقعي الغذائي وسرعان ما فتح المطعم الذي كان يعطي وجبة عشاء بلاطعم ولكنها تفي بالغرض.

كان الذهاب لمدينة آسن ممكن من محطة حافلات على الجانب الإيسر من الأزاتسي. أفكر جديا في شراء دراجة. الدنيا صيف والدراجة حل جيد، ولم يكن المكان في حالة جيدة لاستقبال مزيدا من الناس. على الأرجح تم تخصيصه بعد فترة بقي فيها مهجورا لصالح إدارة اللجوء بسبب تنامي أعداد اللاجئين. لذا أعد على عجل من جديد ولكن بشكل لم يرض عنه اللاجئين الذين يتبادلون الحديث عادة مرتين في الضحى والمساء في ساحة المطعم.

أصبحت أذهب هناك وتعرفت على بعض الموجودين. كان اللاجئين العرب يجلسون على طاولة في خارج المطعم تحت الشمس ويتبادلون الأحاديث المختلفة. كان هناك بشير العراقي وهو دكتور حديث التخرج وشوقي اليمني الإشتراكي المتزوج من امرأتين، وابوسالم

نائب رئيس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في اليمن الديمقراطي سابقا، وكان هناك أيضا اكراد. علي من سوريا وسينار وهو شاب صغير من كردستان العراق، وبومحمد كردي عراقي من سكان الكويت، وفي أثناء الحديث كان العديد يأتي للسلام السريع، أو البقاء بعض الوقت للاستماع والمشاركة، وفي المساء كنت أذهب للصالة الملحقة بالمطعم حيث توجد طاولة بلياردو متهالكة نتبادل اللعب عليها بطريقة خروج الخاسر، وهناك تعرفت على المزيّد مثل محمد ولد بومحمد وفؤاد البدون من الكويت، وتوطت علاقتي مع نادر اللاعب الماهر وهو أفغاني من أوسى لايدن الذي كنت فيه، وبعض الأفارقة من زائير وبورندي، وياولو من التوجو، وأحيانا كنت أتوقف عند الاستعلامات في المدخل لمواصلة ادعائي بانتظار رسالة ما، وأتشارك في الأثناء مع بعض الاكراد العراقيين في قراءة جريدة الحياة التي تأتي للاستعلامات وتبقى هناك لعدم وجود مكتبة. كان هؤلاء الأكراد من كبار السن حريصين على ترك مساحة مع الآخرين لتأكيد تميزهم في العمل السياسي، وهو أمر لم أكن أحفل به كثيرا فلم أطور علاقتي معهم إلى ما بعد انتظار دوري في القراءة، وهناك تعرفت أيضا على جلال من كوسوفو الذي كان يسكن مع زوجته وابنته بجانب المدخ، ل وينشغل بتربية الحمام وبيع الملابس المسروقة التي يستلمها من أصدقاء من خارج الآزاتسي، وعن طريقه تعرفت على شخص شخص غجري لن أحفظ اسمه حتى مغادرته المركز. كان يشارك جلال في هوايته ولا يتوقف عن الشجار مع زوجته من وقت لآخر، وعرفني جلال فيما بعد على بقية الكوسوفيين الذين في المركز وبعضهم كان جاري في القاطع الحاذي لي.

وهكذا صار لي خلال بضعة أيام معارف وأصدقاء. أقضي اليوم متنقلا بينهم عندما أمل من الانفراد بنفسي، لكن الجلسة الأساسية

كانت في الضحى حيث كانت الأحاديث تنتقل بسرعة من التعارف إلى بعض الشؤون السياسية وأخبار اللجوء، ثم تستقر عادة على أحوال الآزاتسي السيئة. نتبادل التذمر ونشعر بالحنين إلى المراكز التي جئنا منها. كانت الإدارة قد وفرت لنا خدمات المطعم بواقع وجبة عشاء يومية ولكنها كانت سيئة جدا. نأتي إليها بدافع الجوع لا أكثر، وبعد مضي حوالي عشرين يوما بدأ إيقاع التذمر يزداد فطرح شوقي اليميني فكرة أن نعترض بشكل علني على أحوال الآزاتسي، ونطالب بثلاجة وتلفزيون في كل غرفة أسوة بما يحدث في المراكز الأخرى، ووجدت دعوته قبولا حذرا في البداية ثم تصاعدت الموافقات عليها بشكل متسارع، ورغم أنني لم أكن موافقا على الفكرة في البداية إلا أنني مضيت في تطويرها مع المجموعة، وتكفلت بإقناع أصحابي الجدد من الكوسوفيين والأفارقة بعد أن طلب مني ذلك، بينما تكفل بشير وسينار بالتحدث مع العراقيين عربا وأكرادا وشوقي وبوسالم للتحرك في الاتجاهات الباقية، أما بو محمد فكان لا يعول عليه لطيبته الشديدة ونزوعه نحو السلامة وانتظاره التحاق بقية أفراد عائلته به من الكويت.

الإخفاء

كان أول ما توجب القيام به في خطة إخفاء العاصمة هو إزالة كل المعالم والإرشادات الموجودة على لافتات الطرق والشوارع، وكانت ضربة معلم، فحتى في أسوأ الاحتمالات التي يكون فيها الكاموندوس الإسرائيلي قد وصل إلى المدينة أصلاً، فإن بداية بهذا الشكل سوف تبعثر عناوين خرائطه وتجبره على التجمد في مكانه لمعالجة الموقف، ومعرفة مسارب ومفاتيح المدينة التي اختفت فجأة. نزلت مجاميع من العمال منذ وقت مبكر من المساء إلى الشوارع حاملة سلالها وفرشها إلى الشوارع وتفرقت كأسراب النمل بين مسارات الطريق السريع وافرعه. كانوا ينزلون اللافتات الضخمة زرقاء اللون المثبتة بجانب الطريق لتدل السائقين على الاتجاهات وأسماء الأحياء والشوارع التي يمر بها الطريق الدائري السريع، ويستبدلوها بأخرى رسمت عليها صور لانجازات الثورة ورموز توضيحية من تروس مصانع وآلات حث وزرع، وصورا لكل أنواع الشعب من عمال وطلاب وفلاحين وجنود. كانت اللوحات الجديدة مرسومة على عجل وبها أخطاء كثيرة ولكنها كانت تفي بالغرض بالنسبة للسرعة المسموح بها في الطريق السريع، أما اللوحات الصغيرة فقد كانت المهمة تقتضي بأن تطلّى باللون المتوفر ويكتب عليها شعارات ثورية سادة بدون رسوم.

استمرت العملية بضعة أيام وليال وفي غضون ذلك كانت تتم عمليات أخرى سريعة الإيقاع وخاطفة، وتأتي دائما من مكان غير منظور لتغافل قدر الإمكان شعبا تعلم لغة الشم من بعيد، فسرعان ما أعلن عن تغيير التاريخ الرسمي المعمول به في البلاد كلها، وحسب التوجيه الجديد الذي سرى بين الناس بنفس الطريقة وتقبلوه بنفس الطريقة أيضا أن تختفي أسماء الشهور وأرقام السنوات المعتادة، وتترك مكانها لتشكيلة جديدة من الأسماء والتواريخ سرعان ما انفض عنها الناس لأنها بدت غير قابلة للحفظ، وعادوا إلى طريقتهم التي اعتادوها في العد أيام زمان، محاولين الوصول إلى مقاصدهم بالحدس والتقدير بعد أن اختفت العناوين والأسماء باذلين كل جهد للتغلب على الواقع الجديد المفاجيء الذي اكتسبت فيه المدينة وجهها جديدا مزخرفا بلاعناية ولا يدل على ما ينبغي. كانوا يمضون نهارهم في انسياب متداع ضائعين في الطرق التي كانوا يعتقدون أنهم يحفظونها غيبا. فجأة تغيرت الاتجاهات وصار الوصول والتنقل يحتاج إلى صبر ومجهود ودأب، وبينما كانت الأمور تسير على هذا الحال صدر توجيه آخر يتطلب تغيير العملة النقدية، وتبديل شكل النقود بالكامل مما حدا بالناس لأن تتراحم أسابيع أمام أقرب مصرف يمكن الوصول إليه من أجل تبديل نقودهم بالجديدة، ولأن الإجراء الجديد يقضي بأن يسلم لصاحب المال فقط ألف دينار، ويحق له سحب نصفه كل شهر من ماله الخاص. انتشرت سريعا قصص تراجيدية عن أناس دخلوا المستشفى النفسي الذي يسمى مستشفى المجانين، وأصيب آخرون بخلطة من الأمراض المزمنة بحيث أصبحوا يعيشون بحذر مذعورين بينما غادر آخرون مخلفين وراءهم كلمات قليلة صاغها كل راو. مما يناسب بضاعته.

وبعد مجهود كبير بدأ الناس يرسمون خريطة جديدة للبلاد قادها في البداية سائقو التاكسي، ثم تبعها العقل الجمعي تحت شدة الحاجة لمخرج من تلك المتاهة التي نزلت على عجل. أخذوا يستدلون على الأماكن بأسماء اللافتات ذاتها التي حلت مكان الإشارات والأسماء والعناوين وعليها لذلك أن تقوم بنفس الدور، وبينما كانت هذه الخطوة العفوية المضادة تنمو بالرواية الشفهية ويضاف إليها اقتراحات جديدة باستمرار، صدر قرار يلزم تلاميذ المرحلة الابتدائية بالتعليم المنزلي، حيث على الآباء والامهات تعليم أولادهم في البيوت المناهج التي كانوا يدرسونها في مدارسهم حتى ذلك الوقت، وامتألت الشوارع بأطفال من مختلف الأعمار بعضهم شرس، وأخذوا منذ الصباح في لعب البطش والنقيزة ووايس والشرطة واللصوص، فرحين بهذه الهدية التي هبطت عليهم من السماء وتخلصوا بفضلها من عسف المدرسة والأناشيد الحماسية المرعبة، ولأنهم لم يكونوا على مقدرة لفهم أمر القرار فقد ظنوا بطبيعة الحال أن المدرسة اختفت نهائيا ولم يعد هناك ما يقتضي الذهاب لذلك المكان الكتيب بعد اليوم.

التلفزيون الوحيد أيضا شهد تغييرات حاسمة، فقد كان دائما يخلو من أي شيء ذي بال، حيث يكاد يقتصر على الخطب والأغاني الحماسية وتجمعات التأييد ومحاضرات طويلة للأخ القائد يشرح فيها رؤيته للحكم الجماهيري بنفس الطريقة التي يتبعها منذ ثلاثة عقود، لكن الجميع كان يفهم بأنه غرفة الحكم الحقيقية وعن طريقه لا بد أن يصل المرء دائما للإجابة على ما يشغل باله شرط أن لا يعتمد كثيرا على المنطق وتتابع الاحداث، ولكن التلفزيون هذه المرة بدا أيضا غريب الأطوار، حيث زادت جرعة الحماس وشرع يث فقرات طويلة يبدو فيها العقيد القذافي بملابسه اللافتة وهو يتفقد البلاد في رتل طويل

سيارات متشابهه، والجماهير تخرج لملاقاته في كل مكان، وكانت الأناشيد الثورية تتردد في كل فاصل إضافة لأنواع أخرى مختلفة لنشاطات الجماهيرية وسيل من برقيات العهد والمبايعه التي تستمر قراءتها فترة طويلة من نشرة التاسعة والنصف، وكرتفيه عن الشعب عرضت سلسلة جديدة من مسلسلات مكسيكية كل منها يستمر أشهراً، بحيث تختلط فيه الأنساب والأسماء والأماكن وكل شيء، ثم ظهر الأستاذ جابر محمود بعد غيبة طويلة ليبدأ فوراً في عمل حياته "قل ولا تقل" وكأنه كان ينتظر خلف الشاشة منذ السبعينات:

- لا تقل ياهوه.. قل يا شريكة حياتي.
 - لا تقل هنري كيسنجر.. قل مفتاح الغناي
 - لا تقل قاعد ماجاش.. قل لم يأت بعد
 - لا تقل تاتشر.. قل قاتلة الاطفال
- كان الشيب بالكاد قد غزا شعره الكث رغم سنوات عمره المديدة، بدا أقل حدة من سنوات شبابه ومطلع كهولته لكنه كان لازال قادراً على الأمر والنهي، ويملك الرغبة في اغتنام الفرصة وهو يؤدي بشكل معقول على كل حال.

وفجأة انتشرت معلومة بين الناس تفيد باكتشاف محاولة لتسميم آبار المياه الخاصة بالمدينة، وأنه قد تقرر من باب الاحتياط قفلها حتى تتم معرفة كافة الأمور التي تحيط بتلك المؤامرة، فمن يدري قد يكون للكوماندوس أنصار في الداخل وقد تلقوا الإشارة بالعمل. هذا إذا لم يكن أفراد الكوماندوس قد وصلوا بالفعل للمدينة رغم ما تم من خطوات للتضليل، وشرعوا فوراً في العمل على تنفيذ مخططهم الصهيوني الحقيق، والذي رغم أن لا أحد قد عرفه على وجه التأكيد إلا أنه سيكون شريراً ورخيصاً وابن كلب.

وبدأت جموع الناس تخرج حاملة براميلها وسطولها للشوارع قاصدة الجوامع والنقاط التي توجد بها السبل القديمة، وتلك التي تبرع بها الميسورون الذين مدوا أنابيب المياه إلى الشوارع من آبارهم الخاصة، ومن لم يستفد من هذه التسهيلات عليه أن يشتري المياه من شاحنات أخذت تجوب الشوارع في تجارة جديدة أنجبتها الحاجة والروح الجماعية التي تكافح كي تعيش وسط بساط الريح ذاك.

كان الأطفال العاطلون عن الدراسة والأهل الساعين بحثا عن الماء والسيارات التي يتكرر مرورها بنفس الطريق عدة مرات قبل أن تقتدي للاتجاه الصحيح، وغير ذلك من تغييرات متعاقبة قد جعل من المدينة متاهة متداخلة مليئة بالحركة السريعة والضجيج والضياغ. غير أن هذا لم يكن كافيا لتضليل ذلك الكوماندوس الحقيق على ما يبدو، فتم تغيير لوحات السيارات بأخرى أكثر حروفا وأرقاما يحتاج فهم مدلولها لأيام، كما غيرت المعالم الرئيسية في الشوارع الكبرى وكسرت قوائم خيل النصب الواقع على طرف الساحة الخضراء من جهة مصرف الأمة، وسمح للمواطنين بركن سياراتهم في الساحة الخضراء بقلب العاصمة على مقربة من القلعة المهيبة حيث يقول الناس أنه توجد شبكات معقدة من الأنفاق التي تخفي سجنا يقع تماما تحت المنصة التي تمر أمامها مواكب العرض السنوي في عيد الثورة عندما تختار طرابلس لتكون مكانا للاحتفال.

كانت الهمهمات المعجبة التي تروى عن مسئولين أمنيين معروفين في البلد معبرين من خلالها عن إعجابهم بخطة التضليل تنتشر بسرعة بين الناس، مرددين أنه إذا كان هذا حال سكان المدينة الذين اعتقدوا أنهم يعرفونها كما تعرف الأم وليدها من بين ألف، فكيف سيكون حال أولئك المخنثين الإسرائيليين الذين يحملون بضعة خرائط وصورا ملتقطة

من السماء، معتقدين أن ما يدور أمامهم هو ما ينبغي له أن يكون. كانت تلك التعليقات القصيرة المتقنة تتردد من قبل الأفواه في الجلسات البيتية المضمونة بنوع من الرهبة والإعجاب والترقب، فما يعرفه السكان بشكل مؤكد، أنه كلما مرت بالمدينة فترة جنون كالتى فيها الآن يذهب العديد من سكانها ضحايا دون أن يدروا ما السبب. حتى أن سجن بوسليم المركزي الذي تم هدم بوابته في اصبغ الصبغ كان لا يزال يشمل قسما كبيرا اسمه قسم البراءة، لذلك كانوا حذرين جدا، وخفي في الحركة حتى إنهم باتوا يشبهون الدواب الليلية. يلتزمون التعبير عندما يريدون بشبكة من التعبيرات والأسماء المرمزة التي يتكرونها لقاموسهم الخاص المصاغ بحذر شديد.

كان السكان يقضون يومهم في قضاء مصالحهم وتبدير أمورهم بحيث تتوافق مع الوضع الجديد. يحومون كطيور البر بقرب مصبات المياه - مهملين أعمالهم الحقيقية - نهارا على المصارف وسبل الماء العامة وإدارات المرور وثكنات الجيش متبادلين بشكل سريع في لقاءاتهم الليلية المعلومات والخبرات الجديدة، ويتساندون بطريقتهم الشعبية لمواجهة غياب المدينة أمام أعينهم في ضرب أقرب إلى السحر.

وبرغم تقدم سكان المدينة في إيجاد حلول للواقع الجديد تمكنهم من قضاء مصالحهم الضرورية، كانت الأحداث تتسارع مطيحة بإنجازاتهم الصغيرة لتدفع بهم لسهوب الحيرة من جديد في كل مرة، ففي أحد الأيام المشؤومة ظهرت عصابة إجرامية متخصصة في خطف البنات المراهقات اللواتي بالكاد نفرت نهودهن، وبدأت حكايات مجنونة ترد من هنا وهناك تلهج باسم العصاة الغريب (عصابة القط الأسود) التي تنتقل كالرياح من مكان لآخر وتنقض كالصقر على ضحاياها من الشابات الغضات اللاتي يحتفين للأبد. لم ير أحد تلك العصابة ولا حتى

ضحاياها، ولكن القصص حولها كانت تنتشر كالحمى في جسد طرابلس المريض، من كل الإتجاهات والأبواب والأحياء كانت الحكايات تتوالى لتزيد من رعب الأمهات والآباء الذين اتخذوا إجراءات استثنائية بحيث صار من شبه المستحيل أن تلمح فتاة تسير بمفردها في أي وقت، حيث تشكلت حراسات مرتجلة من أفراد وجماعات حسب الحال ترافق الفتيات وتنتظرهن على أبواب المدارس، والأماكن التي من الضروري أن يقصدنها خوفا من عصابة القط الأسود الرهيبة.

وبعد مضي أسابيع على هذا الرعب العصابي اختفت العصابة فجأة بعد أن كتبت على حائط مدرسة طرابلس المركزية للبنات بخط اسود عريض مطلبها الأخير، الذي نص على رغبته الإجرامية في أن يوفر السكان سبع بنات شقراوات ومثلهن سمراوات إذا اردوا أن يستريحوا من هذا البلاء، غير أن عصابة جديدة كانت على وشك الظهور اسمها عصابة (الطاسة المشلومة والشيخة المكسورة) التي استهدفت كل أنواع السكان بدون تفرقة وجعلت من عصابة القط الأسود مجرد لعبة طفولية بعد أن مارست مختلف أنواع تقطيع الأطراف ضد ضحاياها، الذين ألقى بهم حظهم العاثر في طريقها الخالي من الرحمة، ولمواجهة هذا الرعب كان الأهالي ينامون بالدور في بيوت مشتركة مقسمين أنفسهم على ورديات عسس منهكة طوال الليل، وفي كل مرة كانت الجريمة تحدث في الحي المجاور برغم كل الاحتياطات حتى أصيب البعض بالجنون، وفضل الاستسلام لقدره دونما أية محاولة لانقاذ الروح.

كانت لعنة إخفاء المدينة تتراكم كل يوم، بحيث أن الأهالي أصبحوا يفضلون سيطرة الكوماندوس الإسرائيلي على المدينة مؤكداً أن ما يحدث في فلسطين المحتلة لن يكون بأية حال أكثر رعباً مما

يعيشونه هنا، متبعثرين بين كل أنواع الخوف وسد الحاجات التي صارت تزداد صعوبة مع كل توجيه جديد.

““

لم تتوقف حملة الإخفاء التي صممت كخطة بدت بلانهاية، فإضافة لما سبق من توجيهات وما أتخذ من إجراءات، صدر أيضا توجيه بالغاء شركة النقل العام وإيقاف حافلاتها والتمويه على محطاتها، وتم ذلك فورا لترسو كل حافلة في المكان التي وصلت إليها فيه الأوامر بعد صدور التوجيه، وبقيت هناك تتفكك ببطء حتى ظلت هياكلها العارية ملعبا للأطفال الذين توقفوا عن الذهاب للمدرسة في النهار، وظلت كتلها الكبيرة تطل كالأشباح من أماكن مختلفة بالمدينة في الليل. أوقفت الحافلات لأنها بطبيعة عملها تمثل خطرا أمنيا في مثل الظروف التي تمر بها البلاد الآن، فهي وسيلة جاهزة كي يستخدمها الكوماندوس بالتأكيد للتنقل بين أطراف المدينة، ورسم خرائط جديدة لها للتحرك نحو الهدف، وهو ما يعني إصابة الخطة الأمنية لإخفاء العاصمة في مقتل، وحل شيفرتها وانهايار كل التدابير التي تم اتخاذها حتى اللحظة، ولنفس الأسباب تقريبا تم حل شركة النظافة العامة كي لا تتمكن فرقة الكوماندوس من رصد المكان بالليل، إذا ما نجحت في التنكر بزي عمال النظافة، وهكذا بعد أيام قليلة تكومت أكياس القمامة على بعضها مكونة مرتفعات صغيرة في مفترق الشوارع والطرق تعج بمختلف أنواع الديدان، ثم جاء دور تحسين مستوى قدرة الاكتفاء الذاتي في هذه الأزمة، وبدأت السلطات في توزيع أقفاص يحتوي الواحد منها على عشرة دجاجات وديك، وتقديم تسهيلات مغرية جدا لشراء بضعة رؤوس من الأغنام لتربيتها فوق سطح بيوت المدينة، وهكذا امتلأت شرفات البيوت بالدجاج وأسطحها بالاغنام والماعز والأرانب،

كانت هذه المخلوقات البائسة تمر بلحظات من اليأس التام نتيجة ضيق المكان، وعدم التعود على العيش في أماكن مرتفعة، فتصدر أصواتا حادة متوترة مصابة بالفزع ومنفرة، تزيد من حالة القلق والشد التي سادت بين السكان، وبعد تغيير أرقام ورموز لوحات السيارات، وتعطيل أغلب مؤسسات الدولة الخدمية كالبريد والضمان وبقاء عشرات الآلاف في بيوتهم جراء هذا البلاء، ثم الإعلان عن ملحمة تحصين الساحل وتسيير دوريات راجلة في كل منطقة من الأهالي وهم يرتدون شارة الأمن الشعبي المحلي على الكتف الأيمن، وسلسلة مكثفة من الأناشيد الثورية والمسيرات ذات البيانات الطويلة المتشابهة التي تقرأ من مكبرات صوت لا تتوقف عن الصرير.

وفي ليلة مشؤومة خرج المذيع جادا ليقرأ قرار مؤتمر الشعب العام ملتقى المؤتمرات واللجان الشعبية والروابط والنقابات المهنية، بخصوص توزيع الثروة نقدا على الجماهير، وبعد ليلة قلق مضطربة النوم صحت الجماهير واتجهت بالطبع نحو المصارف، والتقت هناك بالجماهير الأخرى التي كانت لا تزال في طوابير لتستلم أموالها وفقا للتوجيه الذي صدر من قبل بتغيير العملة، فظن هؤلاء أن أولئك قد أتوا لأخذ أموالهم التي وقفوا في الطابور أياما طويلة لوضعها في البنوك، وسرعان ما كانت تنشب معارك بين الفريقين تنتهي غالبا بتدخل قوات الأمن، والفصل بينهم وإقناع الفريق الذي جاء لنيل نصيبه من ثروة النفط بالانتظار حتى تنشر الأسماء المستحقة في الجرائد، ولكن ما تكاد الجماهير التي جاءت مطالبة بالثروة تخرج من المصارف حتى تظل تحوم حولها في انتظار الخبر الأكيد، كي تعود وتنال ما كتب لها من مال.

صاحب هذا القرار حملة إعلامية تحرض بشدة السكان على هجرة البلد والاستثمار في الخارج، بحجة أن البلاد تقع فوق سبخة مالحة لن

تكف عن التوسع حتى تبتلع ذات يوم كل شيء، ومع غرابة الفكرة وسذاجتها منذ اللحظة الأولى إلا أن أناسا كثيرين أصابهم الهلع وازدادت طلبا في ثروتها تحسبا ليوم الغرق في السبخة.

كانت البلاد قد تحولت إلى مناطق مسيخة حيث انتشرت شايبك وأبواب الحديد على المنازل بكثافة، نتيجة أفعال عصابي القط الأسود والطاسة المشلومة، وتحولت إلى مدينة كالحة متشققة الشفة عانت من هزة شديدة، وكأن كل ما حدث معها في العقود الماضية لم يكن إلا تدريبا على هذا الاضطراب الشديد.

في هذه الأثناء انتشرت ورقة منسوخة بين السكان تقول بأن الشيخ كاشيرما قد رأى في منامه خاتم الأنبياء والمرسلين النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وأمره أن يكتب للناس هذه الرؤية على أن تنسخ من قبل كل من تصله عشر نسخ، ويقوم شخصا بتسليمها باليد لآخرين حتى تكتمل الرسالة، ورغم أن الشيخ كاشيرما كان حديثا في عالم الروح والكرامات، فهو وصل إلى القمم الروحية دون سابق معرفة، واحتل ركننا من جامع سيدي الشعاب الذي سرعان ما امتلأ بالأنصار والمريدين.

كانت تدور حول كاشيرما إشاعات تقول بأنه من صناعة الدولة بهدف نشر فكر ديني معقم، يلقي بظلاله على الحركات الأصولية التي بدأت تسود في محاولة للجمها وتوظيفها في السياق العام، لكن أجواء الشد والتوتر ساقت الناس وراء رؤيته المنسوخة التي أصبحت توزع بأرقام متصاعدة كل يوم، دون أن يتساءلوا عن مضمونها وما تدل عليه، وظلت تكتب بكل أنواع الخطوط والأحبار وتتنقل في عرض البلاد وطولها، مضافا إليها في كل مرة ما يجود به خيال الناقل وما يعتقد أنه المقصود، ولكن النسخة الأصلية لم يكن بها شيء. فقط أن

الشيخ الكاشير ما رأى النبي في المنام، وأن على كل من يقرأ الورقة أن ينسخها عشر مرات.. لم يكن هناك رسالة من النبي إطلاقاً...
تمكنت حالة الدوخان من المدينة ولم يعد في الإمكان معرفة القاعد من الجالس من الماشي من الواقف من الملتفت من الثابت، ومع كل هذا كان أستاذ اللغة العربية الفصحى ما زال مستمرا في فقرته يزود عن لغته مرددا:

- لا تقل بيل كلنتون وقل بلعيد الككلي
 - لا تقل شكسبير وقل الشيخ زبير
 - لا تقل المافيا وقل مافي
 - لا تقل الفاشية وقل الفاسية
- ورغم كل هذا لم يظهر الكومندوس الإسرائيلي اللعين بعد.

1

لم أخرج في حياتي كلها في مسيرة بشكل طوعي إلا مرة واحدة عندما كنت في الثانية عشرة، لم أتذكر فيما بعد مطالب تلك المسيرة ولا سبب اشتراكي فيها عندما قابلتني في الطريق فقررت فورا الانضمام إليها، لكنني أذكر الطريقة البائسة التي أنهت مشاركتي في المسيرات بشكل طوعي للأبد.

كانت المسيرة مكونة من عشرات الأشخاص وتسير بجانب سور القيادة في معسكر باب العزيزية حيث يسكن العقيد القذاقي وتهتف بكلام لم أتبينه. لم نقطع إلا مئات من الأمتار عندما سقطت رجلي في فتحة لتصريف المياه نزع عنها الغطاء، ولم يسمع أحد صرخاتي المستجدة بحيث بقيت في مكاني أصرخ متابعا المسيرة من ظهرها المغبش بسبب دموعي. ومذاك الوقت أصبح لدي رفض فطري

للمسيرات مهما كانت مقاصدها، ولكنني فاجأت نفسي عندما سارعت للموافقة بعد أن طرح موضوع الإضراب في (الأزاتسي). وبعد أخذ ورد سريع بين مجموعة المطعم اتفقنا على وضع مطالبنا فيما صار اسمها فيما بعد - خطة لتحسين ظروف الإقامة - التي تتكون من ثلاث مراحل، أولا محاولة الحديث مع المديرية بشكل ودي، ثم كتابة عريضة بالمطالب موقعة من قبل اللائحين وكحل أخير كنا سنخرج في تجمع علني ونرفض العودة لغرفنا.

وشرعنا في اليوم التالي في تنفيذ خططنا اخترنا شوقي وسنار وجلال الألباني كوفد يذهب لمناقشة المديرية في الأمر، غير أنها رفضت أن تناقش الموضوع معهم قائلة إن مناقشة هذه المواضيع ليست من اختصاصها، فمهمتها هي إدارة "الأزاتسي" بما توفر من إمكانيات وليس السعي لجلب المزيد.

مع حلول الليل أملينا على شوقي صيغة المطالب الأخيرة ودياجتها بعد نقاش طويل. كنا قد اتفقنا على المطالبة بتلفزيون وثلاجة لكل غرفة وإغلاق المطعم وتسليمنا المنحة الأسبوعية كاملة، وطاولة بلياردو جديدة وهو مطلب كاد أن يعصف بالعريضة رغم أننا ظننا أن هذا المطلب بالذات سوف يكسبنا جماهير الشباب، وأخذنا نطوف بين القواطع نجمع التوقيعات حتى حصلنا على أكثر من مائة توقيع. أخذ الحماس الكثيرين الذين وقعوا بكل ترحاب، بينما كانت هناك مجموعة تصل لنصف عدد الموقعين تقريبا رفضت أن توقع لأسباب عديدة. بعضهم قال إن هذا عملا طائشا ودخلنا غرفة بها سياسيون أكراد ذوي تجربة فأخبرونا بأن هذه الوثيقة لا تصلح إلا أن تكون مستمسكا على موقعها ورفضوا حتى مناقشة الأمر. في كل مرة كان يتقدم أحدنا يظن نفسه مناسبا للقاطع الذي نحن فيه ويبدأ بشرح القصة قبل أن يطلب

توقيع اللاجئ، وقد عملنا بكل اللغات المثلة في الأزماتسي تقريبا، وكنا نغير الشرح طبقا لمن نجده في الدار. قمت بالدور العربي مع شوقي بعد أن غادرنا بشير منسحبا في الطريق وتأخر أبوسالم في المدينة التي قصدها لجلب تموين، حيث كنا نتبادل شرح مطالب العريضة للقاطنين العرب، واشترك معنا كاسبو الذي غادر نيكاراغوا في الحادية عشرة ووصل أخيرا إلى هذا المركز وهو في الخامسة والثلاثين بشارب فضي خفيف فوق فمه العريض. تولى كاسبو إقناع اللاجئين اللاتينيين وجلال إقليم البلقان وسنار الأكراد وآخرين من إفريقيا وشرق أوروبا كانوا ينضمون لنا في الأثناء، ولم تنته الليلة إلا بعد اجتماع ثان حددنا فيه ثلاثة آخرين ليسلموا المطالب للمديرة.

لكن المقدر مكتوب، فقد رفضت المديرة التعاطي مع العريضة ووضعتها في زاوية على مكتبها وبدا واضحا - كما أبلغنا الوفد - أن مصيرها الإهمال.

في عصر اليوم التالي خرجنا حسب الإتفاق ووقفنا في الساحة المقابلة للمطعم رافضين تناول وجبة العشاء، وأعلنا اعتصاما مفتوحا حتى يأتي مسؤول من دائرة الهجرة للتعاطي مع مشكلتنا، وقفنا هناك لساعة ونصف وعندما انتهت الوجبة ولم يأت أحد عصفت بنا الغضب وبالكاد ردعنا الأخوة الألبان وبعض المتحمسين من الهجوم على المطعم بالقوة، وقررنا نقل مكان الاعتصام إلى بوابة "الأزماتسي" في خطوة تصعيدية دبرها علينا بوسالم الذي ارتفع منسوب حماسه مع ساعات تكون الحدث، راجعا بذكراه إلى أيام مظاهرات الطلبة والمطالبة بتحرير فلسطين...

وقفنا متجمعين كيغما اتفق أمام الباب الرئيسي لفترة تتبادل أحاديث متداخلة حتى موعد خروج موظفي المركز الهولنديين

عائدين إلى مساكنهم، فخطرت فكرة للبعض أن يحتجزوهم في الداخل ويمنعوهم من الخروج واستمر تنفيذ هذه الفكرة لدقائق حيث تشكل طابور صغير من السيارات ينتظر الخروج مذعورا مما قد يفعله هؤلاء الغاضبون، قبل أن يتدخل قادة الاعتصام ويصرون على سلميته ساحين للسيارات بالعبور. لكن عندما جاء دور المديرية خرجت فجأة زوجة جلال من الصف ودفعت عربة ابنتها الرضيعة أمام السيارة التي بالكاد كانت تتحرك لتقف من جديد وسط تصفيق الحضور للبنت اللبنانية. استمر الوضع عدة دقائق أخرى قبل أن نقنع جلال بتركها تمر فعادت الزوجة وسحبت عربة ابنتها من جديد.

جاءت دورية من شرطة مدينة آسن وعندما اكتشفوا غياب المديرية اتصلوا بها هاتفيا في حديث طويل، ثم فتح الشرطي مايك التلفون وأشار لنا فاقتربنا هرعين بلانظام فأخبرنا أن المديرية ستتكم معكم الآن، وأرجو أن تصدقوا ماستقوله لأنها ستفي به. كان أغلبنا لم ير الموبايل إلا من خلف الفترينات حتى ذلك الوقت، لذلك انصب اهتمامنا على مراقبة الجهاز الصغير الذي رفعه الشرطي عاليا كي يسمعه أكبر عدد ممكن من اللاجئين، واضعا إياه قرب مايك السيارة المرتفع لفوق كي نشاهد الموبايل والمايك ونتأكد أنه مامن خدعة في الأمر، وتبرع بوسالم بالترجمة فكان له حق وضع أذنه شبه ملاصقة للهاتف، وهو مكان حسده فيه الكثيرون، وبالنسبة للمجموعة التي بجانبني فإني أؤكد بأننا لم نهتم بصوت المديرية الذي يخشخش من فتحة الهاتف الصغيرة التي لم تكن مرئية لنا، اكتفينا بتأمل الجهاز وسماع كلمات بوسالم المترجمة والتي تؤكد لنا أن أول ماستفعله المديرية صباح الغد هو الاستماع إلى وفد من موقعي العريضة، وتلبية كل ما تستطيع

منها ومخاطبة المسؤولين في الباقي، فقررنا العودة لغرفنا عندها مكتفين بنصف نصر، وبعد أن فرغنا كمية كبيرة من العقد التي كانت داخلنا وأصبحنا رغم الأضرار التي سببناها أكثر صحة من قبل، أو هذا ما كنت أفكر فيه بعد أن عدت لسريري ودخنت لفافة وبدأت أتأمل ما مر بي.

فصل

في الحقيقة أنا من ذلك النوع الذي لا يحب الكلام عندما يدخن، وأفضل دائما أن أكون وحدي إذا دخنت خاصة في الليل، أنا أيضا من ذلك الذي تتأبه في الليل وهو مستلق على سريريه بعد أن يدخن حالة من الخجل من تصرفات قمت بها عندما كنت مستيقظا في النهار، ومهما حاولت أجد نفسي أراجع فحاري وألوم نفسي على بعض ما حدث، ولأني مدخن معتدل - كما أعتبر نفسي - فقد كنت أثبت أمام موجات اللوم والخجل تلك ولكن ذلك يحدث بعد ما يكون جزء مني قد انهار تاركا البناء يعاني من فج يحتاج للترميم، إما بالاعتذار أو بالرد بالمثل أو التجاهل الذي أحاول جعله واقعا يمكن لمسه باليد - وهذه العادة الأخيرة تمثل لي خجلا دائما - وفي حياة المركز التي أنا فيها الآن يبدو المكان دائما ضيقا وأنت معطل من أي فعل حقيقي، لأنك في النهاية لست حرا ولا أوراق عندك، ولم يبت في طلبك بعد، وهي تفاصيل تجعل من حالة التوق لممارسة الحياة الحقيقية خارج الآزاتسي المترافقة مع حالة أخرى من الملل والخوف من البقاء هنا لسنوات أخرى، أو الاضطراب لتغيير البلد متحفزة ومشدودة مما يوقع الفرد في ارتكاب أخطاء. هناك حالة من العصبية في المكان وأنا جزء منها مهما ادعيت اني واع بها.

““

عندما تأملت في وقائع اليوم من على سريري خجلت مما فعلنا ولحقني ما يشبه الندم والخوف من العاقبة، ووسط هذه المشاعر التي كانت تدب داخلي ككائنات حقيقية أحسها ولا أستطيع رؤيتها أدركت أنني في ورطة حقيقة، إذ ليس أمامي إلا إكمال الطريق، وانتابني الغضب من نفسي لبعض الوقت حتى انتهت من جديد من سرحاني، وقيمت الأمر مجددا وأنا ألفت سيجارة ثانية فتراجعت حدة نفسي بقدر كاف سمح لي بالتحول إلى موضوع آخر مناسب للسرحان.

في الصباح اجتمعت مجموعة المطعم وتحدثت مع الموجودين ثم اختاروا وفدهم الجديد ويبدو أنني قد ناضلت بما فيه الكفاية لكي يتم اختياري بالفريق لأول مرة في حياتي. ذهبت رفقة شوقي وبوسالم وجلال وكاسبو إلى المديرية التي وجدناها قد ألصقت أوراق التوقيعات على لوح خلفها في استعراض ديمقراطي ملفت. جلسنا معها طويلا ونحن نفاوض حول التحسينات الضرورية والأخرى التي يمكن الصبر عليها بعض الوقت، ثم خرجنا بوعود كافية لطمأنة الجماهير التي رأت نتيجة تحركها "العفوي". بعد أيام جاءت شاحنات أفرغ منها العمال ثلاجة وتلفزيون في كل غرفة، واستلموا في نهاية الاسبوع المنحة كافية بعد أن اغلق المطبخ وتحول إلى صالة تستخدم للمناسبات.

أما أنا فقد رجعت ذلك الضحى لغرفتي فوجدت أن رفيقي الأفغاني قد غادرها، فتذكرت أنه قد أخبرني يوم أن امتنع عن التوقيع بأنه سيغادر خلال يومين لينضم إلى أخته وأخيه القاصرين في مركز لجوء آخر، لكنني وقتها لم أنتبه لخبر رحيله لانشغالي بمهام الاعتصام الأول في حياتي وحياة أغلب من قاموا به، وشاهدنا خلاله عن قرب الديمقراطية وإحساس الجماعة المشترك والهاتف الخليوي لأول مرة في حياتنا.

في كل مرة كان السكان قادرين على تكييف حياتهم مع ما يستجد من خطوات لإخفاء المدينة عن أعين الكومندوس، ولكن كل مرة كان السكان يفقدون شيئاً من مهاراتهم ويبدو عليهم التعب أكثر، وبدوري كنت أستمّد طاقتي من هذا العقل الجمعي الذي يدوام على رسم اتجاهات جديدة للمدينة خلف تلك التي يتم تغييرها ومحوها من الواقع. أخرج في كل مرة أقل من قبل ووهاب كذلك يجلس يفكر في مشروعه الجديد ويتبادل معي الحديث حوله. يشتري قارباً صغيراً ويقوم في بيت أمه يقرأ ويكتب. يصرف مدخراته القليلة على الضروريات بعد أن يكون قد أمن جزءاً من احتياجاته الغذائية من الحديقة الصغيرة التي سيزرعها في حديقة البيت.

أغلقت الورشة والمجلة والكثير من الشوارع والأمكنة المألوفة، وصارت الأمكنة الأخرى مليئة بأطفال عاطلين عن الدراسة وبالغين عاطلين عن العمل. شوارع وأزقة يحوم فيها الدجاج الذي صار بعد الألفة من السكان. لبحث عن غذائه من الديدان في أكداس القمامة، وتتصايح فيه البهائم المربوطة على الأسطح وزوايا المباني، ويقضي فيه الناس نهارهم لاهئين بين براميل الماء ومعرفة الاتجاهات ورعاية الماشية والأطفال، والوقوف في طوابير طويلة على باب الجمعيات الاستهلاكية والمصارف في انتظار فتح طاقة السعد.

استيقظت اليوم في منتصف النهار. لم أجد وهاب، اغتسلت وبدلت ملابسني وخرجت نحو مطعم الفول. وصلت بصعوبة حيث كان الإزدحام شديداً. يبدو لي أن وسط المدينة هو الجزء الوحيد الذي صمد أمام الإخفاء، والناس تحب أن تأتي إلى هنا لأنها تحس بأنها تتحرك في مكان تعرفه، حيث ظلت شوارع عمر المختار والفتاح ومحمد

المقريف تقريبا كما هي. بدلت أغلب لافتات المحلات وطلبت الحوائط بألوان تشبه الغائط لكن ذلك لم يؤثر على الشكل الأساسي لتركيبية الشوارع، لذلك أصبحت هذه المنطقة مزدحمة معظم فترات النهار، فالناس تحن لها كل يوم لأنها سند للذاكرة ونجاح للمكان. لم تستطع الخطة هزيمة قلب طرابلس لأن هذا القلب صمد في فترات مماثلة من التاريخ وبقي نابضا يدفع الدم في شرايين بقية المدينة والبلد.

في المطعم وجدت الشايش بعد فترة من الانقطاع، بدا لي أنه يعاني من نوم متقطع طويل، جذبني للزاوية وما إن جاء الفول والطرشي، وتأكد من انقطاع الرجل على الطاولة حتى بدا يحكي عن الكومندوس والتغييرات السريعة على المدينة، التفت للناحتين ثم مال على يميني وهمس:

- هل تدري بما يدور في المدينة
التفت نحو اذنه التي كانت تحاذي خدي واجبته بانني اعيش هنا
وادري..

- اعرف انت تعيش هنا.. بلا فلسفة.. اقصد قصة الكومندوس.
طبعا ياسيدي..

- اقسم بأنك تدعي ذلك فقط، انت لا تعرف شيئا
تأملته بعد أن استندت مجددا على الطاولة وصار أمامي.. كان بهيئة من لم ينم ليلال طويلة. شعره منفوش وعيناه تتحركان بسرعة، ولم يبدد الشايش ظنوني عندما استرسل:

- الجماعة لا يبحثون على كوماندوس إسرائيلي كما يدعون، إن مركبة غربية وعلى الأرجح من الفضاء حلقت فوق المدينة لمرات عديدة في ليلال مختلفة، وقد رصدت وكالة ناسا الاميركية للفضاء الحدث وبلغت السلطات وقدمت كل مساعدة مطلوبة من اجل

العثور عليها، لأن ناسا قالت بأن المركبة لم تغادر وانما حطت في مكان مجهول بالنسبة للوكالة...

قال ذلك بصوت حيادي ثم قطع الكلام في هذا الموضوع، ولم أعرف هل هو في حالة من حالات الرهاب المعتادة، أم انه شديد الغيظ والحنق لدرجة تفسيره لما يحدث بهذه الطريقة شديدة التهكم والسخرية..

ما كدنا نكمل صبحي الفول والمخلل حتى اقترح الذهاب للرابطة لنرى كيف تسير الأحوال، وأصر أن يتم ذلك مشيا على الأقدام في أحد أيام (اغسطس) اللاهب هذا، وهكذا قطعنا الطريق دون صعوبات كبيرة عدا الحر الشديد، حيث تقريبا سلكنا نفس طريق تلك الرحلة التي قطعناها سويا قبل سنوات في يوم المظاهرة التي أعقبت لقاء المنتخب الوطني لكرة القدم، يوم ان أصر الشايش أن نسبح في شاطئ السندباد برغم أننا كنا خارجين توا من المعمة، وتذكرت تلك اللوحة التي كان يحملها الشايش معه ورفض أن يلقي بها رغم ما حدث، وهممت مرات عديدة لسؤاله عنها وأين أصبحت، ولكنه كان يتنقل في الحديث من السياسة للدين، ومن علوم الفضاء للأدب، ومن ليبيا إلى إيرلندا في لمح البصر، وكنت أجاريه متحمسا في بعض الأحاديث وأتوقف مستريحا في بعضها الآخر مكتفيا بالسماع أحببت أم لا... وصلنا للرابطة حوالي العصر وصعدنا للطابق الأول فلم نجد أحدا فانتقلنا للدور الثاني الذي كان خاليا بدوره، وجلسنا في مقر المجلة ننظر

للبحر من خلف الزجاج، كان ساكنا ومستفزا بهدوئه وجماله وأزليته..

بعد وقت قصير دخل علينا رجل ستيبي، أشيب الصدغين ومتعب الجسد ينز عرقا، سلم وجلس، وعندما تأكد بأنه في مقر المجلة وأن

العنوان صحيح بدأ في قصته، حاول الشايش إيقافه وتوضيح أن المجلة توقفت وأننا لسنا مسؤولين فيها على أية حال ولكن الرجل استمر في حدوثه العجيبة.

قال بأنه اسيقظ ذات يوم منذ أسابع ليكتشف أن دجاجاته تنقص كل مرة، وبعد أن تثبت من الأمر جيدا اكتشف أن الخروف الذي يربطه قريبا من حظيرته المرتجلة كان هو من يأكل الدجاج، و"مش هكي وبس" - استرسل الرجل - إنه يفعل ذلك وهو في غاية المتعة، صار يرفض أي علفة غير الدجاج، وأنه وزوجه كتما الخبر عن الأولاد وظلا حائرين في هذه المصيبة التي هي علامة واضحة على دمار كبير قادم يحدث كما في القول المأثور مقترنا بتوديع الدنيا وداعا أبديا وقدم الآخرة التي لاينفع فيها لا المال ولا البنون.

أراهن أن الشايش قد انفصل تماما عن الجلسة وأنه يسبح الآن في كونه الخاص المليء بالكومندوس وكائنات الفضاء والخرفان التي تتناول اللحم على الخواء. لم أكن لأعول عليه في تخليصي من هذه الورطة، وأدركت أنه علي أن أستلم الجلسة خاصة أني من محرري المجلة المتوقفة، وعندما سألتها عن الطريقة التي يريد أن نساعده بها أجابني أنه يريد أن تكتب المجلة عن خروفه، وتنشر صورته لأنه ضاق عن تحمل الأمر وحده، وعندما كررت عليه أن المجلة متوقفة أصيب بخيبة أمل واضحة وهمس ببعض كلمات لم أتبينها. كان على ما يبدو يعول على المجلة كثيرا، ولرفع معنوياته ومشاركته آلامه أعطيته رقم زميل في صحيفة ثورية مؤكدا له بأني بنفسني سوف أتصل به وأطلب منه القيام بالأمر.

خرج الرجل شبه راض لتنتلق ضحكة الشايش مدوية بعد أن حسبته غائبا عما يدور:

- هه هه هه هي هي هو هو

واو واو واو.. خروف ياكل في اللحم

هه هه...

وعندما حل المغرب خرجنا للشارع وبالكاد حصلنا على صاحب سيارة خاصة يعمل عليها، وعندما عرف أمانتنا بالغ في السعر ولعله محق، تبرع الشايش بالدفع، وفي الطريق حاول مع السائق أن يخفض الأجرة مقابل أن يحكي له القصة العجيبة ولكن السائق رفض وبدوره رفض الشايش إخباره بالقصة، أو على الأقل لدى وصولي إلى السكن الجامعي، وما إن نزلت حتى اندفع ورائي الشايش مسرعا:

- بالله منو من جماعتك كان ايدور على تأشيرة اجنبية؟..

- انا شخصيا يا عزيزي.

- او كي.. تمشي للسفارة الهولندية بكرة، فتحوا في التأشيرة من ايام.. خف رجلك..

عاد للسيارة وكأنه قال خيرا عاديا بالنسبة لي، وبقيت للحظات مشدوها في الليل، قبل أن أستوعب الخير متمنيا أن يكون وهاب موجودا لأنقل له الخبر لعل وعسى..

دخلت الغرفة منتشيا بخبر التأشيرات، لم يكن وهاب بالدخل، جلت بعيني في المكان، وأثناء عودتي لقفل الباب لاحظت مظروفا بريديا ملقى تحته، كان به خمسون دينارا ورسالة مستعجلة من وهاب يخبرني فيها أنه ذاهب لبلدته لفترة ويطلب مني أن أبقى على اتصال معه متى ما أمكن.

فتحت التلفزيون ومررت بأبحث عن جواز سفري، الذي وجدته كما توقعت في فردة الدولار العليا، تركته هناك بعد أن اطمأن بالي،

واتجهت للمطبخ الصغير محضرا ما توفر لتناوله، مديرا وجهي من جديد للتلفزيون. كان المنظر المتكرر نفسه منذ أمس. صورة مرسومة على عجل لحذاء عسكري مكتوب تحته أنه هدية من مشاهد لإذاعة الجماهير. هذا يعني في لغة الواقع أن القائد "زعلان"، وفي أغلب الظن أن هذا الحذاء من رسم يده الكريمة، يستمر الحذاء على الشاشة ساعتين أو ثلاث ساعات، وعندما يختفي يحل محله جرار زراعي أخضر من نوع الجدع الذي يتم تركيبه في مصنع تاجوراء.

وفي فواصل متباعدة كانت تبث نشرة أو أغان ثورية يظهر فيها القائد بمختلف الملابس والأماكن والبشر، وبها لقطات من ذلك الزمن البعيد الذي كان فيه شخصا خجولا بسيطا قبل أن يتحول لجمال هادر محاط بالحريم والحرس والغيظ..

بعد نوم متقطع به عرق كثير صحوت واغتسلت وشربت ماء وتناولت جوازي ومضيت. تفقدته في الطريق مجددا. تأشيرة لبنان وقبرص وسوريا والمغرب ومصر وتونس، لا ينقصه إلا تأشيرة هولندا ليتقاعد مشكورا.. نزلت من التاكسي واتجهت قاطعا ميدان الجزائر ثم استدرت قليلا لليمين وبعد دقائق استلمت نموذج التأشيرة وملاؤها بصعوبة بالغة، وبعد عدة استشارات، سلمته مع الجواز والصور وعشرين دينارا من نقود وهاب ورجعت أمشي دون هدى غير مصدق أن الأمر تم بتلك السهولة، التي تكاد تكون مريية لبساطتها، بعد أسبوعين أحصل على التأشيرة. شيء لا يصدق أصابني بالرجفة، بعد أيام سألتقي بالشايش لأخبره بالأمر فقال لي إنه كان يعرف بأن الأمور ستتم..

- تعرف ليش

- لا

- لأن الهولنديين والبلجيكي اكتشفوا أننا اكثر شعب يشتري في سياراتهم المستعملة والمنتھية صلاحيتها، فقرروا ان يوسعوا هذه التجارة الراجحة على ناسهم...هه هه هي..انشاءالله غير مايعرفوش انك امنترف (مفلس تماما) هه هه...

1

لن يغشني الطقس مرة أخرى، في هذا الضحي الجميل المشمس من (أغسطس) بقيت كالعادة متكاسلا في سريري. أشاهد التلفزيون عندما سمعت داوود ينادي باسمي من وراء النافذة. ظهر كما كل يوم مرتديا طاقة صوف مثنية على شكل طاقة يهودية، يتسم ابتسامته الواسعة.

خرجت للنافذة ليخبرني أن مكتب الشرطة بالآزاتسي يطلبني، دبت رجفة في داخلي، فبالنسبة لمثلي، ذكر الشرطة لا يسره حتى ولو كان في الجنة. اغتسلت وغيّرت ملابسي والتحقت بـداوود الذي بقي كما توقعت ينتظرني نزولا عند رغبة فضوله الكبير.. بقي أيضا أمام باب المكتب عندما دخلت ووجدت رسالة من وزارة العدل تخبرني بأن طلبي للجوء رفض، وبرغم الصدمة الأولية تمكنت من مراوغة داوود بكذبة سريعة مفادها أن الرسالة من أيام أوسي لايدن، وأنني نسيت استلامها وهامهم يرسلونها لي من جديد، بالطبع ظل متشككا يعيد سؤالي بعد كل بضعة أمتار حتى دخلت غرفتي وأقفلت الباب وبقيت لصباح اليوم التالي في خلطة من المشاعر. الغضب والخيبة والخوف والذنب وكل ما يمكن أن يفكر فيه في هذا الموقف. لكن مع الأيام تحسن الحال. الرفاق في المركز أمدوني بتجارب عديدة لأناس أخذوا اللجوء بعد الاستئناف، والحقيقة أن هذا كان معروفا بالفعل، كما

تسلمت رسالة من المحامي يخبرني فيها أن الوزارة ردت عليه بأنهم يعرفون أنه لا توجد حرية صحافة ولا رأي في ليبيا، وهم بحاجة لجمع بعض المعلومات عن هذا الموضوع بخاصة أنهم متأكدون من أني صحفي بالفعل ويقدرّون طريقة تقديم اللجوء باسمي وجنسيّتي الحقيقيّتين. سمعت الكثير من الكلام من مثل هذا وذاك ساعدني على التفكير في نسيان الموضوع وأنّي محتاج فقط للوسيلة التي تخرجني من هذا، وهكذا بلغ الشوق منتهاه للمكرونة الليبية والمكبكة تحديداً، وقررت أن أداوي نفسي بوجبة من الأكل الحقيقي الممغن في البساطة واللذة..

لست طبّاخاً ماهراً ولا ذواقة كبيراً للأكل، لكنني من تلك النوعية التي تعتبر الطبخ حالة خاصة تشبه حالة اليوغا. حالة تداوي من الآلام وسقم النفس ومحاولة جدية لإعادة الانسجام مع النفس والمحيط والتخلص من العلل. المكبكة بالنسبة لأمثالي رحلة علاج قصيرة تتوج بمتعة السلام الداخلي ولذة الطعم.

لذا انحدرت مع الضحى نحو القرية المجاورة على دراجتي البيضاء. لا أحب عادة التسوق من القرية لتحفظ سكانها الواضح ومشاعرهم القلقة تجاه سكان المركز، ولكنني قررت توفير المشوار لمدينة آسن والاحتفاظ ببطاقتي قدر الإمكان.

في المتجر الكبير الرئيسي بالقرية تسوقت بمهل ولم أعر صاحبه الذي كان يراقبني باستمرار أي انتباه. أعرف أنه يتعامل مع كل ساكن من المركز باعتباره لصاً محتملاً، وقد حدثت بالفعل سرقات عديدة من متجره، لكنه لم يستطع تطوير أسلوب فعال في الرقابة. كنت أكتشف وجوده على بعد أمتار ميني بينما أتجول في المحل، وعندما أراه كان يطلق بعض الصفير المنغم ويلوي سلسلة مفاتيحه حول إبهامه موحياً بأنه غير مهتم بي. كان أسلوباً برياً وساذجاً ولاعجب أن السرقات تحدث

كل مرة في محله. اشترت ما أحتاحه للمبكبة وأضفت على البضاعة قنينة فودكا اخترتها لشفافيتها وشبهها بالماء، فالشرب خارج الغرفة ممنوع. عدت للغرفة بعد أن وضعت اشيائي خلفي على الدراجة وربطتها جيدا في القفص الصغير.

بقيت في الغرفة أشاهد التلفزيون. شاهدت شريطا وثائقيا حول صنع الشمبانيا في فرنسا. طرق العناية بالكرم، واستخدام العصرة الأولى فقط من العنب للشمبانيا بينما تذهب الثانية والثالثة لصنع النبيذ. كانت المنتجات تخزن في أقبية محفورة في كهوف من الطباشير وهي الطريقة التي أتبعها الرهبان منذ القرن الخامس عشر، ويتم توظيف أناس مختصين فقط في التذوق والشم لمعرفة المدى الذي بلغته البضاعة من النضج..

ثم شاهدت الأخبار ومسلسلا مكسيكيا حول ثلاثة توائم فرقهم الأحداث في قناة الام بي سي، قبل أن تأتي "كوثر البشاروي" ببرنامجها الثقافي الذي تلعلع فيه حول الحرية وقضايا الثقافة في نسخة أعرف جيدا أنها مزيفة حتى العظم. أتذكرها في زيارتها لليبيا لتسجيل سهرة عربية وأكاد أجزم أنها لم تلتق مثقفا حقيقيا واحدا...

في حوالي التاسعة والنصف أفرغت قدرا لا بأس به من الفودكا في زجاجة مياه عادية، وجمعت العدة واتجهت نحو المطبخ العام حيث وجدت عبدالرزاق السيرلانكي بالكاد يشرع في طبخته. كان عبد الرزاق مع نادر أفضل لاعبي بلياردو في الآزاتسي، وهو شخص هاديء ومحترم وفي حاله. تركت بضاعتي في قرب أحد افران الغاز الثلاثة ووقفت بجانبه نتحدث مراقبا طبخته... عندما سخن الزيت رمى فيه حفنة من الفلفل الأسود، مضيفا لها وسط البخار المتصاعد حفنة أخرى من مسحوق الفلفل الأحمر، ثم أضاف بعض الكاري قبل

أن يقذف ببعض قرون يابسة من الفلفل الأحمر، وعندها رفعت الراية وسط السعال وخرجت مسرعا وضحكاته خلفي وهو يردد فرحا:

Libyan people can not stand against the sharp food -

(الليبيون لا يستطيعون تحمل الأكل الحار)

لم يكن اكلا حارا، انه الجحيم بعينه

خرجت لدقائق ثم عدت حيث قابلني عبدالرزاق في الباب خارجا بوجبه التي تفوح بالبهارات الحادة. تبادلنا التحايا وأكملت نحو الداخل حيث أخرجت ما في كيسي، ونقلت نظري مرات بين الإناء أو الطنجرة الصغيرة التي سبق واشتريتها من سوق الأشياء المستعملة - أساسا هي لتسخين الحليب - كانت صغيرة وتحتاج لتقدير دقيق لمقادير ما يوضع فيها ولكنها كافية بالتأكيد لشخص وحتى لشخصين ربما...

وضعتها على الغاز وتركتها قليلا حتى سخن قعرها ثم سكبت فيها الزيت، وقطعت حبة طماطم وأضفتها ثم قطعتين من اللحم - خروف استرالي - وأضفت عليه البصل وحركت الخليط لحظات ثم أضفت ملعقتين من الطماطم المقلب ومقدارا من مسحوق الفلفل الأحمر والبزار ومثلهما من الكركم، وحركت الخليط مرة أخرى مرات عدة حتى ظهر لونه الأحمر اللامع، ووضعت الملح فتصاعدت الرائحة الزكية ثم صببت مقدار كوين من الماء معيدا تحريك الخليط مرة أخرى، وأضفت ثلاثة قرون من الفلفل الأخضر إثنان منهما مقطعان وواحد كما هو قبل أن أغطي الطنجرة بالصحن وسكبت دورا من الفودكا من زجاجة الماء وشربته جرعة واحدة على الطريقة الليبية. بقيت لدقائق أمام طنجرتي كالحارس الأمين أراقب سير الطبخة. في هذه المرحلة هناك أمران أساسيان لنجاح الوجبة، أن تبقى بجانبها للمراقبة الدقيقة وأن لا تضيف كمية الماء الأساسية حتى تذوب قطع الطماطم الأخضر

في المكونات، وبناء على هذين السببين يترتب مستقبل المبكبة ونوعية طعمها. شربت في الأثناء كأسين آخرين وتفقدت الطبخة وانتظرت حتى تأكدت من ذوبان الطماطم، فسكبت حوالي نصف لتر من الماء وانتظرت قليلا حتى غلى وأقفلت الطنجرة مجددا، ونظفت المكان من القشر والبقايا وصار بالإمكان في هذه المرحلة أن أبتعد قليلا عن الطبخة، فأخذت زجاجة الماء وجلست على بقايا كرسي قرب الباب. كانت النشوة قد بدأت تدب في جسمي ورفعت رائحة ما في الطنجرة من معنوياتي وأصابني نوع من الزهو. بين الحين والحين يمر أحدهم فتبادل التحايا ولحسن الحظ كان الوقت متأخرا قليلا بحيث لم يزعجني أحد ويفسد علي مزاجي بالمقاطعة والاسفسارات، بعد حوالي نصف ساعة فتحت الغطاء وذقت الخلطة التي أرجعتني سريعا لأيام خوال مضت.

أضفت بعض الماء ثم عدت بعد دقائق وتفقدت اللحم فوجده ناضجا تقريبا، وكانت "الطبخة" أيضا خائفة وداكنة وكل شيء قد ذاب فيها فصبيت مكرونة الخرز التي سبحت أولا كالعقيق، ثم رست في مكانها تحت الحساء الأحمر، وأعدت وضع الغطاء ولم تمر إلا لحظات حتى سمعت ذلك الصوت الجميل، صوت المبكبة وهي تبكك محرقة الغطاء في إيقاع هزاز وسريع ومتلاحق. وضعت ثلاث من فصوص الثوم في قطعة نايلون ثم دققتها حتى لانت وقطعت الكزبرة الخضراء وأضفت خليط النكهة الأخير قبل أن أطفئ النار مباشرة، ثم حركت المحتويات كلها من جديد فاندفعت الرائحة الزكية لتملأ المكان وأعدت الغطاء وتركتها تنضج نفسها بنفسها في لحظاتها الأخيرة.

حملت وجبتي الثمينة وبقايا أغراضي منتشيا نحو الغرفة وسكبتها في الصحن، وختمت يومي بتلك اللذة في المأكول والمشرب، وبالكاد

وصلت من الطاولة لسريري متخما رائق المزاج وسرعان ما ذهب في نوم مريح على إيقاع التلفزيون.

““

استعدت حياتي بالتدريج وأضفت للمكبكة التي صرت أطبخها مرة إلى مرتين في الأسبوع وجبة يومية تقريبا من سندويتش التونه والهريسة الحارة التي تحصلت عليها من محل مغربي بمدينة آسن. كانت هريسة تونسية شبيهة بعض الشيء بما تعودنا عليه في ليبيا. وبعد هذه الدفعة الجديدة في نظامي الغذائي كنت أمارس يومي بشكل روتيني هاديء. أستيقظ في الضحى. أتناول سندويتش التونه او البيض او الجبن والهريسة، ثم اذهب لمجموعة المطاعم أتحدث مع بشير وشوقي وبوسالم ومن يصادف وجوده في مختلف الأمور، ثم أخرج أتمشى في الغابة المجاورة أو أعود للغرفة وأشاهد التلفزيون أو أرتجل برنامجا يوافق مزاجي في تلك اللحظة.

““

تعرفت أيضا على إياد، وهو شخص أنيق من العراق. أخبرني أنه من تنظيم يتبع لشخص اسمه إياد علاوي، على الأغلب اسمه وهمي ويحاكي به اسم علاوي كما فكرت. بعض العراقيين من أصدقائي لا يرتاحون له لأنه أنيق الملبس والساعة ومتحفظ بأكثر مما يكون عليه اللاجيء، لكنني لم أهتم ولا للحظة بذلك ما إن عرفت أنه قرأ ماركيز وعلى معرفة جيدة به، تعرفت عليه بداية في طابور جريدة الحياة بالاستقبال ثم بالمكتبة الصغيرة عندما فتحت حيث كنا نقرأ الجريدة ونتاجش خاصة حول ما إذا كان هناك كلمة منشورة لصدام حسين، نحاول أن نحفظ منها مقاطع قبل أن نخرج للمساحة الخضراء خلف البوابة الرئيسة ونبدأ في التعليق عليها وإعادة صياغتها بشكل تهكمي ساخر.

كان إياد من تلك النوعية القادرة على التقاط الشخصيات الفريدة ذات النكهة الخاصة، جاء مرة للغرفة وطلب مني الخروج معه وأوقفني في الساحة المتربة التي تفصل بين القاطع الذي يحد الآزاتسي، وبقية القواطع وأشار لغرفة معينة وقال لي: شوف

كان الوقت غروباً، خلف النافذة شخص نحيل جالس عند الطاولة خلف الشباك في غرفة مظلمة مكتفياً بشمعة ويكتب باستغراق. أخبرني أن اسمه علي وهو من إيران وهو شخصية خاصة، وعرفني عليه واستمعت باسترساله في الهذيان حول الحب والفخر والغربة والشعر والديانات والمحبة وكل شيء. كان إياد يتعامل مع علي بطريقة راقية وجدية تحتويه تماماً. لذا لم يكن متحفظاً أمامه، واستمررتنا تأتيه في بعض المساءات ونقف خلف الشباك حيث ينساب في الحكي عن عالم خاص مثالي مليء بالتذمر من واقع الحال، قبل أن نذهب في حال سبيلنا. استمر علي حوالي عشرة أيام في الآزاتسي قبل أن يتم ترحيله على الأغلب بسبب طلباته الكثيرة، وانزعاجه الدائم من عدم تقدير مواهبته ومعرفته بأحوال العالم، وهكذا جاءني إياد مرة أخرى وهو يضحك ليخبرني بأنه قد وجد شخصية فريدة أخرى. كان هذه المرة لشاب لم نتبين جنسيته الأصلية بالتحديد، يتحدث لغات عديدة ودائم النقاش لكل من يواجهه من مسؤولي المكان، وجلسنا مرة نراقبه وهو يتحدث لموظفة المكتبة متنقلاً بين اللغات بسلاسة عجيبة، وهو يشكو لها متاعبه في هذا العالم الناكراً للمواهب، وفي أثناء الحديث سحب حبة شوكلاته ومنحها للموظفة وهو أمر ظل إياد يتذكره دائماً معلقاً بلهجته العراقية:

- لا.. لا.. شفته لما اعطاها الحبة...دوخها والله العظيم..

كان إياد واحة صغيرة تضاف للمكان بمعرفته الأدبية الواسعة وصبره وأناقته وهدوئه على غير المعتاد..

أمر أيضا على توم وهو من سكان جنوب السودان. لاعب سلة ماهر وإنسان على حاله. أبادل معه الحديث حول أحوال الجنوب و(جون قرنق) الذي يحبه وأحوال الآزاتسي التي يراقبها ويفهم تفاصيلها من على بعد. يقيم توم مع رفيق من نيجيريا قدم أوراقه على أساس أنه من جنوب السودان ولكنه ارتكب خطأ كبيرا عندما ادعى أن اسمه محمد، ومتحصل على رفض لمرتين وينتظر النتيجة النهائية ويبدو غير مبال بشيء. في كل مرة أطل من الشباك المفتوح أجده يتفرج على شريط "سكس" أو قناة ام تي في للموسيقى.

وعندما أريد التغيير كنت أبحث عن عباس العربستاني الذي يحب أغاني أم كلثوم، ويظل ينغمها طوال الجلسة، أو رهباني الأفغاني الذي يتحدث العربية بطلاقة حيث ندخن سوية لفافة من الحشيش، وهو يردد فرحا حامدا لله الذي جعل من بلده مصدرا لبضاعة تهم العالم ولو كانت الحشيش.

أشارك في لعب البلياردو وفزت مرة بالترتيب الرابع على مستوى الآزاتسي في إحدى المنافسات، وألعب أيضا تنس الطاولة وبعض الشطرنج وأتابع التلفزيون بنهم فهو الرفيق الوحيد الذي يعطي دون أن ينتظر منك الرد، أو أن تبذل مجهودا في الفهم إذا لم ترغب في البضاعة المعروضة.

طرابلس - (أغسطس) 1996

الدنيا تعوم في الحر نهارا والرطوبة ليلا، لكنني لم أعد أحفل. يمثل هذه الأشياء والظواهر، فقد ضمنت التأشيرة الهولندية في جيبي وليس أمامي سوى أيام لنقل جذوري لبلاد أخرى وأفق مختلف، تنتابني أحيانا رعدة خفيفة وتنمل في الأطراف ولكنني أصر في كل مرة أن لا أفكر في الموضوع. كنت أهييم في الشوارع أحيانا حيث حديد الشبائيك والأبواب والسياج يسد بعض الطرقات ويرسم جغرافية جديدة للمدينة، أو أبقى ليوم أو يومين في الغرفة منفردا بنفسي ومبتعدا عن الجميع. كانت قصة الخروف الذي يأكل الدجاج قد أصبحت على كل لسان، فبعد نشرها في الجريدة اعتيرتها السلطات دليلا ماثلا على تسرب داء خبيث يغير من الطبيعة الحيوانية، ويجعل من الخروف ذئبا وأن هذا تم بفعل فاعل وماهو إلا مقدمة لاستخدام هذه الجرائم الخطيرة على المواطنين، وانتشرت توجيهات تأمر بضرورة التخلص من الأنعام المربوطة بالمنازل، ودخل السكان في متاهة جديدة ونشأت أسواق مرتجلة استفاد منها ولا شك سماسرة محترفون كما شهدت نظرية أن هذا الخروف ما هو إلا من علامات فساد الزمان، وإقتراب القيامة الكبرى ورجعت أجواء شبيهه بأجواء عصابة القط الأسود والطاسة المشلومة، حيث يتكوم الناس في الليل قرب بعض وهو يتبادلون مختلف الآراء والنظريات.

بعد أن أخذت التأشيرة في العشر الآواخر من (أغسطس) قررت زيارة وهاب. ذهبت لميدان بورقيية وانتظرت حتى وجدت سيارة أجرة سرفيس ذاهبة لماريش. كانت الطريق محاذية للساحل حيث بالإمكان رؤية آثار حملة تحصين الساحل ضد الغزو المحتمل، وكانت الأسلاك الشائكة تمتد على مسافات بقرب الشاطئ قبل أن تتقطع إثر عبث الطبيعة وتعود لتمتد من جديد، وكان الشاطئ خاليا من أي أثر بشري برغم هذا الحر الكافر، الذي يشبه الصحراء السائلة المهجورة التي تمر بها سريعا ولا مطلب لك إلا سلامة الوصول للهدف.

كانت (ماريش) في السابق مدينة صغيرة جميلة بها مصيف يقصده سكان العاصمة الراغبون في الخصوصية صيفا لبعده النسبي عن العاصمة، ولكنها الآن تبدو متعبة ومربية الهدوء. بحرها خال وشوارعها الضيقة تصفر فيها الريح، والجميع مستعجل نحو البيت، وكما توقعت لم يشتر وهاب القارب لكنه كان مشغولا بمحاولة زرع بعض الخضروات والورود في حديقته الصغيرة. كان يرتدي البذلة العربية ويبدو شخصا مختلفا عن نسخته المعتادة، جاد ومصمم ويستعد لبقاء طويل.

أخذني في جولة بسيطة داخل البيت ثم فتح غرفة المخزن القصية حيث أشار لقطارة صغيرة تنزف داخل قنينة شفافة، فأخرجت فورا بعض النقود وطلبت منه أن يبيعني كيسين من البوخة وغرقنا في ضحكة خبيثة موجعة كسرت جهامة الموقف وبؤس الخيارات.

بقيت معه للصباح نتحدث ثم عندما غفا انسللت للخارج يتعتعي السكر. لم أجد الشجاعة الكافية لتوديعه بما هو أكثر، وبقيت في ركن مقابل البحر أذخن شاردا في الفراغ، وعندما اكتمل شروق الشمس مشيت لمحلة السيارات وركبت نحو طرابلس من جديد.

أشياء تنأى

عندما كنت في الرابعة عشرة ذهبت مع أولاد الشارع لمشاهدة مباراة الدوري بين فريقى العاصمة الأهلى والاتحاد. ملعب المدينة الرياضية. بين الشوطين طوقت الملعب سرايا كاملة العدة من الجيش فجأة، لكن الراغبين فقط في السلامة الأكيدة تنازلوا عن مشاهدة الشوط الثاني من المباراة، وغادروا من الأبواب التي ظلت مفتوحة حتى ذلك الحين. كانت الجماهير تزأر كالأسود مع كل فرصة يضيع فيها أحد اللاعبين تسجيل هدف في مرمى الخصم، فينهمر سيل من اللعنات التي صممت خصيصا له، وكان الحكم تائها بين الجميع وتحول إلى مكب لكل البذاءات التي لا تستطيع الأرض نفسها تحملها لو أنها سقطت من السماء، وفي الأثناء كانت المدرجات المخصصة للسكرارى تحت الساعة الكبيرة بحكم العرف تشهد غارات متقطعة، تشرع فيها الخناجر والسيوف طلبا للشهرة في هذا الجمع الكبير، وبدا أن الزلزال نفسه غير قادر على قطع المشاركة من قبل الجميع في متعة الدوري في مباراته الأخيرة. لم يكن أحد من الحضور يبالي بالافتات الثورية التي غطت حواف الملعب، مطالبة بتحويل المدينة الرياضية لإنجاز نافع للأمة كمخازن مركزية لمحصول الشعير، لدرجة أن عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية قال في خطاب له

"لو توجد طريقة لجر المدينة الرياضية ورميها في البحر لما ترددنا في ذلك".

وما إن انتهت المباراة وهدأ الزئير وعادت الأسود الطليقة من صحاريها إلى أجسادها الآدمية، وأغمد طالبو الشهرة سيوفهم وخناجرهم حتى صرخ فينا مكبر صوت جبار:

- نحن نفتش عن المخنثين الهاربين من الخدمة العسكرية، قفوا في طوابير وجهزوا أوراقكم يا أولاد القحاب.

ومنذ الوهلة الأولى بدا ذلك طلبا عبثيا إذ كيف يمكن أن يصطف سبعون ألف مذعور في طوابير؟ هاجت الجماهير وظلت تموج في المدرجات الدائرية مروجة مختلف الإشاعات، بينما عاد السكاري لأماكنهم مطمئنين بعد أن تبين لهم أن الأمر لايعنيهم في شيء، وتزاحم الآلاف على الأبواب شاهرين أوراقهم بأيدي متعركة وهم يغمغمون...

وصلت بعد ساعتين محمولا على كتف رجل مدجج بالأوراق انتشلي في لحظة حاسمة من بين الأرجل، وهمس في أذني عندما حان دورنا بأن أخبر الجندي المكلف بالفرز بأنه أبي، وهكذا أفلت من السحق وأخذت أركض وأفكر في أبي، ومتمنيا أن يكون لاهيا عن غيابي بشيء... أي شيء. اجتزت أخيرا الباب المترع بالجنود نحو البراح والحرية. كان عند كل باب صفان متقابلان من الجنود، ومجموعة أخرى مخصصة للفرز، وآخرون يأخذون الشباب وأولئك الذين نسوا أوراقهم نحو حافلات كانت تمتليء بسرعة. رماني الرجل بسرعة على الأرض صارخا في بحزم:

- اجري يا ولد، امك مشغولة عليك هالوقت.

لكنني كنت تلك اللحظة أفكر في أبي ويده الغليظة شاعرا بحفيفها قريبا من وجهي. كان هناك أيضا خاطر من الخيبة يمر بي، فلو كنت شابا لعشت هذه المخاطرة كاملة. تذكرت مجموعة من الشباب الذين جلسوا في ركن بالمدرجات وبدوا غير مباليين وهم يغنون:

لاي يالاي اليوم عشاننا في التكبالي... (التكبالي أكبر معسكر للجيش في طرابلس).

أفكر في أبي وأجرى بقوة صبي مراهق يعرف أن ما يحدث خلفه شيء غير جيد، وبه في نفس الوقت حسرة صغيرة تكسر خاطره لأنه ليس شابا قويا يخالف القانون، ويقاد في الحافلات إلى أماكن مجهولة. قاسية وبدائية، حتى إنهم يصنعون فيها الرجال، معزيا نفسي بأنني رأيت الليلة حدثا لا يراه إلا الكبار. أمر راكضا بأحياء كاملة في الطريق للبيت، وأنا أفكر في أبي وبني فما رأيته هو شيء معتد درجة تحويلي إلى طور جديد من الحياة. لقد سمعت الرصاص الحي ورأيت الشباب اليائسين في مرحلة متقدمة من الفرز، وهم يقفزون من المدرجات نحو الخارج في محاولة مجنونة للإفلات من القدر المحتوم، ورأيت ذلك الشيخ النحيف الذي يبدو كشبح وهو يمر كالطيف بين الجموع محرضا:

- اقفروا، اقفروا يا أولادي، فربما تكون هناك فرصة للنجاة بالمستشفى.

وسمعت صوتا مشككا يرد بحق:

- لكن من يضمن أن هناك مستشفى؟.

غير أن الشيخ الشبح استمر في تحريضه وهو يذوب بين الجموع غير مبال بالتعليقات حتى اختفى كما جاء، وعندما وصلت في المرة الأولى إلى الباب رأيت أحد الجنود أزعجه تراحم الناس الذي أفسد عمل جنود الفرز، وهو يتخذ وضعا قتاليا كما يحدث في أفلام الكاراتيه، ويطير عاليا ليحط برجليه فوق صدر أحد المشجعين فينهار الطابور، وكأنه أحجار الدومينو بينما يتراجع المقاتل مزهوا لمكانه، بعد أن أدى واجبه الوطني كما يفعل زملاؤه الذين يصرخون الآن في وجه التكديس البشري: جهزوا أوراقكم يا أولاد القحبة، وكفوا عن اختراق الطابور.

المجزرة

لم يكن ذلك اليوم يبدو مختلفا في شيء، لا في المدينة التي تعج بأهلها المفروعين وهم دائخون في الطرقات بنقودهم وبراميل المياه، ومحاولاتهم الدائبة لاختراع أسماء ومسارب جديدة تمكنهم من حفظ الشكل الجديد للمدينة وقضاء حوائجهم فيها، ولا في سجن بوسليم جنوب المدينة، حيث يعيش يحيى ومئات السجناء يتقاسمون العنابر الإثني عشر، والزنازين العشر وقسطا وافرا من العذاب كل يوم، لكن حدث شيء لم يكن في الحسبان ولا بالإمكان نسيانه منذ حدث، ففي السادسة صباحا عندما كان بضعة مسجونين يوزعون الفطور المتكون من غسيل شاي وكسرة خبز يابسة برفقة جنديين. انقضت فجأة مجموعة من السجناء على الحارسين وأمسكوا بهما. استسلم الأول سريعا وتركهم يأخذون بندقيته دون مقاومة، بينما حاول الثاني أن يعاجلهم فأمسكوا به وأداورا عنقه للخلف وذبحه أحدهم بحافة الصفيحة المعدنية التي يتناولون فيها الطعام على مهل فشخب دمه، وتناوشت الأيدي حزامه حيث المفاتيح وفتحوا كل العنابر والزنازانات. كان يحيى وقت وقوع الحادث في العنبر الأخير من جهة اليسار قد استلم منذ وقت إفطاره، فوضع كسرة الخبز على فم الطاسة ووضعها في الركن، وعاد للنوم وعندما سمع من بعيد ضجة السجناء ظن أن الأمر يتعلق بحفل تعذيب لسجين أو عنبر في مكان ما من السجن كما هو معتاد، وواصل نومه على ترانيم بعض رفقاء الزنازاة بالدعاء والصلوات.

بعد دقائق من سيطرة السجناء الذين كانوا في أغلبهم من التيار الإسلامي وصل الخبر إلى العقيد سنوسي عابد، فهاتف مجموعته من

ضباطه المقربين واتجه فوراً للسجن، وعندما وصل وعرف ملخص القصة أمر فوراً ضباطه المشدوهين بتدبير أمر انقلاب شاحنتين من النفط في طريق "بوسليم" الرئيسي الذي يوصل للمدينة، ويمر بمنطقة السجن وأخرى عند مدخل الطريق الفرعي الذي يقود للسجن ما إن تصل القوة المساندة التي أمرها بالتحرك، وبعد هذه الأوامر المحددة والدالة على خبرة طويلة في القدرة على اجتراح المصاعب، والتصدي لها اتجه العقيد عابد نحو الأعلى وخاطب المساجين الذين كانوا يزمجرون في الساحة تحته طالبا منهم أن يرسلوا وفدا لسمع مطالبهم، فجاءه خمسة شباب شعث رفضوا النظر إليه حتى لا يقعوا في الحرام، وقدموا له ورقة تتضمن طلباتهم بخصوص العناية الصحية وتحسين الإعاشة ودخول الكتب والزيارات وضرورة حضور مندوب من الصليب الأحمر، وآخر من منظمة حقوق الإنسان ليشهد على الاتفاق إذا ما توصلوا إليه. طلب منهم بادرة حسن نية بإطلاق الرهينة ولكنهم اكتفوا بتسليمه جثة الجندي الذي لم يحف دمه بعد، وعادوا إلى الساحة من جديد بينما خرج العقيد عابد سريعا لمكان مجهول، وعندما عاد كانت القوة المساندة قد وصلت والشاحنتان انقلبتا في المكانين المحددين، فوزع قواته على طول أسطح السجن وقصد مكتب رئيس السجن ليعقد اجتماعا بضباطه لتوزيع المهام من جديد.

كان العقيد عابد من المدرسة الأمنية التي تؤمن بأنه عندما يدخل الطعام الجيد والعناية الصحية والكتب للسجن، فإنه لا يعود سجناء ولا يعود هناك من يريد أن يخبر عن الجرائم التي يخطط لها لقلب النظام أو زعزعته، لذلك كان من الممكن أن يضح جرعات متباعدة من هذه التحسينات ولكنها لن تصبح حقا دائما وهو على قيد الحياة، أما شرط مندوبي الصليب والمنظمة فلم يتطرق إليهما، ولو تلميحا على اعتبار

أن هذا الأمر غير قابل للتفكير به أصلاً، ثم انفراد بنفسه في المكتب ليتأمل ماهو فيه. ليس عنده أي شك في إنهاء تمرد السجناء على النحو الذي يريده، ولم يكن من ذلك النوع الذي يأسف لموت أو يفكر في أحد، ولا عنده الوقت للتفكير في هذا، فهو خارج هذا المجال، لكنه وهو يتأمل أثاث مكتب رئيس السجن، المليء بإنتاج المساجين من دمي ومسابح وكتب صغيرة مصنوعة من ورق البافرا تمت مصادرتها من أصحابها الذين قضوا ليالي طويلة حذرة في صنعها، طاف بخاطره مرارة قدره الذي يفرض عليه أن يخضع في كل مرة للتحدي من جديد. لم يكن متأثراً أو خائفاً لكنه كان تعباً بعض الشيء من العمل، ويؤسفه أنه يعرف أن التقاعد في هذا النوع من الأعمال أمر بعيد الحدوث. يشعر بنوع من الضيق والحنق على السجناء، وعلى وقع أصوات ضباطه البعيدة وهم يجوبون متفقدين التحصينات التي أمر بها تمنى أن ينتهي هذا الأمر اليوم كما يخطط، وغرق في نومة قصيرة تشبه الحمى المكثفة ماداً رجليه على الطاولة.

عندما فتح باب عنبر يحيى ثانية وسط جلبة وضجيج متداخل رفع رأسه بثقل من تحت البطانية المتسخة معتقداً بأنهم الحراس، وعندما عرف حقيقة ما يجري خرج مسرعاً ليلقي نظرة عن المكان. استعرض الجموع التي تدور في الساحة على غير هدى متبادلة همهمات مرة على شكل صراخ من هنا، ومرة على شكل نداء من هناك فعرف للتو ما حدث. سمع أحدهم ينادي باسمه وهو يجره نحو العنبر الذي انطلقت منه الشرارة، حيث لمح بقايا دم فسأل وعرف لمن، ففكر للحظات قبل أن يرفض عرض مشاركته في وفد المفاوضة الذي اقترحه عليه مجموعة من العنبر بأصوات متتابعة. رأى أن ما حدث لا يعنيه ولم يستشر فيه وعبر عن اشمئزازه من قتل الحارس، وطلب منهم إطلاق سراح الجندي الأسير

قبل أن يعود مجددا إلى فراشه متصرفا على أساس أن الأمر لا يعنيه. لم يكن خائفا ولا حتى متفاجئا فقد كان يدرك أن الوضع في السجن سيصل لاحالة في أحد الأيام إلى هذه النقطة، أو نقطة شبيهه لها، لكنه كان غير موافق على الطريقة والمضمون، فهو كان قد انتمى لتلك الجماعة المتشددة دينيا بغرض أنها وسيلة ربما تمكنه من تنفيذ عملياته، وليس كفكر يؤمن به. كان يريد الانتقام من رؤوس النظام وليس من المجتمع ككل باعتبار أنه خارج عن الملة. هزه مقتل الحارس ولمس داخله وترا بقي على مر الأيام مشدودا. كان خياره يتجه مباشرة فوق، والطريقة الوحيدة التي يمكن له أن يشارك فيها بالوفد هي اتفاقهم معه على أن المهمة هي خطف العقيد عابد نفسه وليس مفاوضاته، وعندما رفضوا هذا الاقتراح عاد لغرفته واندس في فراشه من جديد، بالطبع لم ينم واستمر في التقاط كل الأخبار التي تصله، محاولا رسم تطورات المشهد خارج العنبر، ولكنه لم يخرج حتى عودة العقيد عابد في الضحى وإطلاله على السجناء، وإبلاغهم أن القيادة قد وافقت على طلباتهم وأنها تطالبهم بإخراج المرضى لنقلهم للمستشفيات، وتسليم الحارس والبديتين اللتين لم يأت على ذكرهما حتى تلك اللحظة حتى لا يعطي انطبعا بأنه يعتبرهما أهم شيء في العملية كلها، فلا ينقص هذا المشهد إلا أن يبدأ السجناء في إطلاق النار قبل أن يقرر هو، وبعد أن انسحب إلى الداخل ليعطي فرصة للسجناء لمناقشة الأمر بينهم، خرج يحكي بعد أن تأكد أن الأمر لن ينتهي بسلام وأن عليه أن يساهم في صنع مصيره النهائي.

كان شعره ينسدل في دوائر صغيرة تصل حتى كتفيه، وقامته ناحلة مثل عصا البيلاردو، ووجهه ناشف من قلة السوائل ولكن عينيه بقيتا دائما حادة كعيني صقر. اتجه إلى التجمع الرئيسي مرة ثانية مارا

بتجمعات صغيرة متناثرة ومتحركة للسجناء، وأدرك قبل أن يصل أنه ما من رأي واحد يجمع هذا التحرك الغاضب، فبعض السجناء كان مع التسليم وحتى الاعتذار عما بدر منهم، وبعضهم لم يكن يفكر في التراجع أبداً، وآخرون مبهوتين يشلهم الخوف من رفاقهم الذين يقودون الإضراب، وأيضاً ما ينتظرهم في الخارج عندما يأخذون بحريّة لم يساهموا فيها وكانوا منها على غير علم.

ظل يحيى يتمشى محاولاً إعادة ترتيب نفسه متأملاً الحشد بأسماله البالية، يدور في الساحة الصغيرة المستطيلة ذاهلاً كأنه في يوم الحساب، وبعد برهة بدأ بعض السجناء بإخراج المرضى المرميين على أسرتهم، وآخرين يعرجون على عكازات قديمة، كأنهم موتى خارجون توا من القبور لسماع القرار الأخير يوم الحساب، وعندما رأى الجندي الرهينة في المقدمة حاملاً البندقيتين على كتفيه عرف أن المضربين قرروا أن يقبلوا بالعرض الأدنى للعقيد عابد، وإرسال المرضى لتلقي العلاج. تابع القافلة الصغيرة وهي تتن في خطواتها نحو الباب، وانتابه غيظ شديد حتى أحس بأنه قد أغمي عليه في وقفته، وسار كالنائم السائر في كابوس، ثم سار خفيفاً كريشة وشاهد جسده وهو ينفصل عن الأرض. راقب المجموعة التي أرسلها العقيد عابد حاملاً قدورا وأواني وترامس تفوح منها روائح زكية وضعوها في منتصف الساحة، حيث تجمع السجناء وبدأوا في توزيع وليمة حسن النية، بينما تسللت المجموعة للخلف لقفل العنابر والزنازين حتى يصل عمال خصصوا لتنظيفها ما إن ينتهى الغداء. أخذ يحيى زجاجة ماء عبوة لتر ونصف وشرب منها، ثم جلس بها أمام غرفته مثل تلك الأيام التي كان يشرب فيها البوخة على عتبة البيت في أواخر الليالي من ربيع طرابلس، قبل أن تصل شمس الصيف اللاهبة. شعر وهو يلتفت إلى

ذلك الزمن بالمسافة الشاسعة التي قطعها بين اللحظتين. مسافة تكفي لأكثر من عمر رغم سنواتها المعدودة. مكثفة ومتسارعة ومليئة بالإخفاق. كان جنود الحرس الثوري الخاص قد ظهرُوا الآن فوق السطح في بذلاتهم العسكرية وخوذاتهم الحديدية كالفطر المسموم، وبدا واضحا أن القدر يسطر كلماته الأخيرة في هذا الكتاب. ضم ركبتيه إلى صدره وأطلق نظرة شملت المكان. عم صمت تام وجليل، وبعد لحظات سُمع صوت قوي يأمر بإطلاق الرصاص. انطلق الرصاص من كل ركن، تساقطت الاجساد على بقايا الطعام، وتناثرت الأطراف بين الأواني. راقب يحى المشهد في زمنه المكثف الخائر كالدم، وفي اللحظة التي أغلق فيها عينيه داسا رأسه في حجره متفرجا على الصور الأكثر التحاما بذكريته. اخترقته قطعة حديد صغيرة ساخنة وصلت لتوها للهدف وأمعنت فيه. حاول أن يرفع رأسه من جديد لكنه أدرك قبل أن ينام أنه قد وصل أخيرا إلى يومه الذي كتب له. بقي ثابتا في مكانه حتى أزاحت صليبة رشاشة إلى أغراض عامة، وفي ذلك الوضع ظهرت عيناه الصقريتان تتابعان تجمع البركة الصغيرة من الدم التي استطاع أن يراها بوضوح.

بعد ساعات من إطلاق النار المباشر كانت العملية قد قاربت على الانتهاء. نزل العقيد عابد يتفقد مسرح المعركة بينما كانت أنات الرمح الأخير تصدر من البعض. أجهز على جرحاه وأمر جنوده بتكويم الجثث التي شحنت في شاحنات مبردة تابعة للشركة الوطنية للمواشي، والشركة الوطنية للصيد البحري، وفتحت الطرق في نفس الليلة ونامت المدينة بجوار ألفين ومائتين وواحد من القتلى، بما في ذلك أفراد ذلك الموكب المريض الذي ظن أنه في طريقه نحو المستشفى.

فاطمة

مال علي سوف بثاقل وهمس في أذني بأن فاطمة تحتضر. نظرت إليه طويلا نظرة أبله ضائع في الملكوت طافيا في الفراغ قبل أن أستعيد وقفتي من جديد، وألمح عينيه تترقرقان بدموع مكبوتة وحزن أليم وضعف يكاد يلمس باليد. لقد نسينا فاطمة في زحمة الحياة ومناهة المشاغل الوهمية التي لاهي تنقضي ولا نحن نتحلى عنها. فاطمة الزميلة المفتونة بالشعر والسينما. مر أمامي شريطها الطويل في تلك اللحظات الثقيلة القابضة على الصدر، منذ ان كنا معا نتردد على الجرائد وننشئ علاقات المبتدئين. كانت فاطمة عندئذ أكثرنا جرأة وحماسة ومبادرة، تبدو وكأنها نسيت فاجعتها الشخصية وقفرت إلى مرحلة جديدة من حياتها متخطية كل ما حدث لها.

كل يوم كانت فاطمة تتحامل على نفسها وتدخل مطبخها الواسع رفقة خادمتها، وتهتمك في إعداد كمية كبيرة من الطعام في طناجر مختلفة الأحجام، وتظل تتنقل بينها حتى تصاب بالإعياء فتنسحب وتترك الخادمة لمراقبة الطبخ، وتعود لغرفتها لتبكي براحتها وهي تراجع حياتها التي على وشك الوصول إلى المحطة الأخيرة.

كانت فتاة يافعة ترفل في العز عندما داهم زحف ثوري هتاف مبنى الجمع الجديد الذي شيده والدها للتو، وقرر أن يسميه باسمها ويخصص داخله ثلاث قاعات للسينما حبا فيها. كان تاجرا معروفا من جيل الرأسمالية الوطنية التي تسعى إلى جانب الربح للصيت الحسن. الجيل الذي شب على الاستقلال وحكايات نضال الآباء والأجداد التي كانت في كل ركن من البلاد، وعندما استلم أعمال أبيه زاد فيها وتوسع حتى أصبح من التجار الكبار. كانت فاطمة تتحول في الأروقة

العديدة عندما دخل ذلك الفريق الزاعق وسيطر على المبنى، واتجه نفر منهم إلى مكتب والدها ليعلمه بمصادرة مبناه لصالح الجماهير، وأعطى له اسم جديد حيث سيسمى منذ هذه اللحظة قاعة الشعب. أصيب الوالد فوراً بجلطة ثم شلل ومات بعد أيام، وانتهى بها الوضع إلى الزواج من مرزوق دهيمش الثوري الذي سطع نجمه في عالم صحافة الثورة، والذي ترأس لتوه تحرير جريدة "للأمم" النافذة وصار يشار إليه بالبنان كما يقولون.

كانت بداية سيرة دهيمش بعد نجاحه بالاتصال بالناهي ملحا في أن يريه محاولاته الشعرية وينال شرف رؤيته، ودون انتباه كبيره رحب الناهي به في أي وقت يناسبه وأعطاه العنوان. في ذلك اليوم كنا نجلس في مكتب جانبي نسميه مكتب سوف بالرابطة، وكنت ووهاب حديثي التردد على المكان أما فاطمة فكانت البنت المدللة فيه، فأغلب كتاب جيل الستينات كانوا على معرفة جيدة بوالدها وبعضهم كان صديقا له.

لسوء الحظ كان ذلك هو الوقت المناسب لدهيمش الذي جاء في التو واللحظة. إذ لم تمض ساعتان على تلك المكالمات الملعونة حتى دخل علينا شاب أبيض في بذلة عربية وشيشب إصبع، على هيئة من ندم على خطوته ومد لفة أوراق معروقة نحو الناهي وهو مازال يلهث ككلب. كانت اللفة تحتوي على خواطر شعرية ونثرية ثورية لاهبة تهدد بتصفية كل الأعداء، وعندما لمح الناهي ذلك لم يفكر وهو يرتكب الخطأ الثاني، ويدله على أن أفضل مكان لنشر ما يكتبه هو جرائد الثورة حيث - كما قال دون أن يلاحظ دهيمش تحكمه - هناك البراح أوسع والسقف أعلى بما يناسب نتاجه، وفعلا ذهب دهيمش إلى هناك وداوم منذ اليوم الأول دون أن يسأل أحد، ولم تمض

أشهر معدودة حتى عرف المسارب كلها، وصار اسما مكررا في كل عدد، وقفز من مكان إلى مكان حتى شاءت الأيام أن يلتقي فاطمة في واحدة من فترات ضياعها الخفي، التي يزداد فيها بحثها عن الحماية والطمأنينة. عندها التقى قدرهما في صفقة ضعف فازت فيها فاطمة بالسكينة، كما ظنت ونال فيها دهيمش مصاهرة مع عائلة عريقة مناسبة تماما لشاب ريفي ضاع بين شتم المدينة وحب الانتماء إليها في آن واحد.

كانت طباخة ماهرة وسيدة طاولة بالفطرة وذواقة نادرة للنكهات، وكانت حتى في تلك الأوقات المتدهورة التي تمر بها لازالت قادرة على التفريق بين أنواع ماتطبخه من خلال الرائحة وهي جالسة في دارها تبكي وحيدة.

عندما أخبرها الدكتور أن أيامها أصبحت معدودة كان أول ما فكرت به كيف تحتفظ بذكرها في ذهن ابنتها وولدها لأطول فكرة ممكنة. كانا دائما يقولان أنهما يشعران بوجودها في المدرسة بمجرد أن يفتحا صندوقي وجبتهم الصغيرين، لذلك أرادت أن تبقى معهما ماوسعها بعد الرحيل.

بعد الزواج انتقلت إلى حي دمشق الغني بعد أن استرد لها زوجها بنفوذه فيلا صودرت من عائلتها أيام الزحف الثوري على الممتلكات، وبقدر ماهنت بإقامتها في البيت الذي ظنت أنها فقدته إلى الأبد أصيبت بالخذلان في زواجها بعد أسابيع، فلم يكن زوجها المنطلق كالسهم في فضاء الثورة ليكتفي بامرأة واحدة كما اكتشفت، ففي رحلاته الطويلة لنشر الفكر الجماهيري ومطاردة المعارضين في الخارج كان دائما يجد الوقت الكافي لمغامرات نسائية أممية، تشمل نساء من كل المنابت لم تسطع إحداهن أن تروي

العطش الأزلي الذي كان يسكنه. كان يعتبر لبس الواقى الذكري معرة للرجل، ولم ينتبه الشك في أن الإيدز مرض "إمبريالي" ناتج عن التلاعب الغربي في المحتربات، كما قرأ في الأدبيات الثورية التي دأبت على تحليل مايجري في العالم كما تحب وتشتهي وتريد. لكنه عاد من إحدى تلك الجولات بالمرض "الإمبريالي" وقضى ماتبقى من وقت يطوف من مشفى إلى آخر في رحاب الإمبريالية صحبة فاطمة، التي رافقته فقط لتؤكد من أن يوم خلاصها منه صار قريبا، وهو ما حدث بعد أشهر ولكنه لم يقع حتى كانت فاطمة أيضا قد أصيبت بالوباء الإمبريالي بعد أن أثبتت تحليلات الدم الذي قامت به على سبيل التجريب.

كتبت وصيتها طالبة من أمها وماتبقى من العائلة الانتقال لبيتها لرعاية البنت والولد، ومتمنية أن لاينفذ خزينهما من الأكل حتى يكونان قد اعتادا على غيابها الغامض، الذي حرصت على أن يتم بهدوء. اشترت ثلاثيات ومجمدات أخرى واستمرت لأسابيع في حفظ كميات كبيرة من الطعام المطبوخ في حافظات وأكياس وأوان، كما شددت في وصيتها على أن تدفن في أبعد قبر ممكن من "ذلك الداعر الذي أوقع بي"، وعندما أحست بدنو أجلها قررت الخروج من البيت واستقبال عدوها القاهر في مكان محايد رافضة أن يدخل بيتها حتى لا يكدر صفو طفليها.

ستبقى فاطمة دائما في خيالي كما رأيتها في آخر زيارة في اليوم الذي مر فيه الموت من جانبنا، حتى وصل لسريرها ونال ما يتغيه. وصلت عصرا لذلك المستشفى المرمي في حي من منطقة أبو ستة، والذي تحوطه بقايا أشجار يختفي خلفها بحيث من الصعب ملاحظته مهما مررت على مقربة منه. كان مستشفى صغيرا معدوم الإمكانيات

مخصصا لمرضى الصدر. اختارته لأنه قصي ويمكن الموت فيه بهدوء. عندما وصلت إلى المكان وجدت كثيرين وصلوا قبلي فاكثفت بتحتيتها من بين الأكتاف رافعا يدي، وردت علي بوهن من خلف الأسلاك تبدو شاحبة ومعذبة ونادمة فعلا على خيارها الوحيد الخاطيء بعد فوات الآوان.

عدت للخلف من جديد ووقفت على حافة الحائط القصير المفضي لبراح صغير بجانب وهاب، الذي كان يدخن بصمت متأملا نقطة ما على الأرض. التفت نحوي ببطء وأخبرني أنها اللحظات الأخيرة كما يقول الدكتور.

مضت فاطمة إلى الجانب الثاني بهدوء وبقينا نحن أصدقاء البدايات نخوض في العاصفة بدون التعويذة، التي يرفعها الصيادون ضد المخاطر في عرض البحر.

المتنبى

في ذلك الفجر المنعش من مارس تلقى المتنبى هاتفا مستعجلا في بيت المزرعة الواقعة بجنوب البلاد، والتي يجب أن يقضي فيها ماتيسر من هذا الفصل مستمتعا بتفقد أنعامه ونخيله، ولقاء الأصحاب والخلان وإنشاد الشعر والاستماع إليه. كان الاتصال من طرف قلم القيادة شخصا، والطلب أيضا مستعجل. سيقام احتفال جماهيري كبير بعد غد بميدان الفروسية على مشارف العاصمة، والقائد شخصا قد وجه بضرورة استدعائه ليشترك في هذا الحشد الفروسي. بما تجود به قريحته.

ما إن سمع المتنبى كلمة القائد حتى هام في الملوكوت وصار يدور في المكان كالمجنوب وهو ينادي سائقه الخاص نائب العريف

سعد المجريس، الذي استيقظ متكاسلا في غرفته بركن المزرعة كاظما غيضا قديما، ماذا أطرافه ليتخلص من تعب متراكم حل به منذ أن دفعته الأقدار الغشيمة للعمل مع هذا الكائن الضاج، والحير والكثير الطلبات والتنقل. كانت الساعة الثالثة فجرا، وفي الثالثة والرابع كان المتنبى في الكرسي الأمامي يهمز سائقه في رجله كالحصان حاثا إياه على الانطلاق بسرعة، والاتجاه نحو الهدف المنشود وهو لا يكف عن تردد:

- سيدي القائد طالبي، خف روحك. الدنيا صبح وإحنا ما زلنا في مكاننا.

وما ان انطلقت السيارة بحدة كغضب السائق المكبوت حتى بدا المتنبى ساجحا في فضاء الفجر المغبش، وهو يدندن بقصيدة جديدة خطرت له للتو تحكي قصة استيقاظه من النوم في غير ميعاد تلبية لنداء القائد الذي يأمر فيطاع وينده فيجواب.

لكن هذه الدندنة ما كانت تعني للسائق المتعب الذي لم ير عائلته منذ اسابيع، ولم يزد راتبه منذ سنوات إلا دعوة صريحة للنوم. كان المتنبى في كل مرة يعود فيها من سباحته في بحر الشعر الذي يجره نحو البعيد يكرر همز السائق من جديد. وما إن ينتبه هذا حتى يعود المتنبى لدندنته فينجر السائق رويدا رويدا لسلطان النوم متتبعا إياه نحو الهوة العميقة التي لا تقاوم حيث لا تفكير ولا هموم.

اجتازت السيارة المدينة الصغيرة ودخلت براح الصحراء الشاسع. بالكاد كان السائق يغير معشق السرعات ويناور كثنان الرمل الصغيرة التي تنبت فجأة كلما هب الريح. كان الأفق المفتوح يمثل اتجاهين مختلفين لراكبي تلك السيارة المشؤومة. بالنسبة للمتنبى كان ذلك الأفق الذي بدأت الشمس تطل عليه من بعيد

بهايتها الحمراء كبرتقالة كبيرة قصية ومشتهاة، مدعاة للإلهام وزيادة صدر أو عجز جديد في تلك القصيدة الأخيرة التي لم يسمعها أحد. أما بالنسبة للسائق الذي مل كل شيء فقد كانت تلك الهالة الحمراء الخجولة دعوة صريحة للغياب والراحة، وإقفال الشبايبك عن هذه الحياة المتعبة من أجل إكمال النوم، وفجأة وبينما كان المتنبى قد أمسك أخيرا بقرن شيطان قصيدته، وبدأ صوته يعلو بالتدريج بما يتناسب مع مقام الأبيات فرحا ومنتشيا وفخورا بأنه قد أكمل ما بدأه في زمن يليق بفحل مثله كان السائق قد غرق في النوم، وبينما كانت السيارة طائرة في قفزتها الأخيرة نحو الأبدية كان المتنبى لحظتها منشغلا تماما عما يحدث، وهو يردد النسخة الأخيرة المكتملة من تلك القصيدة الملعونة التي جرت به إلى قبره، أما السائق فقد تلطفت به الأقدار أخيرا ومنحته نهاية طالما أحبها. نهاية الموت وهو غارق في النوم.

““

بقت أيام قليلة على موعد سفري. قررت أن يكون ذلك في بداية (سبتمبر) عندما تحتفل الثورة بذكرى انقلاهما على الملك، وتختلط الكثير من الأمور عندها ورغم التشدد الأمني الذي يحيط المدينة إلا أن الكثير من الثغرات يمكن المرور من خلالها. في هذا اليوم عادة ماتفرض حالة طوارئ غير معلنة على الداخلين للمدينة، وليس على الخارجين منها، كما أن خبرا غريبا انتشر في عرض البلاد وطولها يقول إن الثورة قامت في العام 1969 وهذا العام يصادف 1996 وإن تصادف مفارقة الرقمين له دلالة قدرية تخبر بانتهاء هذا العصر، كما أفق بذلك أصحاب الاطلاع على ما تيسر من علم الغيب، وساد هذا الخبر في كل الأنحاء لدرجة أننا على بعد أيام قليلة من هذه الذكرى المشؤومة ولم نر بعد

أيا من المظاهر التي اعتدناها في هذه الظروف. المنصات والأضواء واللافتات وما شابه ذلك. أعرف شخصا يعيش فقط من هذه الذكري ولا بد أنه في موقف لا يحسد عليه الآن. كان يقوم بتزيين الشاحنات في هذه المناسبة ويتحصل على مبلغ يكفيه للعيش طوال العام دونما خصاصة.

راجعت خطة الخروج من الحدود البرية مع تونس عدة مرات. كانت بسيطة ولكنها تحتاج لقلب قوي عصي على الارتباك. تعلمتها من عراقي زار أقرباء له في ليبيا وفي الأثناء أمر ما عدت أذكره كان يلزمه بورقة إضافية من أجل الخروج فخطرت على باله هذه الفكرة البسيطة جدا لدرجة أنها مرت بسلام، ومن يومها وأنا أدرسها ليوم أحتاحه كالذي أنا مقبل عليه.

كنت قد تحولت في المدة التي قضيتها بدون عمل متهما ملاحقا لعدة جهات، فأنا بحاجة لورقة من المربع الأمني الذي أقطن فيه، ووثيقة رسمية من الجيش بأني قد أدت خدمة العلم حسب آخر طبعة، ورسالة أخرى من العمل تؤكد حصولي على إجازة رسمية تخولني السفر، وربما وثائق أخرى لا أدري بأنها مطلوبة في مثل هذه الظروف.

وفي اليوم الموعد، الأول من سبتمبر صحت باكرا وتمشيت خارجا من الباب المطل على الهضبة الشرقية ثم سرت قدما حتى التقيت بسيارة نقل أوصلتني إلى وسط أطراف المدينة بسعر مضاعف، حيث عاودت المشي مخترقا الشوارع الكبيرة حتى وصلت لميدان بورقيبة الذي انتظرت فيه نحو ساعتين قبل أن تمتليء سيارة الأجرة بمسافرين نحو تونس العاصمة. كان أغلبهم من العمال التوانسة، اخترت الكرسي الأمامي بجانب النافذة كما تقتضي خطة العراقي وهو مكان يتيح لك

تأمل الفراغ المحيط بك على مهل طوال الرحلة، والقاء نظرة أخيرة على المدى المفتوح أمامي من هذا البلد الذي قضيت فيه ثلاثة عقود وأنا على وشك أن أتخلص منه اليوم. كانت المدينة محاطة بالدبابات والآليات الثقيلة وهي نصف مخفية كي يراها من يفكر في تحقيق تلك الرؤية المزعومة، والجنود منتشرون في مداخلها يفتشون بدقة وصرامة أولئك الذين ساقهم حظهم النكد لدخولها في هذا اليوم، بينما كانت طريق الخروج من طرابلس وضواحيها مفتوحة ورحبة كأنك في بلاد الله الواسعة فعلا.

بعد توقف في الطريق وحوالي أربع ساعات وصلنا إلى الحدود التونسية. كان طابور الانتظار قصيرا بالنسبة لما قدرت لذا كان علي أن أستجمع نفسي للمرة الأخيرة سريعا، وأخذت نفسا عميقا ومر شريط حياتي أمامي في لحظات وما إن وصلنا لمكتب الجوازات حتى فتحت الباب ومثلت دور المتطوع المتحمس، ودونما انتظار أخذت في تجميع جوازات سفر الركاب مقسما أن لا ينزل منهم أحد. أخذت كومة الجوازات بين يدي واتجهت بها للحاوية التي بها موظف الجمرک او الأمن أو الشرطة لا أدري بالضبط. صبحت عليه بالخير وأعطيته الجوازات وأنا في قمة تركيزي حتى أن بطني كانت تتقلص من مفاجأتي لنفسي. أخذ الموظف يختم الجوازات وهو يتنقل بنظره بينها وبين راكبي السيارة خلف الشباك الحديدي الصديء، وعندما وصل لجوازي لم يجده صاحبه في السيارة فسأل:

- وين صاحب هذا الجواز...
- ولحسن الحظ كنت في الموعد
- هذا جوازي ياخوي...
- جوازك انت... خادم القوم سيدهم...

ولم أصدق عندما ختم الجواز دون أي تداع مهلك. انتظرت قليلا مغالبا رغبة مفاجئة في البكاء وتقبيل ذلك الموظف ثم أخذت الجوازات المختومة وعبرت نحو السيارة، غير مصدق لأكون بعد دقائق في الجانب المقابل من الحدود. جانب النجاة.

نوفمبر 1997

في أحيان كثيرة لا يدل الأمس على اليوم ولا اليوم على الغد. عشت الأيام الماضية في روتيني العادي حتى كان الأمس الذي جاء يوما مميزا بعض الشيء. جاءني كاسبو في الضحى بالمطعم وأخبرني أنه بإمكانه تزويدي بالمارجوانا بنصف السعر الذي اشترىها به، أي خمسة خلدن بدل عشرة، رفض أن يوضح لي كيف وممن لكنه أكد أنه مستعد لعمل ذلك ما إن أوافق على عرضه، وما إن تمشيت قليلا راجعا لغرفتي حتى لحق بي الصيني لي ليخبرني بحقيقة مصدر صفقة كاسبو دون أن يدري عرضه الذي قدمه منذ قليل. كنت وكاسبو ولي تمثل نوعا نادرا في الآزاتسي حيث، لا يوجد من جنسيتنا سوانا بالمكان، ولذا ربطت بيننا علاقة ود ضمني وإن لم نكن نلتقي بشكل دائم. أخبرني لي أنه عثر وكاسبو على مزرعة كاملة من المارجوانا في الجوار، خلف القرية تماما، غالبت خيبة ظني في كاسبو وركبت دراجتي ورافقت لي نحو المزرعة، وما إن تجاوزنا القرية بقليل حتى أوقف دراجته وسط السهل الأخضر المنبسط مشيرا إلى المكان. كانت النباتات الخضراء مترامية وكأنه حقل ذرة، وبينما كنت متجها للتوغل في غابة الكيف هذه قال لي إنه سوف يمويه على وجودنا، وفتح سحاب بنطاله ووقف عند شجرة مجاورة وأخذ في التبول، ومضيت أسبح في تلك

الخضرة واتشممها ثم انهمكت في الحصاد قاطعا الرؤوس التي بها الثمرة المقصودة، وواضعا إياها في جيوبي، حملت ما استطعت وعدنا للمركز واتجهت للغرفة وأفرغت ما حملت، ثم خرجت باتجاه أصدقائي الألبان ووزعت عليهم بعض الغنيمة، وقضينا بقية النهار وقسما من الليل ونحن نحري تجارب مختلفة من أجل تسريع انضاج النبتة، ولكن كل تلك المحاولات انتهت بالفشل، فدورة النبتة الطبيعية كانت لا تزال بحاجة لدورة أخرى، فنظرا لنقص الحرارة الطبيعية وقلة ظهور الشمس كان المزارعون ينقلون هذه الثمرة التي تشبه عنقودا صغيرا مليئا بالبذور إلى أماكن مضيئة خاصة، حيث تستمر عملية التدفئة حتى تنضج وهو ما فشلنا فيه لأننا أردنا أن يتم عمل أسابيع طويلة في ساعات.

صحوت اليوم في حوالي العاشرة ينتابني صداع بعد تدخين عدة لفافات خضراء في تجارب البارحة، فتحت الثلاجة الصغيرة بتكاسل وتناولت قرصي إسبرين، وعدت للسريز أراقب ابتعاد الصداع عن مجالي الخاص، ثم خرجت ببطء من الغرفة وتجولت على غير هدى لبعض الوقت ثم عدت من جديد، واكلت سندويشة تن بالهريسيسة أنعشتني بعض الشيء وشربت بعض الماء وكأس شاي وتابعت، التلفزيون حتى الثالثة تقريبا حيث خرجت وانضمت لجماعة البلياردو وبعد ان لعبت جولتين سمعت اسمي يتردد في المدخل.

كانت السيدة آتي ترافقها فتاة أخرى من الشؤون القانونية، وييديها بعض الأوراق ترددان اسمي فخرجت ألتقيهما عند الباب فصرختا تقريبا في نفس الوقت بأنني قد تحصلت على اللجوء السياسي. مررت عصاة البليارد لمن لمن كان بجانبني وبقيت للحظات جامدا ومتصلبا في مواجهة حضن آتي، التي فاجأني فرحها وخبرها وصرخات الحاضرين، يبدو أنني لست الوحيد - كما ظننت - الذي كان ينتظر

خبرا سعيدا كهذا ينهي مرحلة كاملة من حياتي، ويخرجني من مغامرتي بشكل مشرف لا يتكرر كثيرا لمن هو في حالتي...

قضيت الأيام الباقية طافيا على ظهر نتيجتي الباهرة، ومخططا لحياقي القادمة، ومنتظرا بيبي الذي ستخصصه لي الجهات المسؤولة متجنباً حالات الوداع ومتظاهرا بأني غير مهتم كثيرا. أيام عشتها كأني عريس المركز. الكل يهنيء والكل ينصح والكل ينتظر معي، حتى جاء اليوم المشهود الذي أحبرني فيه مكتب الشؤون القانونية بأنه تم تخصيص بيت لي في مدينة امستردام بالذات، ملأت كل البيانات المطلوبة وأكملت إجراءات انتقالي، وأخذت تذكرة التاكسي والقطار وغت ليلة متقطعة شبيهة بليلة قدومي منذ حوالي عام مضى لمطار امستردام طالبا اللجوء، وفي ذاك الصباح السعيد نهضت باكرا وأخذت السيارة إلى المحطة، ثم قطار السادسة والنصف متجها نحو مدينتي الجديدة حاملا متاعي القليل، وبعد حوالي الساعتين وبينما كانت شمس (نوفمبر) الخجولة تطل من نافذة القطار أعلن صوت نسائي غير مكبرات الصوت المنتشرة في القطار عن وصوله إلى محطة أمستردام، حيث عاودتني رجفة بت أعرفها جيدا داريتها بهدوء ثم حزمت أمري، ونزلت للمحطة المكتظة بالمسافرين وانسللت وسط الناس نحو الباب الرئيسي لأخرج للحياة من جديد.

امستردام 1998

الدوحة 2012

لمراسلة الكاتب:

Omaromar616@hotmail.com